

علم الغيب في العالم القديم

وضعه
شيشرون
فيلسوف الرومان وخطيبهم

ترجمه وشرحه وعلق عليه
الدكتور قيس الطويل
مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر : مكتبة الآداب بالجاميزت ٤٢٧٧٧

مطبعة الاعتماد بمصر



السلسلة الفلسفية والاجتماعية

- ٢ -

علم الغيب في العالم القديم

وضعه
شيشرون
فيلسوف الرومان وخطيبهم

ترجمه وشرحه وعلق عليه

الدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر : مكتبة الآداب بالجمايز ت ٤٢٧٧٧

مطبعة الاعتماد بمصر

فهرس الكتاب

مقدمة المترجمة العربية

ص ٥ تعريف بالكتاب — ٦ شيء من سيرة المؤلف — ٧ شيء عن حياته العلمية والفلسفية — ٩ مكان شيشرون في مجال الفكر — ١٠ منهجه في البحث — ١١ أخوه كوتتوس — ١٢ منطق البحث في هذا الكتاب — ٩ المصادفة عند كوتتوس — ١٤ موقف شيشرون من تأييد المصادفة — ١٨ هذا الكتاب ورسالة الدكتوراه — ١٨ تاريخ الكتاب وأصوله — ١٩ أم طبعاته — ٢٠ كلمة في ترجمته .
٢٢ مقدمة للأستاذ الجليل محمد شفيق غربال بك المستشار الفني لوزارة المعارف العمومية :

الكتاب الأول

أدلة كوتتوس في تأييد التكهن بالغيب

٣٥ قدم الاعتقاد في التنبؤ — شيوع التنبؤ في العالم القديم — ٣٧ أساليب الرومان في التنبؤ بالغيب — صناعية وطبيعية — ٤٠ موقف الفلاسفة من التكهن — ٤٤ تردد شيشرون في التسليم بالتكهن — بدء المناقشة بين شيشرون وأخيه في موضوع التكهن — ٤٧ ضرورة الاقتناع بالتنبؤ رغم غموض أسبابه — ٥١ دحض الاحتجاج بالمصادفة في تفسير التنبؤ — ٥٢ مناقشة الاحتجاج بكذب النبوءات أحيانا — ٥٤ التكهن قبل شيشرون وفي أيامه — ٥٧ في تاريخ الكهانة — ٦٠ تأييد التكهن بنوعيه : الطبيعي والصنعى — ٦٣ تأييد التنبؤ الطبيعي — (١) التنبؤ عن طريق الوحي (في دلفي) — ٦٤ تأييد التنبؤ عن طريق الرؤيا — ٦٦ الأحلام عند غير الرومان — ٧٠ أحلام الفلاسفة — ٧٢ الأحلام في المصادر الرومانية — ٧٦ نشأة الرؤيا الصادقة وحالات المس في رأى الفلاسفة — ٧٦ رأى أفلاطون — ٧٨ رأى الفيثاغوريين — ٧٩ الموت وإدراك الغيب — الطبيعة البشرية والهجس — ٨٢ صدق التنبؤ رغم أخطائه — ٨٣ تأييد التنبؤ الصنعى : منهجه وأساليبه — ٨٦ مغبة الاستخفاف بنذر الزجر — ٨٩ في تأييد التنبؤ الطبيعي والصنعى : إلهام الشعراء والخطباء عند ديمقريطس وأفلاطون — ٩١ تنبؤ المرضى عند أرسطو — أدلة الرواقية على قيام التكهن بالغيب — ٩٢ مبررات الاعتقاد في التكهن مع غموض أسبابه — ٩٨ البيئة تحدد نوع التكهن — ٩٩ أثر التكهن في توجيه الحكومات والشعوب قديما — ١٠٤ العال والطيرة عند الفيثاغوريين وغيرهم — ١٠٥ تأييد فن العيافة مع غموض أسبابه — تأييد التنبؤ الطبيعي — استبعاد التدليل العقلي من مجال التكهن — ١١٠ — التفسير العقلي للتنبؤ بالمس (الجنة) — ١١١ التفسير العقلي للتنبؤ عن طريق الرؤيا — ١١٢ نظرية أنثيفون في تفسير الرؤيا — مبررات تعبير الرؤيا : غموضها — ١١٣ العناية الإلهية بأفراد الشعب — ١١٤ موقف الآلهة من التكهن الصنعى — ١١٦ الوحي الإلهي عند سقراط يؤيد التكهن الطبيعي — ١١٨ مصادر التكهن — القضاء والقدر في مجال التكهن — ١٢٠ طبيعة النفس الانسانية كمصدر للتكهن — ١٢٢ مهاجمة الدجالين والمرزقة من مدعى الكهانة .

الكتاب الثاني

رد شيشرون على أدلة كوتوس في تفنيد الاعتقاد بفنون التكهن

- ١٢٧ مؤلفات شيشرون الفلسفية — ١٢٨ مكانة الفلسفة عند شيشرون : اتصالها
بتهديب النفوس — ١٢٩ أسباب اشتغاله بالفلسفة — ١٣٠ منهج شيشرون — أى
الأكاديمية الجديدة — فى مباحثه — ١٣١ التكهن لا يستقيم فى مجال العلم والفن والفلسفة
— ١٣٥ تفنيد معنى المصادفة فى التعريف : مناقشة تعريف التكهن عند كوتوس —
١٣٧ اقتراض المصادفة يمنع من تعقل الإدراك الغيبى — ١٣٩ اقتراض القدر يمنع من الانتفاع
بالتكهن — ١٤٠ مضار العلم بالغيب — ١٤٣ مهاجمة أساليب التنبؤ : صناعية وطبيعية —
١٤٤ مناقشة أساليب التنبؤ الصنعى : أسباب العرافة — ١٤٥ (١) مناقشة التكهن
بالنظر فى الأحشاء — موقف ديمقريطس من النظر فى الأحشاء — ١٤٧ هذا التكهن
لا يستند إلى قوانين طبيعية — ١٤٨ دحض الاحتجاج بالارادة الالهية — ١٤٩ السخرية
من استشهادات الرواقين — ١٥١ لإثبات رأى الأبيقوريين على رأى الرواقين — ١٥٢
(ب) مهاجمة التنبؤ عن طريق البرق — ١٥٤ وصف الصواعق النيرة عند الرواقية
ومناقشتها — مناقشة استشهادات الرواقية والأصرار على تعليلها — ١٥٧ إقرار المصادفة فى
مجال التكهن ١٥٨ (ج) مهاجمة التكهن بنذر الزجر . الجهل بالعلّة مثار الاعتقاد بالغيب
— ١٥٩ نشأة علم العرافة ومناقشتها — ١٦١ الاعتقاد فى النذر لا يستقيم مع المنطق —
١٦٣ التفسير المنطقى لاستشهادات الرواقية كقيل بدحضها — ١٦٥ دحض النيرة ككذير
زاجر — ١٧٠ (د) مهاجمة التكهن باستنباء الطيور . استخفاف شيشرون بالعيافه مع
إقرارها — ١٧١ إجراءات الحكام فى معرفة الطالع — ١٧٢ اضمحلال العيافه —
١٧٤ مهاجمة العيافه عند غير الرومان — ١٧٥ التكهن بأدوات القتال — ١٧٦ مناقشة
استشهادات الرواقية — ١٨٠ مهاجمة التكهن بالأنصبه — ١٨١ نشأة الاعتقاد بالأنصبه
— ١٨٢ (هـ) مهاجمة علم أحكام النجوم : موقف خصومه من الفلاسفه — ١٨٣
أصل التنجيم ومناقشته — ١٨٩ مهاجمة التكهن الطبيعى — مذهب الرواقية فى صلة
التنبؤ بالآلهه — ١٩١ مناقشة المذهب الرواقى — ١٩٦ (١) مهاجمة التنبؤ فى حالة الجذب
: مناقشة نبوءات سيبايل المجذوبة — ١٩٨ مناقشة شاهد رواقى — ١٩٩ غموض
النبوءات وكثرة الاحتمالات فى تفسيرها — ٢٠١ مناقشة نبوءات دلقى — ٢٠٢ (ب)
مهاجمة الرؤيا الصادقة : مناقشة آراء الفلاسفه — ٢٠٣ الرؤيا الصادقة وافتاق المصادفات
٢٠٤ الشك فى منفعة الأحلام — ٢٠٥ استبعاد الوحي الإلهى من مجال الرؤيا — ٢٠٨
إرجاع الأحلام إلى طبيعته النفس — ٢٠٩ مناقشة قيام فن التعبير — ٢١١ مناقشة
استشهادات الرواقية — ٢١٢ إرجاع الأحلام إلى مكنونات النفس — ٢١٦ الشك فى
قيام علاقة علاقة طبيعیه بين نبوءات الرؤيا وحقائق الأشياء — ٢١٩ الشك فى قيام
التعبير على المشاهدة العملية — ٢٢٠ قيام التعبير على الحدس يبرر الشك فى نتائجه —
٢٢١ دحض التسليم بأساليب التكهن باعتبارها خرافة — ٢٢٤ كتب المترجم .

مقدمة الترجمة العربية

تعريف بالكتاب :

هذا كتاب وضعه « شيشرون » فيلسوف الرومان وخطيبهم منذ عشرين قرنا من الزمان ، وقد فصل فيه أساليب التنبؤ بالغيب في مختلف فنونه ، وتحرى في علاجه - تمشياً مع منهج الأكا ديمية الجديدة التي كان يتزعمها - أن يحشد أدلة الذين تشيعوا لهذه الفنون و زادوا عنها ، وحجج خصومها الذين ضاقوا بها وهاجموا أهلها .. II وبهذا عمد المؤلف - وهو خصيم عنيد للتنبؤ في مختلف فنونه - الى أن يعرض في نزاهة تدعو إلى الإعجاب مذاهب الذين انتصروا للتنبؤ من فلاسفة اليونان والرومان ، من رواقين - على وجه أخص - وفيثاغوريين وسقراطيين وأفلاطونيين ومشائين وغير هؤلاء من دعاة هذه الفنون ، منذ فجر الفلسفة في القرن السادس ، حتى عصر المؤلف - في القرن الأول قبل الميلاد - بل تضمن استشهادات استقاها المؤلف عن عقائد دان بها القدامى من شعوب الأرض ، من آشوريين وكلدانيين ومصريين ويونانيين ورومانيين وغيرهم ، مع فيض من الأمثلة تحذر عن تاريخ الأمم القديمة ، وتجارب الكثيرين من أهلها . بهذه النزاهة العلمية أرخ شيشرون في النصف الأول من كتابه مذاهب المؤيدين لفنون التنبؤ ، توطئة للتعقيب عليها في النصف الثاني من كتابه ، بتفنيدها ومعالجة دحضها والكشف عن وجوه الضعف والمغالطة في تأييدها ، مستعينا بمذاهب الأبيقوريين وغيرهم من الفلاسفة الذين اضطلعوا بمقاومة التمكن بالغيب في شتى فنونه ، مستندين في موقفهم إلى منطق العقل في تحليله للآراء التي حشدت لتأييد هذه الفنون ، وتفهم قوانين الطبيعة ومكن الكون ، والتعرف الى طبيعة الظواهر والكشف عن عللها وأسرارها ، دون الالتجاء إلى العقائد الدينية والزج بالآلهة في مواطن الدفاع عن هذه القضية - كما كان يفعل دعاة التنبؤ في تلك العصور .

شئ من سيرة المؤلف :

أما عن صاحب هذا الكتاب «ماركوس شيشرون» فحسبنا أن نقول عنه — بالإضافة إلى البيانات الطيبة التي وردت عنه في المقدمة القيمة التالية : أنه ولد في مستهل العام السادس بعد المائة قبل ميلاد المسيح ، فنشأ في جو يضطرم اضطراباً وفتناً وحروباً حتى سماه المؤرخون : عصر الثورات ، وكان يُعدّ منذ صغره للحياة في هذا الجو ، فقضى المرحلة الأولى من حياته في مدارس روما ، ثم رحل في طلب العلم خارج وطنه ، جرياً على سنة أبناء أرقى الطبقات في روما ، وأصاب حظاً وافراً من ثقافة اليونان والرومان معا ، وحذق اليونانية حتى كان يخطب بها فيشير كوامن الإعجاب في سامعيه ، وتكفل لسانه بأذاعة اسمه طويلاً وعرضاً ، حتى طمست شهرته في الخطابة اسمه في مجال الفلسفة ، واشتغل بالحاماة فتولى الذود عن المتهمين من أشرف البلاد وأهل المناصب الكبرى فيها ، وكان دفاعه في الكثير منها روائع أدبية خالدة ، كما كان كفاحه في مجال السياسة سيباً في مصادرة أملاكه وإحراق بعضها ونفيه ، والانتها بقتله . . . وقد ارتفع في مجال المناصب حتى شغل القنصلية وهي أكبر مناصب الدولة كلها يومذاك .

وكان للتيارات السياسية وانشغاله بمقاومتها أو توجيهها أثر بّين في فلة إنتاجه ، ذلك أنه قضى في حكم سيليسيا عام خمسين قبل الميلاد ، انصرف فيه إلى شئون السياسة ، فلما عاد عقب ذلك إلى إيطاليا كانت نيران الحرب الأهلية توشك أن تندلع ، فحاول إخمادها فلم يوفق ، وكره أن ينتصر لقيصر وهو في رأيه زعيم عصابة من الثوار ، وأغراه نبل خصمه (بومبي) بالانضمام إليه ، فآزره آخر الأمر رغم ضعفه وجشعه ، ولكنه بعد معركة فارسالوس Pharsallus التي وقعت في أغسطس من عام ٤٨ ق . م وانهمز فيها بومبي ، رأى أن من العبث الاستمرار في مقاومة قيصر ، ففضى في أكتوبر إلى

برنديزيوم Brundisium ولبت فيها سجيناً حتى شهر سبتمبر من العام السابع والأربعين ، واعتزل أثناء هذه الفترة الشتون السياسية ، ورغم ما لقيه شيشرون من حسن معاملة قيصر وصحبه ، فانه قد قرر في كبرياء وأنفة أن يظل في عزله ، وألا يساهم في حكومة يعتبرها رمز الطغيان والعدوان حتى أعلن قيصر العفو عنه بغير شرط ولا قيد .

ولما قتل قيصر وتعقب صديقه أتوني قاتليه ، وهم بتخليد ذكرى صديقه في جو تسوده الفوضى والفساد ، وقف شيشرون يندد بأعمال أتوني ، ويحقر من شأن السياسة التي اختطها ، ويتكهن بأنها منتهية بالبلاد إلى الدمار ، ويتعرض للحديث عن شرف زوجته ، فقضى أتوني بإعدامه ، وتمكن عيونه من اللحاق به والإجماز عليه ، ثم حملوا إلى الطاغية رأسه ويديه ، فأخذت زوجته الرأس ووضعت في حجرها ، وصبت عليه جام غضبها ، ثم انتزعت من فيه لسانه الذي عرض بها ، وراحت توخره بدبوس كان في شعرها ، حتى إذا شفت غليلها ، ألقت به بعيداً عنها ، وعندئذ حملوا الرأس واليدين وسمروهما في نفس المكان الذي كان يلتقي فيه أروع خطبه . . . ! وهكذا كان مصرع رجل أخلص لوطنه وضميره وعقله ، في عصر كاد يختفي فيه الإخلاص للمبدأ .

سبي عن حياته العلمية والفلسفية :

كان كلفا بالعلم والفلسفة ، فلما بلغ السادسة عشرة من عمره عام تسعين قبل الميلاد ، قدمه والده إلى سكايفولا Quintus Mucius Scaevola أحد المشتغلين بفن العيافة ليتلقى على يده القانون الروماني ، ويفيد من ثقافته الغزيرة (١) وولع بدراسة الفلسفة منذ صغره فتلقاها على يد أساتذة من الأبيقوريين والرواقيين وأتباع الأكاديمية الجديدة ، وأحبها ووقف عليها

(١) . ص ١٠٣ ، ١٠٤ من مقدمه الصداقة (طبعة لويب)

حياته حتى تفوق فيها ، وكان إذا شغلته الشئون العامة وضرب في زحمة السياسة أخذ يختلس من وقته لحظات يتفرغ فيها للقراءة والاجتماع باهل العلم والفلسفة من معاصريه ، فاذا قذفت به تيارات السياسة بعيدا عن محيطها ، ألقى بنفسه في أحضان الكتب والتمس منها السلوى والعزاء ، واعتبر التبشير بالفلسفة أجل خدمة يؤديها لوطنه^(١) لأنها تثقف العقل وتهذب النفس ، وتغرى بالتزام الفضيلة ، وتقى المرء شر الغي والضلال^(٢) وبهذا تمكن في عام ٥٥ ق . م من أن يضع : De Oratore وفي العام التالي نشر : De Republica وأذاع بعد ذلك بعامين : De Legibus ، واشتغاله بالآداب كان مرده إلى أسباب سياسية^(٣) .

ولما مكّن قصر لسيادته على مجلس الشيوخ في روما ، استبعد شيشرون من مجال الأعمال التي قضى فيها ثلاثين عاما حافلة بالمجد والجد معا ، ولكن نشاط عقله وجسمه كان لا يكل أبدا ، فكان لابد من أن يجد مخرجا ينصرف إليه ، ولا سيما وقد أمضته الألم لسقوط الجمهورية وأضناه القلق من جراء ديونه ، وأخرجت صدره تلك المتاعب العائلية التي كان يرزح تحت نيرها ، فانطلق إلى الفلسفة وألقى في عباها همومه ، فهي عنده خير ملاذ يتقى به الضيق من متاعبه ، وأعظم أداة لخدمة الوطن . فترك روما ليلتعد عن جلبتها وضوضائها عام ٤٦ ق . م وتمكن في هذا العام من أن ينشر Paradoxa و Partitiones Oratoriae و Orator و De Claris oratoribus ، ومن المحتمل أن يكون قد وضع في نفس العام Hortensius .

وفي فبراير من العام التالي (٤٥ ق . م) اختطفت المنية أخته الوحيدة وكانت معقد حبه ومثار عطفه ، فأنقضت الأحزان ظهره ، وأدركه جنون

(١) الفقرة الأولى والثانية من الكتاب الثاني

(٢) الفقرة الثانية من الكتاب الثاني .

(٣) ص ٢ مقدمة الشيوخوخة (طبعة لويب)

الكتابة عسى أن تصرفه عن التفكير في آلامه ، فأخرج في وقت قصير جداً (في عامي ٤٤ ، ٤٥ ق . م) هذه الكتب كلها *Tusculanae Disputationes* و *de Finibus* و *Consolatio* و *Cato Maior* و *De Divinatione* (الذي بين يدي القاري) و *De Fato* و *De Gloria* و *De Amicitia*^(١) و *Topica* و *De Officiis* ، وقد فرغ من هذا الكتاب الأخير في نوفمبر ، واختتم به حياته العلمية^(٢) .

وإذا عرضنا إلى مؤلفاته الفلسفية كما عرضها هو نفسه في الفقرة الثانية من الجزء الثاني في هذا الكتاب ، لاحظنا أثر حالته النفسية في بعض مؤلفاته في هذا العهد ، ولا سيما ما تحدث فيه عن الاستخفاف بالموت واحتمال الألم وتخفيف الأحزان وسائر الاضطرابات النفسية ، وهكذا تبدو آثار حياته الخاصة في فلسفته واتجاهات فكره .

ذلك إنتاج شيشرون في أوقات الفراغ التي ابتعد فيها عن مجال السياسة ، أما الفترات التي كانت السياسة تغمره فيها بفيضها ، فكانت أقل مراحل حياته إنتاجاً .

مطالع شيشرون في مجال الفكر :

ولكن من الإنصاف أن نقول إن مؤرخي الفكر الروماني يرون في شيشرون مفكراً واسع الاطلاع غزير المادة متزن العقل نفاذ النظر ، يحسن عرض الآراء ويجيد تصنيفها ويستطيع في براعة نادرة المثال مناقشتها والتغلغل بفكره النفاذ إلى أنوارها والكشف عن مبلغ صدقها أو بطلانها ، ولكنه مع هذا كله لا يعتبر عبقرى الإنتاج ، وإن كان هذا لا يقلل من قيمة مؤلفاته

(١) لم يشر شيشرون إلى هذا الكتاب حين أخذ يعدد كتبه الفلسفية في مستهل كتابه الثاني كما يقول *Falconer* في مقدمة الصداقة ص ١٠٣ . ويلوح لنا أن السبب في هذا أن كتاب الصداقة قد صدر بعد كتاب علم الغيب .
(٢) ص ٣ من مقدمة الشيفوخة .

من حيث وجه النفع لقراءتها ، بما تحمل في ثناياها من سعة العلم وعبقري
الإنتاج ، وما تثير في أذهانهم من وجوه النظر ، وذلك بالإضافة إلى قدمها
واشتمالها في الكثير من الحالات على مذاهب وآراء لا يعرف لها تاريخ الفكر
سجلاً باقياً إلى يومنا الحاضر ، إلا كتب شيشرون ، ومن أمثلة هذا كتابنا
في علم الغيب فانه يرتد فيه إلى مصادر إغريقية فيها الإنتاج العبقري وقد
ضاع الكثير منها ، ولكنه لا يكتفى بالنقل عنها ، بل يهذب هذا فيما يقول :
Falconer بطريقته التي لا تجارى ، ويؤيده بفيض من تجاربه الواسعة
ومعلوماته الفياضة .

منهج في البحث :

ويقف من هذه الآراء كلها موقف العالم الأمين ، يحسن اختيار ما يعرضه
منها في نزاهة ولو لم يتفق مع وجهات نظره ، ويناقشه ملتزماً في ذلك منهج
الأكاديمية الجديدة التي كان يزعما ، وقد أحسن التعبير عنه حين قال : إنه
يبدأ فلسفته بالشك^(١) ، ويقصد بالشك ما يقيه خطر الاعتقاد أو الإيمان ،
في مجال البحث عن الحقيقة ، ولهذا فهو يخضع للجدل والمناقشة كل رأى
يصادفه ، وأن من زعم أمراً وقاله على سبيل اليقين ، كان قد مثل دور الكاهن
الذى يتنبأ بالغيب^(٢) ، وهو أمين حتى على غير ما يعتق من آراء ، فاذا أراد
أن يدحض فكرة عرض في أمانة ونزاهة كل ما يقال في تأييدها وإنكارها ،
ثم عقب بعد هذا بمناقشتها ، فاذا ناقشها أبى أن يقدم للناس رأياً قاطعاً ، وإنما
قارن الأدلة بعضها ببعض وناقشها في صراحة وحرية وأمانة ، وقبل منها
ما يلوح له أدنى إلى الصواب ، ثم يترك للسامع مطلق الحرية في إبداء رأيه
وإصدار حكمه . وقد ورثت الأكاديمية الجديدة هذا الاتجاه العقلي عن

(١) الفقرة الثانية عشر من الكتاب الثانى وهامشها

(٢) الفقرة الثالثة من الكتاب الثانى وهامشها

سقراط^(١) وقارى. كتابه الذى بين يدينا الآن ، إن تغافل عن الأسلوب الخطائى الذى عالج به موضوعه ، واستلزم الجزم الحماسى فى بعض الأحيان ، فإنه لا يملك إلا الاعتراف بأن هذا هو المنهج العلمى الذى التزمه شيشرون فى مناقشة الموضوع وعرض ما قيل فى تأييده ومهاجمته منذ أيام اكسانوفان الأيلى فى القرن السادس إلى عصر كراتيبيوس الذى عاصر المؤلف (فى القرن الأول قبل الميلاد) . وقد كانت الروح التى تشيع فى بحثه من بدايته إلى نهايته روحاً فلسفية لادينية^(٢) ، وإن كان قد نبه إلى أنه لا يقصد بحملته الإساءة إلى الدين والتقاليد لأنه يحمل لها كل احترام وتقدير .

كوتوس شيشرون :

أما عن أخيه الذى تولى الدفاع — طوال الكتاب الأول — عن فنون التكن فقد ولد حول العام الثانى بعد المائة قبل ميلاد المسيح ، ولما شب تلقى علمه فى خير ما عرف فى روما واليونان من مدارس ، وقد كلف بالقراءة والدراسة ووقف الكثير من أوقات فراغه على الكتابة ، فنشر أثناء إقامته فى بلاد الغال أربع مأس Tragedies ضاعت كلها ، ويعزى إليه كتاب Commentariolum Petitionis وكان من أتباع الرواقية الرومانية^(٣) ولهذا أجرى شيشرون حججهم على لسانه ، ولكن حياته السياسية قد طغت فيما يلوح على حياته العلمية ، فقد كان فى عام ٦٥ ق . م حاكماً فى روما (Aedile) منوطاً بالمنشآت العامة والألعاب والأسواق والشرطة ونحوها ، ثم كان فى عام ٦٢ حاكماً يلى الفصل فى المرتبة : Praetor ثم تولى حكم آسيا من مارس عام ٦١ إلى إبريل ٥٨ ق . م وكان قائداً : Legatus تحت إمرة بومبي فى سردينيا بعد ذلك بعامين ، وتحت قيادة قيصر فى بلاد الغال عام ٥٤ و ٥٣ وتحت أمرة

(١) الفقرة الثانية والسبعون من الكتاب الثانى .

(٢) ص ٢١٦ من مقدمه علم الغيب .

(٣) ديجاريه ص ١٠ ويوضح هذا فى الكثير من نصوص الكتاب نفسه .

أخيه ماركوس (شيشرون) في سيليسيا من يولييه ٥١ لمدة عام ، أما في الحرب الأهلية فقد انضم إلى بومبي أول الأمر ، فلما انهزم بومبي قدم كوتوس خدماته إلى قيصر ، ومات في نفس العام الذي مات فيه أخوه الأكبر شيشرون — وكان موته في ديسمبر عام ٤٣ ق . م عند انتهاء حكومة الثلاثة أكتافيوس وماركوس وأنطونيوس^(١) .

منطق البحث :

تناول هذا الكتاب البحث في موضوع شغل بال الناس منذ أقدم العصور ، ولعل أظهر ما في البحث هذا الجدل العقلي الذي يكشف عن سعة علم ودقة ملاحظة ورصانة منطق ، وتبدو هذه المميزات جليلة في تأييد التكهن وإنكاره معاً ، حتى ليحار القارىء أى الاتجاهين أدنى إلى الصواب . ١ ومن أجل هذا رأينا أن نعرض نموذجاً للجانب المنطقي في هذا البحث عند كوتوس الذى تولى الدفاع عن أساليب التكهن ، وشيشرون الذى تولى إنكاره ودحضه . وتخيرنا المصادقة ، التى يردّ إليها منكرو التكهن صدق النبوءات ، لأن عناصر البحث فيها قد ذهبت أشتاتاً في فقرات الكتاب ، وهى من أكبر نواحي الموضوع خطراً ، كانت كذلك في الماضى السحيق ، ولا تزال كذلك حتى يومنا الراهن ، ولهذا رأينا أن نجمع شتاتها ، ونبين عن حجج كليهما في تفنيدها أو تأييدها ، وبذلك تبين مبلغ العمق في منطق كل منهما :

المصادقة عند كوتوس ، صاحب الدفاع عن التكهن : إن العين وحدها أداة الإبصار ، وقد تعجز عن أداء وظيفتها أحياناً ، فلا يكون هذا دليلاً قاطعاً على أنها كفت وفقدت ملكة النظر ، فإن أحسنت رؤية الأشياء ولو مرة واحدة ، ثبتت قدرتها على النظر ، وكذلك الحال في ملكة التكهن ، قد يخطئ صاحبها فلا يشهد هذا بأنه دجال ، ولكنه إن صدق مرة واحدة كان صدقه

(١) اقتبسنا الترجمة عن Falconer ص ٢١٥ من مقدمة علم الغيب في طبعة لويب .

شاهد عدل على أنه أوتى ملكة التكهّن بالغيب^(١) . على أنا إذا فرضنا بأن الشيء قد يقع مرة على سبيل المصادفة فانا ندعّن للتسليم بأن وقوعه مئات المرات إنما يكون مصادفة واتفاقاً ، فلاعب الزرد قد يصيب مرة كل بضع مرات ، ولكنه إذا أصاب مائة مرة في كل مائة رمية لم يكن هذا على سبيل المصادفة أبداً ، وكذلك الحال في التكهّن .

ثم إن الإصابة التي تقع اتفاقاً لا يمكن أن تبلغ من الدقه حدّاً يتصل بتفاصيل النبوءة ، فان من الممكن أن تنتثر الألوان عفواً على قطعة خيش فتألف من انتشارها سهيلة صورة وجه ما ، ولكنها لا تستطيع أن تنشئ صورة دقيقة ، وقد انشقت صخرة مرة فظهر من ذلك رأس الإله Pan ولا يمكن أن يكون التشابه الدقيق وليد المصادفة^(٢) .

وإذا كانت نبوءات الكهان لا تصدق أحياناً ، فان ذلك لا يطعن في فن الكهانة ، فما من فن إلا وحدث أهله عرضة للكذب . فاذا أخطأ الطبيب في حدسه فان ذلك لا يطعن في فن الطب ، وكذلك يقال في الحدس عند أهل الملاحة والسياسة والزراعة وغيرها من فنون وحرف^(٣) .

وإذا عز علينا إقناعك ، لم يكن هذا دليلاً على فساد رأينا ، فان العقل قد يعجز عن تفسير الظواهر ووردها إلى عللها ، ولكنه مع ذلك يضطر للتسليم بوجودها . فن الخير أن نهتم بنتائج التكهّنات دون أن نجهد أنفسنا في البحث عن عللها وأسبابها ، فان بعض الأعشاب يستخدم في علاج الكثير من أمراضنا رغم أن العقل لم يفسر لنا قوتها وطبيعتها ، إني أرى ما لهذه الأشياء من قوة وحسي ما أرى^(٤) فقد يكون هذا سرّاً من أسرار الطبيعة الخفية ، ولم يشأ الله أن يطلعني على أسبابه ، ولهذا فان أهل التكهّن قد أصابوا حين

(١) الفقرة الثلاثون من الكتاب الأول

(٢) الفقرة الثانية عشرة من الكتاب الأول .

(٣) الفقرة الثالثة عشرة من الكتاب الأول .

(٤) الفقرة السابعة إلى الثانية عشرة من الكتاب الأول .

أقاموا نبوءاتهم على الخوارق التي لا تبدو على اتفاق مع ما ألفناه ، وما ينبغي أن نسخر من عراف ينذر الأمة بالشر لأن البغلة — وهي حيوان عقيم بطبعه — قد ولدت فلوا... (١) إن الذين لا يقتنعون بشهادة حسهم ، والتأنيج التي تبدو أمامهم لأنهم يحملون حقيقتها ، ولا يعرفون عللها وأسبابها ، سينكرون لهذا السبب نفسه قوة المغناطيس على جذب الحديد وفعل العقاقير في شفاء الأمراض . وليس مصادقة واتفاقاً أن تلد البغلة وهي حيوان عقيم ، أو أن يفيض نهر أراتوس Aratus دماً وتتصبب تمائيل الآلهة عرقاً ، أو يظهر تاح من الحشيش فجأة على تمثال إله ، أو تختفي النجوم الذهبية من معابد الآلهة فجأة . وإنما هذا كله نذير شر لاعماله ، ولكهان أن يؤولوه باعتباره زجراً لنا عما نقبل عليه من مشروعات ، فهم الذين يعرفون كيف يفسرون التغير الذي يطرأ بإرادة الآلهة على أحشاء الضحية عند ذبحها .

حسبنا هذا عن حديث كوتوس عن المصادقة ، ولنعرض إلى مناقشة شيشرون لأدلته :

موقف شيشرون من تأييد المصادقة في مجال التكهن :

يعرض شيشرون لمناقشة المقارنة التي عقدها كوتوس بين ملكة الإبصار وملكة التكهن ، فيقول له إنى لا أعرف وجه التشابه بينهما ، فإن العيون تستخدم في الإبصار حساً منحه الطبيعة للناس ، أما ملكة التكهن فإنها إن أدركت الغيب في مس أو رؤيا جاء إدراكها مصادقة واتفاقاً أجل فإنك إن زعمت أن الكثير من النبوءات يصدق ، وجدت ما لا يصدق أكبر مما يصدق كماً ، وهذا دليل على أنها مسألة حظ واتفاق . وإذا كنت تؤمن بالتكهن لأن نبوءة واحدة قد صدقت — كما تؤمن بقدرة العين على الإبصار لأنها أحسنت رؤية الأشياء ولو مرة واحدة — فإن هذا يتطلب منك التسليم بضروب التكهن الصنعى ، فليس من بينها ضرب واحد إلا وقد

(١) الفقرة السابعة عشرة من الكتاب الأول .

صدقت فيه نبوءة واحدة على أقل تقدير . . فكيف رفضت التسليم بالتكهن
الصنعي إن كان هذا قوام إيمانك . . . (١)

ثم يعرض للمشكلة التي ساقها كوتوس فيقول له : لماذا يستحيل أن تصيب
رمية النرد مرات متوالية مصادفة وانفاقا . . ؟ ولماذا لا يمكن أن يرجع
التشابه الدقيق إلى محض المصادفات . . ؟ فليس في ظهور رأس الإله بان Pan
من صخرة تنشق أى مثار للدهشة ، فإن الروائع الفنية يسفر عنها نحت الرخام
دون أن يضيف الفنان شيئا غير جهوده الفنية في الصقل والإعداد ، إن الأثر
الفني يكون كامنا في قطعة الرخام ، متخفيا في ثناياها ، فلماذا نستبعد أن تنشق
صخرة فيتكشف انشقاقها عن شبيه برأس الإله بان Pan — على سبيل الاتفاق
والمصادفة . . ؟ ثم ألم تلاحظ السحب وهي تأخذ صورة الأسد حينما والقنطورس
حينما آخر . . ؟ على أن قصه انشقاق الصخر ربما كانت من نسيج الخيال (٢) .

ثم إنك اعتبرت ولادة البغلة نذير سوء لأن هذا شيء نادر لا يتفق مع
المألوف من تجاربنا ، ولكنى أرى أن الظواهر كلها تلمس علتها في الطبيعة ،
حتى ولو لم تتفق مع خبرتنا في الحياة . ومن واجبنا أن نكتشف العلة في كل
شيء يثير دهشتنا ، فاذا عز الاهتمام إلى معرفة العلة وجب أن نكون على يقين
بأن لها رغم ذلك علة تدر وجودها ، إن مبادئ الفلسفة كفيلة بأن تبعد عن
نفوسنا المخاوف التي تساورها من جراء شيء نادر لم نألف ظهوره من قبل ،
بذلك يهدأ روعك ويسكن اضطرابك من وقوع الزلازل وانشقاق السماء
وسقوط الكواكب وولادة البغلة ومنحوها مما تعتبره نذيرا زاجرا . فكن على
يقين يا صاحبي بأن ليس ثمة معلول بغير علة ، ولا شيء يمكن أن يحدث وكان
حدوثه أمرا مستحيلا ، ومتى وقع أمر كان من الممكن أن يقع فانه لا يعتبر
نذيرا زاجرا ، فليس ثمة شيء اسمه نذير سوء ، وإن كنت تصر على اعتبار
الشيء النادر نذير شر ، فاعتبر ظهور الرجل الحكيم نذير سوء يهدد بالشر

(١) الفقرة الثالثة والخمسون في الكتاب الثاني .

(٢) الفقرة الحادية والعشرون من الكتاب الثاني .

وينذر بالويل المقبل ، لأن ولادة البغلة العقيم أدنى إلى العقل من تكشف الطبيعة عن رجل حكيم .. ١١ (١)

ولماذا تستبعد المصادفات في صدق نبوءات يقف بعض الناس حياتهم على الاشتغال بها ... ؟ منذا الذى يسدد المرمى طوال يومه ولا تحالفه المصادفة في إصابته ... ؟ لا شيء يجرى عفوا على غير وتيرة واحدة كرمية الترد ، ومع ذلك فليس ثمة لاعب يقضى في لعبتها وقته ، إلا ويصيب في بعض الأحيان مرتين أو ثلاث مرات متعاقبات (٢) ويقول له إملك تقول إن نهر أراتوس قد فاض دما ، وتصيبت تماثيل الآلهة عرقا ... إن الدم والعرق يا صاحبي لا يصدران على وجه التحقيق إلا عن أجسام حية ، وقد يسفر امتزاج الماء ببعض أنواع التراب عن شيء بالغ الشبه في لونه بالدم ، والملاحظ أن الندى الذى يتكون على ظاهر الأشياء يبدو شيئا بالعرق ... (٣)

وتقول إن تاجا من الحشيش قد ظهر على تمثال ليزاندر Lysander في دلفي ، وكان ظهوره فجائيا ... فهل تظن إن من الممكن أن يظهر الحشيش بغير بذور ... ؟ أليس الأخرى أن تقول إن الحشيش قد نبت من بذور حملتها الطيور ولم تغرسها يد بشرية ... ثم لا ينبغى أن نفسى أن الخيال يصور للمرء كل ما يعلو الرأس في صورة تاج (٤) .

وتقول إن النجوم الذهبية في معبد كاستور Castor وبولوكس Pullux قد اختفت فجأة ولم يعثر عليها أحد ... ١١ أليس الأخرى أن نقول إن هذا عمل لصوص وليس عمل آلهة ... (٥) ثم كيف تتغير أحشاء الضحية في نفس

(١) الفقرة الثامنة والعشرون من الكتاب الثانى .

(٢) الفقرة التاسعة والخمسون من الكتاب الثانى .

(٣) الفقرة الثانية والأربعون في الكتاب الأول والسابعة والعشرون في الثانى .

(٤) و (٥) الفقرتان الثالثة والثلاثون في الكتاب الأول والثانية والثلاثون في

الكتاب الثانى .

اللحظة التي تقدم فيها قربانا . . كيف يكون عدمه بعد وجود ووجود بعد عدم، فجأة وبغير مقدمات تبرر هذا التغير . ! أليس الأخرى أن يقال في اختفاء القلب إنه قد تقلص وضمر بعد مرض اعتراه حتى فقد تشابهه بالقلب . . . ؟ إن من المستحيل أن تعيش الضحية بغير قلب ، أو أن يختفى القلب فجأة عند ذبحها . . . الخ^(١)

حسبنا هذا من مناقشة شيشرون لأدلة كوتوس وأمثله، ولعل منطقته غلاب، ولا سيما في تنفيذ هذه الأمثلة التي استمدتها كوتوس مما يجري على ألسنة الناس ، أو من الأساطير والكتب الشعبية ، وإن كان من الأنصاف أن نقول إن دحض المثال لا ينهض دليلا على بطلان الحجة التي قبل المثال في تأييدها .

على أنا نرى أن لكل حق وجها من الباطل ، ولكل باطل وجها من الحق ، ومن هنا كانت مهارة المجادل اللبق أن يغلب الجانب الذي يؤيده ولو كان أضعف الجانبين . وكما يقول شيشرون في معرض حديثه عن الجدل في مجال التكهّن : إن المدعى قد يستند في دعوى قضائية على استدلال ما ، ويستند المحامي في دفاعه إلى استدلال آخر ، وربما صدر الاستدلالان عن حقائق واحدة ، ومع هذا فقد يتفق أن يصدق الاستدلالان معا . . . ولهذا فرجما تردد بعض قراء هذا الكتاب في القطع بأي الاتجاهين أدنى إلى الصواب . . .

(١) الفقرة الخامسة عشرة وما بعدها من الكتاب الثاني .

هذا الكتاب ورسالة الدكتوراه :

وقد شرعت في ترجمة هذا النص القديم إعجاباً به وتقديراً لمنهج بحثه ، وكنت في ذلك الحين أقوم بوضع رسالتي للدكتوراه ، وقد كانت دراسة مقارنة في موضوع الأحلام عند مفكرى الإسلام ، ثم لاحظت فجأة أن بين موضوعها وموضوع هذا الكتاب علاقة عموم وخصوص...! فخطر لي أن ألحق الترجمة مع التعليق عليها برسالة الدكتوراه (١) .

تاريخ الكتاب وأصوله :

وضع شيشرون هذا الكتاب في مسقط رأسه «توسكولوم» Tusculum — تقع على بعد عشرة أميال من روما — وكان الغرض من تأليفه مناقشة التكهن بالغيب في مختلف أساليبه تأييداً وتفنيداً ، عسى أن يكون في هذا تدعيم لوجهات النظر التي ذهب إليها في كتابه «طبيعة الآلهة» — الذي يحتمل أن يكون قد فرغ منه في أغسطس من عام ٤٥ ق.م — وقد ذهب الأستاذ «ديوران» René Durand الى أن كتاب التكهن قد وضع قبل مصرع قيصر ، وإن أدركته بعد ذلك تعديلات وإضافات ، ثم روجع ونشر بعد هذا الحدث الجلل الرهيب ، وقد أذعن لهذا الرأي جمهرة مؤرخيه ، ولكن الأستاذ «فالكونر» Falconer قد أبى التسليم بهذا الرأي بعد دراسة دقيقة للموضوع ، ورأى أن الجزء الأخير في الكتاب الأول ، وكل ما تضمنه الكتاب الثاني قد وضع بعد ١٥ مارس عام ٤٤ ق م (٢)

وقد أشرنا عند البحث عن مكانة شيشرون في مجال الفكر إلى أنه كان يعرف مراطن الأدلة الناضجة التي يمكن استغلالها في مباحثه ، فيهيئ عليها ويأخذ منها ما تروقه ، وأنه قد سلك هذا المسلك في كتابنا الراهن ، فاستعان في تأييد التكهن ومهاجمته بالإغريق ، وإن غذى أفكارهم بمنطقه وتجاربه ، فمن

(١) جازت الرسالة وملحقها امتحان الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة في مايو ١٩٤٣

(٢) ص ٢١٤ من مقدمة علم الغيب في طبعة لويب .

ذلك أنه اعتمد في الكتاب الأول في تأييد التكن على كتابات بوسيدونيوس Posidonius الرواقى، بينما استند في الكتاب الثانى الذى هاجم فيه تلك الأدلة إلى آراء كارنيادس — مؤسس الاكاديمية الجديدة — التى تولى شيشرون زعامتها — والشائع أنه قضى دون أن يترك وراءه تعاليم مكتوبة، ولهذا كان مصدر شيشرون المباشر أحد من تلمذوا على يد كارنيادس، ولعله كليتوما كوس Clithomachus. الذى خلفه فى رئاسة الاكاديمية واضطلع بنشر نظرياته أما مناقشة حجج الكلدانيين كما وردت فى الكتاب الثانى فقد استمدتها من الفيلسوف الرواقى بانياتيوس : Panaetius (١)

والمظنون أن كتاب شيشرون أدق وثيقة حفظت لنا هذه الآراء القديمة التى لا تعرف مكان وجودها .

أهم طبعاته :

وقد أدى إعجاب المفكرين بموضوع الكتاب ، ومنهج بحثه ، ودقة منطقته وغزارة مادته ، إلى الإكثار من ترجمته فى مختلف اللغات ، وأشهر طبعاته الانجليزية :

١ — طبعة لويب Loeb وقد نهض فيها بنقله من اللاتينية W. A. Falconer

٣ — ترجمة C. D. Yonge طبعة Bohn's Series, 1848
وأشهر الطبعات الفرنسية :

١ — طبعة Garnier وقد اضطلع بترجمته فيها شارل أبون Charles Appuhn
وذيّلها بنيف وثلاثمائة تعليق . . .

٢ — طبعة Budé وهى مذيّلة بتعليقات قيمة

٣ — ترجمة ديماريه R. Desmarais وقد نشرت فى العام الثالث للجمهورية

٤ — ترجمة M. de la Pilogerie (فى الجزء الرابع من المجموعة الكاملة
لمؤلفات شيشرون) .

وخير الطبعات الألمانية :

Ralph Kühner, Berlin, Langenscheidt.

(١) ص ٢١٧ من مقدمة علم الغيب فى طبعة لويب .

كلمة في ترجمته :

من وازن بين ترجمات هذا الكتاب في مختلف اللغات ، أدرك وعمورة هذا النص ومشقة فهمه ونقله معا ، وقد توخيت أن أنقله عن طبعة لوبب الانجليزية ، أدق الطبقات فيما يقول الطيب الذكر الأستاذ وادل Waddell الرئيس السابق لقسم الدراسات القديمة بكلية الآداب واستعنت بطبعة جارنيه Garnier الفرنسية وأندت كثيرا من مئات التعليقات التي ذيلت بها ، ورجعت في كثير من الحالات إلى الأصل اللاتيني مستعينا في ذلك بزميل الدكتور محمد سليم سالم إخصائي الدراسات القديمة بكلية الآداب .

ومقارنة ترجمات هذا النص تؤكد أنها لا تخلو من وجود التفاوت الناعم ..! ومردّ هذا إلى أسباب أظهرها أن النصوص تحتل معاني تتفاوت بتفاوت العقول وقدرتها على الفهم والتعبير معا ، وإذا كان شراح الشاعر الواحد يختلفون في فهمه وهم من أهل عصره ولغته وبيئته ، فأحر بالمرجمين أن يتفاوتوا في فهم هذه النصوص القديمة والكشف عن نوايا أصحابها ..!

وقد حرصت على أن أستعين في الاطمئنان على دقة الترجمة بصديق وزميلي بكلية الآداب الأستاذ علي أحمد عيسى الذي أبدى من الرغبة الصادقة في التعاون العلمي ، وقدم من الملاحظات الطيبة ما يستحق كل تقدير ، كما ألتجاني غموض بعض الفقرات إلى الاستعانة بصديقي الدكتور رجب عبد السلام المدرس بكلية الطب بالقاهرة ، وأضفت عند الطبع الملاحظات القيمة التي أثارها أثناء مناقشة الرسالة أستاذنا الجليل « شفيق غربال » . فلحضراتهم جميعا أجمل آيات الشكر والتقدير .

وقد تضمن الكتاب بضع صفحات شعرا ، وكان لنا موقف إزاء هذا الشعر يحسن أن أبين عنه :

لم يكن « شيشرون » شاعرا مطبوعا ، وقد نقل خير أشعاره عن الممتازين من الشعراء من أمثال هوميروس وديموستينيس ، ولكنه كان يحسن السبك ويحيد الصياغة مع مقدرة فائقة في سرعة النظم ، وكان يضيق كلما أحس

باستخفاف الناس بشعره ، ويطمع في أن يكون شعره من عوامل خلوده ،
ومن أجل هذا راح — في أواخر حياته — يفحم الكثير من أشعاره في
كتبه ، وبغير مناسبة أحيانا .^١ ويعترف بذلك معذراً عنه .^٢ وفي كتابنا
هذا ما يشهد بذلك ، فقد عرضنا — بين قوسين — بضع نماذج من هذه
الأشعار مترجماً أو ملخصاً ليعذرنا القارئ في إهمال بعضها الآخر ، وهي
— لحسن الحظ — لا تتجاوز في نصها الأصلي بضع صفحات .

وقد كان الكتاب في أصله اللاتيني وترجماته التي عثرنا عليها ، خلوا من
العنوانات التي تدل على ميادين البحث التي تناولها ، وإن كان ديماريه قد حاول
هذا فأساء فيما فعل ، وقد حاولنا نحن أن نسد هذا النقص .

أما في تعريب الأسماء ، وما أكثرها في هذا الكتاب ، فقد حاولت على
قدر الاستطاعة أن ألزم في تعريبها القرارات التي وضعها بشأنها بجمع فؤاد
للغة العربية — كما نشرت في مجلته^(١) وأبقيت الأسماء المألوفة في اللسان العربي
وفيها اسم المؤلف على ما هي عليه ، واستعنت في ذلك بزميلي الأستاذ الدكتور
إبراهيم نصحي أستاذ التاريخ القديم المساعد بجامعة فؤاد .
وأخيراً :

فإن التمكن بالغيب المحجب مثار اقتتان الناس في كل زمان ومكان ،
ومردّ الرغبة فيه إلى طبيعة البشر النزاعة بفطرتها إلى معرفة المجهول ، أما عن
موقفنا إزاءه ، وبيان وجه الحق أو الباطل في فنونه ، فقد أبتأ عنه في كتابنا
الذي عاجلنا فيه هذا الموضوع نفسه عند مفكرى الإسلام^(٢) وخير ما نختتم
به تمهيدنا لهذا الجهد ، أن نعتزف بأن العمل الكامل لم يتهاً لأحد من البشر
بعد ، وحسب الإنسان أن يكلف نفسه وسعها ، والعصمة له أولاً وآخراً .

الإسكندرية في { ربيع أول ١٣٦٥ هـ
فبراير ١٩٤٦ م } توفيق الطويل

(١) ج ٤ ص ١٨ — ٢١ عام ١٣٧

(٢) التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام ص ١٥٧ — ١٧٠ طبعه أولى

تقدمة

للمؤستاذ الجليل محمد شفيق غربال بك

المستشار الفنى لوزارة المعارف

عرض الدكتور توفيق الطويل لدراسة موضوع « الأحلام » وما يتصل بها من ظواهر ، وكانت الرسالة الشهيرة التى وضعها شيشرون فى موضوع الاستدلال على المحجبات ، من المراجع الأساسية التى رجع إليها أثناء دراسته ، وقد أدرك الدكتور الطويل أن ذلك الأثر الأدبى الفلسفى يبنى بحاجات الباحثين فى تاريخ ذلك الموضوع كل الوفاء ، إذ يعرض فيه شيشرون آراء الأقدمين من المفكرين ، وما انتقل إلى عصره من تجارب الأمم وقصصها على ألسنة الشعراء والرواة حول الطوالع والدلائل ، ومبلغ الاعتماد عليها والوثوق بها . ولما تبين الدكتور الطويل هذه المزايا ، أثر أن ينقل الرسالة للغة العربية عن نصها اللاتينى وترجماته ، وقدمها سنداً من أسانيد رسالته الأصلية لدرجة الدكتوراه فى الآداب فى جامعة فؤاد الأول . وها هو اليوم ينشر بين قراء العربية أثراً أدبياً فلسفياً من آثار الرجل الذى سبك النثر اللاتينى والأساليب اللاتينية سبكا لازمهما منذ أيامه حتى يومنا الراهن ، وكان أول من استطاع أن يتخذ من ذلك النثر أداة للتعبير عن أدق الأفكار وأشد المعانى غموضاً .

ولما كنت أثناء مناقشة الدكتور الطويل فى رسالته للدكتوراه ، قد خصصت عنايتى بما نقله عن شيشرون ، فقد طلب إلى أن أتولى تقديم ترجمته لهذه الرسالة بمقدمة تاريخية ، أتناول فيها مؤلفها « شيشرون » . ويسرنى أن أقرر فى استهلالها أن هذه أول رسالة فى الفلسفة القديمة نقلت للغة العربية عن اللاتينية ، وأنها تسجل للجامعيين المصريين عدم تهيب استخدام المراجع الأصلية ، وأن حاملى الإجازات العالية الجامعية لا يقتصرون على المراجع الثانوية ونحوها ، كما تسجل لهم أيضاً الانهماك فى البحث العلمى المجرد عما

يشوبه ، فاذا ما رجعوا لليونان والرومان ، لم يكن ذلك الرجوع لاصطناع حجج وأدوات يتراشق بها المتراشقون في المجادلات الدينية والسياسية ، بل يرجعون لها طلباً للحقيقة الصافية .

و «توفيق الطويل» في الطليعة من هؤلاء الجامعيين ، فبعد أن تتلمذ لشيخ الجامعة الأجلاء في قسمي الفلسفة واللغة العربية ، تولى تدريس الفلسفة في جامعة فؤاد ثم في جامعة فاروق الأول بالاسكندرية ، حيث اتصلت عناصر الحكمة المشرقية بالمذاهب اليونانية ، وتألف منها المذهب الإسكندراني الذائع الصيت ، ومن يدرى ؟ فلعل مدرستنا الحديثة بالإسكندرية تجدد ما اندرس وتصل ما انقطع ، وقد يما قال هوراس : *Series Juncturaque Pollet* (إن الاستمرار والاتصال هما اللذان يهمان) .

إن صح هذا القول ، ففضل شيشرون في تاريخ الفكر الأوروبي عظيم ، إذ كان لتدوينه مسائل الفلسفة القديمة وعرضها عرضاً أدبياً رائعاً ، الفضل الأكبر في تعريفها لمواطنيه أولاً ، ثم لرجال العصور الوسطى في أوروبا الغربية ، ثم لمن أتى بعدهم من أهل الفكر . ولم يكن شيشرون فيلسوفاً بالمعنى المصطلح عليه ، ولم يتخذ لنفسه مدرسة ولا تلاميذ ، فهو رجل قانون ورجل سياسة ، حصل على يد مؤدبيه وبنفسه كل ما استطاع أن يحصل من آداب قومه وآداب اليونان ، ليعد نفسه للاشتغال بالسياسة في روما حيث تتطلب أنظمة المدينة القضائية والسياسية من السياسيين أن يكونوا خطباء فصحاء ، ومن أصحاب المناصب سعة الاطلاع والإحاطة بشئون الدولة وعلاقاتها بغيرها من الدول ، ومن صفوة المواطنين أن يتجملوا بصفات الحر المثقف المهذب أو — في كلمة واحدة — صفات الرجل المتحضر ، ابن المدينة بمعناها القديم الصحيح . وكان شيشرون بطبعه رجلاً ألوفا ودوداً ، يشرك إخوانه في أفراحه وأتراحه ، في تأملاته النفسية ، وفي تعليقاته على حوادث أيامه ، وها هي رسائله لأخصائه

وغيرهم تبلغ المئات عدداً ، وتصور لنا الرجل في نزعتة الاجتماعية وفي شتى حالات النفس وتقلبات الأيام أصدق تصوير ، وقد رفعت تلك الرسائل شيشرون إلى أسمى مكان بين أصحاب ذلك الفن في الآداب الأوربية - فن الرسائل . وآثار شيشرون في الشيخوخة أو في الصداقة أو في الواجب أو في طبيعة الآلهة أو في الاستدلال على المحجبات أو في غير ذلك ، تلك الآثار التي كتبها في الساعات التي اختلسها من مهام حياته العامة ، أو في الفترات التي شاء القدر أو أراد خصومه أن يقصوه فيها عن تلك الحياة ، كانت نوعاً آخر من أنواع الاتصال الفكري بين شيشرون وصفوة قومه ، فلا ينطبق عليه ما ينطبق على العلماء ومن إليهم من أصحاب المذاهب ، في نشر مؤلفاتهم في أيامنا مثلاً .

وكان من حظ شيشرون وحظ العالم أن حفظت الأيام ما خلف ، وجعلت من آثاره العنصر الأساسي في تكوين الثقافة الكلاسيكية التي غدت العقل الأوروبي حتى العصر الحديث . ويخطئ خصوم الدراسات الكلاسيكية عند ما يحكمون عليها بأنها « كلام في كلام » ، أو عند ما يصفون شيشرون بالثرثرة المملة . حقا لقد استثقل ظله بعض الشيء مثل الروح الفرنسي خالده الذكر « موتاني » ، في إحدى مقالاته . وعاب طريقته في الاسترسال الكاتب الإنجليزي الساخر « لينون ستراشي » ، في معرض كلامه مع المترسل الإنجليزي الشهير « ما كولاي » ، قائلاً إن شيشرون وما كولاي كلاهما لا يرحم القاري . ، فلا بد له من أن يسمع كل شيء وإن كان يعرفه أتم معرفة . ولكن ما ذنب شيشرون أن وعت الأجيال المتعاقبة من التلاميذ الأوروبيين رسائله وخطبه حفظاً ، وأن قتلوا أجمل عباراته تحليلاً وإعراباً وتصريفاً ، أو مسخوها ترجمة للغاتهم الوطنية ، أو حاكوها في مناظراتهم ومساجلاتهم تحت نظر مؤدبين طويلى الأيدي مرهفي الحس سريعي الغضب ؟ وما ذنبه أيضاً أن كانت كتبه مادة لا تنضب لشواهد النحويين ، أو كانت خطبه نماذج للمتحدثين والمتفهمين

من رجال الكنيسة أو المحاماة ؟ ولكننا نعرف — إلى جانب هؤلاء — مقلدين لشيثرون من طراز آخر ، فعندما دوى صوت الحرية في أوروبا في آخر القرن الثامن عشر ، وآذنت شمس الجمهورية الفرنسية بالإشراق ، ذكر أنصارها والمبشرون بها بطل الجمهورية الرومانية في دور احتضارها ، فها هو ميرابو يهاجم البلاد في خطبة احتذى فيها خطبة شيثرون الثانية ضد كاتيلين ، وها هو روپسبير يفند مزاعم لوفيه بأسلوب شيثرون ، وجملة القول أن الثقافة الكلاسيكية — بما فيها آثار شيثرون — مكنت العقل الأوروبي من عدم الاقتصار على الآداب الدينية ، وأكسب تفاعل العنصرين الكلاسيكي والديني وتأثير كل منهما في الآخر ، ذلك العقل غذاء روحيا قويا وإن شئنا أن نبحث عن ظاهرة تشبه هذه في تاريخ الحضارات غير الأوروبية ، فانا لا نجد لها في الواقع إلا في حضارة الصين .

ويجسد القاريء في آثار شيثرون الأدبية — وبخاصة في رسائله — صورة رائعة للحياة في روما في أواخر أيام الجمهورية ، ولا يصعب على من يعنى بدرسها استخراج العوامل في فساد أنظمة المدينة ، وفي نهضة أسباب التحول إلى الأمبراطورية ، وهي بعد المرجع الأساسي لدراسة موقف شيثرون بإزاء أحداث ذلك العصر العصيب .

وقد لقي شيثرون — الرجل السياسي — من مؤرخي تلك الحقبة العنت الكثير ، لقي ذلك العنت أولا لأن المؤرخين (ولنقل الحق) لا يحبون الرجال الفاشلين ، وثانيا لأنهم استموتهم بطولة قيصر وجراة مساعيه وعظم همته ، وازدراؤه تزمت الدستوريين والقانونيين ، وقطعه العقد بحد السيف بدلا من حلها ، ثم استمواهم بعد قيصر مكر خليفته الحدث أجسطوس وسعة حيلته وبرود طبعه ، وثالثا لأنهم يرون موت الجمهورية أمرا محتوما ، فرتبوا حوادث الرواية الترتيب الذي ينتهي بها نحو الخاتمة التي بدأ بها تفكيرهم

وانتهى إليها عرضهم . ويتصدر هؤلاء المؤرخين الألماني الكبير « مسمن » . ولا عجب في ذلك ، فقد كتب مسمن في عصر بسمارك ، عصر الدم والحديد ، مما دفع أحد المؤرخين الإنجليز إلى القول القاسى : « لو سجل التاريخ لشيثرون إعداد مذبحه عامة لخصومه السياسيين ، لفاز بإعجاب المدرسة الألمانية التاريخية » . ومهما يكن فإن شيثرون قدم لخصومه وأنصاره من دارسى التاريخ ، المادة التى استخدمها الخصوم فى تعداد مثالبه والغض من شأنه ، واستعان بها الأنصار فى التماس الأعذار له وإثارة العطف عليه فى محنته ومحنة الجمهورية . وخير من متابعة أولئك وهؤلاء ، أن يستصحب طالب المتعة العقلية العليا ، الرسائل نفسها ، وأن يسترشد فى استصحابه لها بالصفحات الإنسانية الرشيقة التى كرسها « بواسييه » ، لشيثرون وأصدقائه . . وهى وما إليها من مؤلفات « بواسييه » من مفاخر المدرسة التاريخية الفرنسية .

كانت الأزمة التى تعانىها روما فى عصر شيثرون ، أزمة قديمة مستعصية متعددة النواحي . ومنشؤها فى الواقع أن روما — إحدى مدائن شبه جزيرة إيطاليا — قد بسطت حكمها على غيرها من تلك الدائرة ، ثم قهرت قرطاجنة قهراً تاماً ، وفتحت لسلطانها ولنفوذها حوض البحر المتوسط الشرقى وحوضه الغربى ، واتخذ السلطان الرومانى طرق الاستغلال والنهب والغصب ، وكانت المشكلة فى جوهرها مشكلة تحوير أنظمة المدينة تحويراً يجمع بين صيانة حقوق أصحاب الولايات الرومانية ، وبقى أهلها جشع العمال والمالين الرومان ، وبين المحافظة على الحقوق والحريات الرومانية ، ولا سبيل إلى الزعم بأن ذلك التحوير كان أمراً مستحيلاً ، فقديمًا أثبت الرومان قدرتهم عليه ، فثبتت أنظمة المدينة تحت عصف النزاع العنيف بين ذوى الأنساب والأخلاق من أهلها ، ولم تتداع تحت الضغط الهائى الكبير ، واجتازت المدينة أزمات الحروب الإيطالية والحرب الاجتماعية بسلام ، وأظهر قادتها فى كل هذه المواقف حنكة ولباقة واعتدالاً وحسن تقدير جديرين بكل إعجاب ، إلا

أن أطماع الرجال وفساد الحالة الاقتصادية بالنسبة للفقراء من الأحرار ، وازدياد قوة رجال المال ، وتدفق العبيد بعد الفتوح الخارجية ، وتحول الجندية من كونها الواجب الأول للمواطن ، إلى حرفة تحتكر ولأه الجندى ورعايته ، ويجند فيها العيشة الكاملة ، وتصرفه عن واجبات المواطن ، كل هذه العوامل عقدت الأزيمة تعقيدا شديدا ، ولكنها - في الواقع - لم تنل حقها من عناية السياسيين في آخر عهد الجمهورية ، فلم تنفصل واضحة في برامج الزعماء أو الأحزاب ، بل انقسم الزعماء ما بين مؤيدين لخيار الناس أو سرايهم Optimates ، ومشايخين للعامة populares فكان هذا تضليلا وسترا للكفاح الحقيقي بينهم : حول اغتصاب الحكم .

وقد أخلص شيشرون لفكرة الجمهورية كل الإخلاص ، وآلمه أن القدر قدر له أن يعيش في وسط هذه العواصف ، ويتمنى لو عاش في أيام المجد ، مجد الجمهورية عندما اجتازت عواصف الحروب الفينيقية ، عندما وصف زائر يوناني السناتو الروماني « بأنه مجلس ملوك » .

ولم يقبل شيشرون القول بأن الأنظمة التي كانت أداة روما في اكتساب هذا المجد ، قد أفلس ، فجاهد للاحتفاظ بها وخر صريعا على يد أعدائه وأعدائها .

ثبت شيشرون على مبدئه ثباتا تاما ، ولكنه كان رجلا سياسيا ، مرت عليه ما تقضى به الضرورات الوقتية من مواقف المداراة أحيانا ، أو اصطناع خدام نافعين للجمهورية من ذوى الأطماع ، كما مرت عليه فترات بما يمر على كل الرجال من فتور العزيمة أو الوهن أو الممل أو خطأ التقدير أو سوء إدراك للموقف ، أو الاندفاع أو الاعتزاز بأن ما قدمه للجمهورية شفيع دائم يقيه مكائد الأعداء أو أذى أتباعهم بين الدهماء ، فلا بدع أن تردد أحيانا أو ضعف جانبه أحيانا أخرى فتماق القوة ، ولا بدع أن تملكته الخيلاء أحيانا ، ولا بدع أن طوحت به الفصاحة وذلاقة اللسان وسيولة

القلم أحيانا إلى مهاوى الفشل - وأخيرا - إلى الهلاك .

نشأ شيشرون في مدينة إيطالية صغيرة (أرينوم) ، ولم يكن من ذوى الأنساب ، بل شق طريقة نحو - الفصلية - أعلى مناصب الدولة (وكلها انتخابية) بفضل ، واهبه عامة ، وقدرته الخطائية الرائعة خاصة ، فكان أبدا - على حد التعبير اللاتيني - من الرجال الجدد أو المحدثين - وقدر له أن يتخذ الدستور والمجتمع الروماني عندما أفسد على « كاتيلين » وجماعته ما دبروه من دسيسة لقلب الدستور والقيام بحركة نهب عامة ، وكانت خطته لكي يحتفظ بالدستور الجمهوري أن يخلق له سياجا من تحالف الأرستقراطية المختضنة في السنااتو ، وطائفة الفرسان الرومان أصحاب المال ، إلا أن الأرستقراطية لم تنس أبدا أنه لم يكن منها ، فلم تسلم له قيادها ، ولم يستطع هو أن يجتذب لانقاذ الجمهورية قائدا من قواد الجند ، يضع تحت قدميها مخلصا بحمد اسمه وولاء جنوده ، على الرغم مما علل به النفس أحيانا نحو « بومبيوس » ، أو نحو قيصر أو نحو أجسطوس ، فكان القدر أقوى منه .

إلا أنه على الرغم من هذا ، كان شيشرون أول رجل وصل إلى أكبر مناصب الدولة الحرة ، دون أن يكون رجل نسب أو صاحب سيف أو منشيء دعوة ، فهو أول أولئك السياسيين من أصحاب العقول والمواهب الكتابية والخطائية الذين ازدانت بهم الحياة السياسية الأوروبية ، وعرفهم التاريخ قادة ورؤساء ووزراء ، فلئن كان شيشرون قد خرف في الكفاح ضد القيصريّة ، فقد أسس أسرة من قادة الأمم أبقي على الدهر من القياصرة ، ولئن فاته إنقاذ الجمهورية الرومانية ، فقد كان من بناء جمهورية الفكر الإنساني .

ولست جمهورية الفكر إلا جانبا من فكرة وحدة العالم ، التي تصورها شيشرون فيما كتبه في موضوعات الفلسفة السياسية ، وقد أقامها على أساس ارتباط بني الإنسان جميعا برابطة العمل ، وتخيل لها قانونا يعول القرآن ابن الوضعية ، إذ هو لا يرتبط بزمان ما ، أو بمكان ما ، أو بشعب بعينه .

وشيشرون واحداً من أربعة رجال أفاضوا القول في تلك الوحدة الكبرى :
والثلاثة الآخرون هم سنكا وإيكتوتوس وماركوس أوريليوس . أما هو فقد
عاش في عصر تم فيه الجزء الأكبر من اتساع السلطان الروماني حول البحر
المتوسط ، فكان كأن روحاً قد حققت فعلاً للمجتمع اليوناني (بمعناه الشامل)
دولته العامة ، وكان كأن روما قد رسمت صورة يتعكس فيها لون من الوحدة
الكبرى المثالية ، وهي صورة بشرية معيبة لما هو إلهي كامل ، ولكنها قابلة للكمال ،
قابلة لأن تتأثر أنظمتها القانونية وأوضاعها القضائية بالقانون الأسمي ،
بالقانون الطبيعي . وأما سنكا وماركوس أوريليوس . فكان من نصيبهما تولى
الحكم (وكان ثانيهما امبراطوراً) واستمد كلاهما من فكرة الوحدة الكبرى
الثورة والمدد لتحمل أعباء الحياة العامة ونكباتها القاسية ، وكان من جرائها
— كما نعلم — أن فقد سنكا حياته وماركوس سعادته . أما الثالث
— إيكتوتوس — العبد الأعرج ، فيمثل إيمانه بالوحدة ، قوة الفكرة التي
دعا إليها امبراطور ورجلان في طليعة الحكام .

وبعد فإن تلك الدعوة تفيد الابتعاد عن فلسفة المدينة اليونانية ، عن
أفلاطون وأرسطو . ولقد أعجب شيشرون بأفلاطون أعجاباً كبيراً ، بل
اعتبر نفسه متمذهباً بمذهب الأكاديمية الجديدة ، بل وحاكياً في كتبه أسماء
الكتب التي خلفها أفلاطون ، ولكن الواقع أن الفلسفة اليونانية التي
استقبلتها روما في العصر السابق لعصر شيشرون مباشرة ، كانت شيئاً آخر
غير فلسفة أفلاطون أو أرسطو ، بل تتلذذ الرومان للرواقيين وللأبيقوريين .
ولا عجب في ذلك فإن المدينة — بيئة الأفلاطونية أو الأرسطاطالية
الطبيعية — قد اكتسحتها الفتوح الاسكندرانية . وقامت الملكيات المطلقة
عند ما تجزأت دولة الاسكندر ، وبدأ عصر امتزاج الشعوب والثقافات ،
فكان من المعقول أن تدخل الفلسفة اليونانية في طور آخر أكثر ملاءمة
لظروف المجتمع اليوناني الجديدة ، وهنا ينبغي علينا أن نلاحظ أمراً جديراً
بالاعتبار ، «وداه أن شيشرون في عمله السياسي بقي محافظاً رومانياً قليل

التأثر بالنزعات الجديدة ، على عكس قيصر وأنطونيوس وأجسطوس ، فالأول — فيما يذهب إليه بعض من ترجهوا له — كان يرمى إلى إقامة نوع جديد من أنظمة الحكم ، يجمع بين عناصر مستمدة من أنظمة الملكيات الشرقية اليونانية (وبخاصة المصرية البطليموسية) ومن أنظمة الجمهورية الرومانية . أما الآخرون فقد رمى أكتافيوس فيما يقال إلى تحقيق العناصر الشرقية من الهدف القيصرى ، بينما رمى أجسطوس إلى تحقيق العناصر الرومانية من ذلك الهدف ، وقدر له أن ينال ما رمى إليه ، فحول الجمهورية الرومانية إلى « الإمارة الرومانية » (principatus) . أما شيشرون فقد بقى — فيما يتعلق بالعمل السياسى — وبالفكرة السياسية الإيجابية — داخل إطار الجمهورية والمدينة كما قدمنا — وعالج أمر اللسانير والأنظمة من حيث تقسيمها وبيان عيوب ومزايا كل نوع من أنواعها ، طبقاً للأساليب اليونانية القديمة .

ولم يكتب شيشرون فى موضوع الفلسفة السياسية فحسب ، بل عالج موضوعات الأخلاق والمنطق والإلهيات فى رسائل شتى ، ويحق لنا أن نعجب من أن رجلاً سياسياً كشيشرون ، مارس المحاماة وولى أخطر شئون الدولة فى أوقات عصيبة ، استطاع أن يجد الفراغ اللازم لهذه المؤلفات العديدة ، والظاهر أن بعض أخصائه قد سبقونا إلى هذا التعجب ، وقد رد على أحدهم بقوله : « لا تعجب فهذه الكتب لا تكلفنى عناء كبيراً ، لأن قلبى سيال » .

وقد وثب منتقصوه لهذا القول ، وعدوه اعترافاً منه « بالسطحية » التى لا تكلف المرء مشقة ، والواقع أن شيشرون لم يرم إلى التجديد أو الابتكار (وقد قال بواسيديه إنه لم ينتحل لنفسه أبداً صفة الابتكار ، وأن هذا ربما كان الفضل الوحيد الذى لم يدعه شيشرون لنفسه) . بل كان همه أن ينقل لقومه بلغتهم وما يناسب تفكيرهم ، آراء الفلاسفة ومذاهبهم وما يقال لها أو عليها ، وهو إذ يفعل ذلك ، لا يحاول أن يبنى مذهباً كاملاً متماسك الأجزاء ، بل يقترب من هذا المذهب أو ذاك تبعاً لمزاجه الرومانى الأصيل ، ولأنهما كه

التام في مواجهة شئون الحياة العملية . وهذه مباحثه في الأخلاق تدور في دائرة الفضائل الأربع الأصلية المشهورة ، وتحس أثناء قراءتها أن الكاتب ينتمى لرجال الحكم ، وأنه يتحدث لرجال الحكم ، لأصحاب المناصب ، لرؤساء الجند ، لذوى اليسار ، وبالجملة « لكل من له نصيب في المملكة ، كما يقول الإنجليز . وإن شئنا أن نسمع صوتنا آخر ، وقولا آخر ، يخرج من الأعماق ويصل للأعماق ، فلا بد لنا من أن نتقل من روما إلى فلسطين وأن ننتظر زماناً آخر وهاتفا غير شيشرون ، ومستمعين من الفقراء والمحرومين ، وعندئذ نسمع صوت السيد المسيح يتحدث من أعلى الجبل إلى « الجموع الكثيرة التي تبعته من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن » .

* * *

ولما عالج شيشرون موضوع الاستدلال على المحجبات في الرسالة التي بين يدي القارىء ، نظر إليه أيضا نظرة الصفوة الحاكمة ، حقيقة إنه يعطى الموضوع حقه فيقرر حجج المؤمنين بإمكان الاستدلال ، وحجج غير المصدقين لها ، ويورد الآثار الأدبية والتاريخية لإيراداً حسناً . ولكنك تحس في ثنايا القراءة أنك يإزاء روماني أصيل ، يرى أن آباءه وأجداده كانوا من المؤمنين بتحكم القوى الخفية ، وأنهم كانوا لا يقدمون على عمل خاص أو عام إلا بعد استطلاع المغيب ، وأن الدولة اتخذت من هذا نظاماً من أنظمتها ، وأقامت هيئة المستخبرين وجعلت لاستخاراتهم سلطاناً على مداولات مجالسها وغزواتها واتخاباتها .

وقصارى القول أن شيشرون كان رجلاً إنسانياً في صفته وقوته ، وخير ما نختم به هذه الكلمة أن نقتبس ما قاله عنه مؤرخ « إنساني » ، هو الإيطالي فيرو :

« كان شيشرون أحد القلائل الذين لم تستهزم شهوة الحكم أو المال ، وإن كان من يحبون ثناء الناس عليهم ، ويكاد يكون بين رجال السياسة في عصره

الوحيد المخيف في التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، قد لم يمنعه ذلك التمييز من
الإتيان ببعض السقاسف ، ولكن منعه بلا ريب عن ارتكاب الجرائم ، كما
كان الوحيد في القيام بشئون السياسة طبقا لمنهج صدر عن روية وفكر ،
ورغبة صادقة في الجمع بين تقاليد الآباء وفنون اليونان ، وعمل دائم لينشر
بين مواطنيه روح الإنصاف واللين . . وليقيم الأمر على دعائم من مثل
ما انطوت عليه جوانحه من الرحمة والمودة . .

الكتاب الأول

ويتضمن أدلة كوتتوس Quintus

في تأييد التكهن بالغيب

قصر الاعتقاد في التنبؤ

١ — انجدر إلينا منذ عصر الأساطير اعتقاد قديم، مكن له اتفاق الرومان على التسليم به، وإيمان سائر الشعوب بأمره، ذلك هو الاعتقاد الذي يقرر نوعاً من التكهن بالغيب بين بني البشر، وهو الذي يسميه الإغريق سبق النظر — في مجال الغيب — ومعرفة ما يخفيه المستقبل من أحداث. ولو أن هذه الملكة قد تهيأت لبني الإنسان، لدت عليهم خيراً، وكانت أمراً جلالاً، لأنها تخلع على الناس قدرة تدنيهم من قدرة الآلهة دنواً ملحوظاً، وكما أننا معاشر الرومان قد تفوقنا على الإغريق في كثير من الأعمال، فإننا قد تفوقنا عليهم في وضع اسم لهذه الهبة التي تجاوزت كل حد مألوف، واشتققنا الاسم من معنى الآلهة divi بينما اشتق الإغريق اسمها — فيما يقول أفلاطون — من الجيئة أو المس furor (١).

وإني لأعلم أن ليس بين الأمم — المهنذ والمتعلم منها، أو الهمجي والجاهل فيها — من لا يرى بأن هناك شواهد تنبئ عن حوادث المستقبل، وأن بين الناس من يستطيع معرفة هذه الشواهد والتنبؤ بالحوادث قبل وقوعها.

تبوع التنبؤ في العالم القديم :

فاذا التمسنا شاهداً — على ما أسلفنا — في الماضي السحيق، وجدناه في الآشوريين، فقد مكنتهم سعة السهول التي أقاموا في رحابها، ومنظر السموات التي تمتد مكشوفة على مدى البصر في كل صوب، من أن يلاحظوا

(١) يشير المؤلف إلى فقرة في محاوره فيدروس Phaedrus لأفلاطون، وفيها يدافع سقراط عن حالة المس أو الجئة أو الجذب، وهذه حال يتكشف عنها أو يمكن أن يتكشف عنها وحي الآلهة، وبلغت المؤلف نظراً — بهذه المناسبة — إلى أن القدماء لم يعتبروا الجئة شيئاً قبيحاً، ولم يطلقوا اللفظ الذي يشير إليها على معنى سيء، من حيث إن الكلمة تطلق على فن التكهن — خير الفنون جميعاً — (جازنيه) .

مسالك الكواكب ، وأن يرقبوا حركاتها ، فسجلوا ما أدته إليهم مشاهداتهم ، وورثوا الأجيال التي أعقبتهم ، ما تحمله حركات الكواكب من دلالات على حظوظ الناس .

ومن أبناء هذا الشعب نفسه عرف الكلدانيون : Chaldaei ، وهو اسم لم يشتقوه من حرقهم ، وإنما استعاروه من جنسهم^(١) ، والمظنون أنهم واصلوا ملاحظة المجموعة النجمية زمانا طويلا ، واستغلوا هذه المشاهدات في إقامة علم يمكنهم من التنبؤ بحظوظ الناس ، ومعرفة المصير الذي قدر لهم . والمعتقد أن المصريين قد اكتسبوا بدورهم هذا الفن نفسه عن أجدادهم ، خلال ماضٍ سحيق يمتد إلى أجيال لا يكاد يحصيها العد .

ثم أن الكيليسكيين والبيسديين وجيرانهم البابليين^(٢) — وهم سكان بلاد توليت حكمها فيما سلف — يعتقدون أن المستقبل تكشف عنه أغاريد الطيور وتحليقها في الجو ، ويشقون في هذه الشواهد ثقة لا يتطرق إليها الشك أبدا .

وفي الحق أية هجرة قام بها الإغريق إلى ايتوليا ، أو إيونيا أو آسيا أو صقلية أو إيطاليا ، قبل أن يستشيروا الكاهنة « بيثيا » أو يتلقوا الوحي من « دودونا » ، أو « جوبتر آمون » ؟^(٣) أو أية حرب خاض الإغريق غمارها قبل أن يلتمسوا نصيحة الآلهة أولا ؟

(١) أشار مترجم Loeb إلى أن Chaldaei اللاتينية كانت تستعمل في عصر شيشرون للدلالة على المنجمين — وقد كانوا الطبقة الحاكمة بين البابليين — ولهذا اضطر شيشرون إلى أن ينص على أن اسم الكلدانيين مشتق من اسم الجنس الذي انحدروا منه ، ولكن Desmarais يقول في تعليقه على ترجمته للفقرة إنه اشتق من اسم الاقليم الذي نشأوا فيه : Chaldée لا من اسم حرقهم — التنجيم .

(٢) سكان ثلاثة أقاليم في آسيا (ديماريه) .

(٣) إن وحي دلق ودودونا وآمون أشهر أنواع الوحي عند القدماء ، وقد تسمع الناس جميعا بوحي بيثيا وشجرة دودونا المنبتة ، وبالتمثال المقام الآن لآمون — ومع في واحات سيوه ، وتقوم بين هذا الوحي الأخير ووحى دودونا علاقة — فإنا نقول الأساطير التي يرويها هرودوت (ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥) ، ولا يخلو من المفزى تقص الطيور في أعلى المعابد =

أساليب الرومان في التنبؤ بالغيب (صنعية وطبيعية) :

٢ - وليس ضرباً واحداً من التكهّن بالغيب هو الذى استخدمه الناس فى شئونهم العامة والخاصة ، وإذا نحن أغفلنا الحديث عن غيرنا من الشعوب ، فكم نرى من أساليب استخدمناها نحن معاشر الرومان : فنحن نعلم . - قبل كل شيء - أن روميلوس : Romulus مؤسس هذه المدينة - روما - لم ينشئها - فيما هو متواتر - استجابة لقال (عرفه من مراقبة طير سانح) فحسب (١) بل لقد كان روميلوس نفسه من الممتازين من أهل العياقة (٢). وقد

== فى مصر العليا عند قدماء المصريين ، ونتهى هيودوت - بالحق أو بالباطل - الى القول بأن هذه النقوش تمكن من ارجاع فن التكهّن اليونانى الى أصل مصرى ، ولكن هناك علماء يردون عبارة آمون الى أصل أغريقى (ونحن نعلم أن مستعمرات يونانية كانت تقوم فى لوبيا) ومع افتراض أنهم على حق فى ذلك ، فانه يلوح لنا أن عبادة الإله المصرى قد استبدلت بعد ذلك بعبادة زيوس أو اختلطت بها (جارنييه) .

(١ و ٢) يراد باللفظ *auspices* هنا القال الذى يؤخذ من مراقبة طير يطير ، وقد كان العرب اذا هموا بأمر طيروا طائراً ، فان طار يئنة سموه سانحاً وأقبلوا على تحقيق أمرهم ، وان طار يسرة سموه بارحاً وعدلوا عن مروعهم (انظر فن العياقة فى كتابنا : التنبؤ بالغيب عند مفكرى العرب) ، أما اللفظ : *augur* فقد استخدمه الرومان للدلالة على الراجم بالغيب عند جماعة اشتهرت فى روما القديمة بالكشف عن الغيب بملاحظة الطيور فى طيرانها أو تغريدها وصياحها ، وقد كان العرب يسمون هذا الضرب من التكهّن بفن العياقة ويطلق فى حالى التفاؤل والتشاؤم معا (التهانوى ص ٩٠٧) . وقد قرر *Servius* فى التقریب بين اللفظين *auguria* و *auspicia* أن الأول كان يستخدم أول الأمر عندما يجىء المشاهد (الطائر) عفواً دون مشاهدة متعمدة ، أما اللفظ الثانى فانه كان يستخدم فيما تجرى فيه المشاهدة عمداً . ولكن : *C.H. Appuhn* - فى تعليقاته فى طبعة جارنييه - يقول ان الحدين قد استخدموا أخيراً للدلالة على معنى واحد فى كل الحالات - وقد أخذنا بهذا الرأى فى ترجمة الكتاب - ولكن *H.J. Rose* فى المقدمة التى كتبها لقال التكهّن بالغيب فى دائرة معارف الدين والأخلاق . *Eucy. of Religion & Ethics* (لاشرها : *Hastings*) يقول إن لفظ *Haruspicy* لا يستخدم للطيور الحية وحدها ، بل فى استنباء المذبوحة والمبته منها كذلك ومعنى هذا أنها تشمل بعض ما نسميه بالنظر فى أحشاء الضحايا ، ويشير ديمارىه فى ترجمته الفرنسية لكلمات شيمرون الى أن الكلمة اللاتينية *haruspices* و *haruspices* تتألف من كلمة قديمة بمعنى ضحية ومن الفعل *spicio* بمعنى يفرس أو يفحص وبذلك يكون معنى الكلمة الأصلية التى وردت فى النص : مفرس أو باحث فى الضحايا ، والمراد فيما يقول

استخدم غيره من ملوك الرومان هؤلاء العيافين . وبعد طرد الملوك كانت الشئون العامة كذلك — ما اتصل منها بداخل البلاد أو خارجها — لا تتم قبل استشارة هذا الفأل السالف الذكر .

وفوق هذا فإن أسلافنا منذ أن اعتقدوا بأن فن العرافة^(١) عظيم النفع في الكشف عن الفأل والطيرة ومعرفة المشورة (التي توحى بها الآلهة) ، ومنذ أن تبنوا أثره البالغ في معرفة الدلالة التي تحملها الخوارق ، وتفادى ما تنذر به من شر ، قد استعاروا بالتدريج هذا الفن بحذافيه من أهل أتروريا ، مخافة أن يبدو أنهم كانوا يستخفون بأي ضرب من ضروب التكنن بالغيب . وقد ظن أجدادنا بأن العقل البشرى عند ما يكون في حالة يغيب فيها

== مترجم لويب : فخص أحشاء الحيوانات — وقد كانت هذه إحدى طرق التكنن عند القدماء ، ولكن المترجم الانجليزي قد ترجم اللفظ الى : Soothsayings' art. أى فن العرافة وأصل الترجمة — اذا قورنت بمعنى الكلمة في هذا الكتاب كانت أعم من الأصل ، لأن العرافة تشمل التكنن الصنعي بمختلف صورته ، ولا تقتصر على فخص الأحشاء أو ملاحظة الطيور . والذي يتبع هذه اللفظة في كتاب شيمرون يرى من الملائم قصرها على الطيور ؛ كذلك الحال في لفظ auguria وبذلك يمكن تقريب معناها في الترجمة العربية ، وهذا ما فعلناه عند نقلها الى العربية في كتابنا ، وبذلك نكون قد أخذنا برأى مترجم جارييه السالف الذكر ، وذلك لا ينفي القول بأن الكلمة قد أطلقت على معان أوسع من هذا بكثير ، فشملت — فيما تقول دائرة المعارف البريطانية (مادة Augur) شواهد السماء من رعد وبرق ونجوم ساقطة ونحو ذلك ، وشواهد الطيور في غنائها وصياحها وجهة طيرانها وتساقط الحبوب من أفواه الطيور وهي تطعم وشواهد الحيوانات بمراقبة مسير ذوات الأربع والزواحف وملاحظة أصواتها في مكان يسكنه ، والنذر الزاجرة من صرير الفأر أو ضجيج يحدثه سقوط عصا في معبد يسوده السكون ونحو ذلك من ظواهر غير مألوفة . وتشمل كذلك نبوءات وحى أبولو وفخص أحشاء الحيوانات وغير هذا مما نصت عليه دائرة المعارف البريطانية ، ولكن الكلمة كانت تطلق في كتابنا على استنباء الطيور ، ولم ترد بمعنى استنباء البرق الا مرة واحدة ، وهذا هو الذي جعلنا نترجمها بفن العيافة الذي كان العرب يقصرونه على استنباء الطيور بمراقبة تغريدها وصياحها وتحليقها في الجو .

(١) أشار مترجم لويب في هامش له الى أن : Haruspex — وقد ترجمتها بفن العيافة كما أشرت في الهامش السابق — تعني التنبؤ بالنظر في فخص الأحشاء ، مع أن سياق الحديث في النص يجعل المعنى أعم من هذه الإشارة .

الوعى ، ويخمد فيها الفكر ، ويتحرك بدوافع من ذاته حرة لا يعوقها عائق (إرادى) ، فان هذا العقل يصبح مهبطاً للألهام باحدى طريقتين : اللجنة أو الرؤيا . وقد ظنوا بأن التكهّن الذى يكون فى الحال الأولى قد تضمنته على وجه الخصوص أشعار سيبايل Sibyle^(١) . لهذا كله سنوا تشريعاً يقضى بأن يختار عشرة من رجال الدولة^(٢) ليتولوا تأويل هذه الأشعار .

ويدخل فى هذا الباب تأويل ما وقع لعرافين ورائين فى حالات مسهم من نبوءات — كثيراً ما كان أسلافنا يعتبرونها موضع ثقة وتقدير ، من أمثلة هذا نبوءات كورنيليوس كوليلوس Cornelius Cilleolus التى ظهرت إبان الحرب الأكتافية^(٣) ، وليس هذا فحسب ، بل إن مجلسنا الأعلى لم يهمل من الأحلام ما بدا على اتصال بادارة الشؤون العامة ، ومن ذلك — فيما يحضرنى — أن لوكيوس يوليوس L. Julius الذى كان قنصلاً مع بوبليوس روتليوس P. Rutilius قد جدد بناء معبد المخلصة جونو^(٤) بقرار من مجلس الشيوخ

(١) هى كما تقول الأساطير القديمة إحدى النساء الثلاثى أوتين القدرة على التنبوء بالغيب ، ويقول ديماغريه فى تعليقاته أن شيشرون عندما يعرض لذكرها يقصد على الدوام سيبايل أريتريا — وهذه مدينة فى أبونيا الصغرى — وربما فهمنا من الهامش خطأ هذا رأى .

(٢) إن التاريخ الأسطورى لكتب سبيل التى اشتراها : Tarquin L'Aucieu من عجوز شمطاء ، لا يخفى على أحد ، والمعروف أنه بعد إحراق الكابيتول الذى كانت هذه الكتب محفوظة به ، قد جددت مجموعة منه عن طريق الاتصال بالكاهنات الشهيرات — ولا سيما كاهنه أريتريا ، وقد كان مؤولو كتب هذه الكاهنة أول الأمر اثنين ليس إلا ، وكان الأمامة قد استبعدوا من مختلف الوظائف الدينية حتى سنة ٣٦٤ ق . م . فبدأوا يقومون بتأويل كتب سبيل ، وفى هذا العام أنشئت كلية من عشرة أعضاء منهم خمسة من العامة ، وخمسة من الخاصة ، ثم ارتفع عدد الأعضاء فى عهد سلا Sulla إلى خمسة عشر عضواً (جارييه) .

(٣) وقعت هذه الحرب عام ٨٨ ق . م بين أكتافوس من ناحية وماريو وسلا من ناحية أخرى (لويب) .

(٤) هى كبرى بنات ساتيرن Saturne ورها Rhéa وهى أخت جوبتر وزوجته ولدت فى أجروس أو فى جزيرة ساموس ، انظر شرح أسطورتها فى Dezobry et Bachelet ، وهى تعادل Hera اليونانية التى تعتبر حارسة الزواج وحامية المرأة من مهبها إلى لحدها — أما تجديد بناء المعبد ، فقد كان — فيما يشير مترجم لويب — سنة ١٠٥ ق . م . عندما كانت شيشرون فى الأولى من عمره .

صدر استجابة لرؤيا وقعت لابنة بلايريكوس Balaericus^(١) وهي كيكيليا
• Caecilia

موقف الفلاسفة من التكهن :

٣ — والرأى عندى أن القدماء كانوا أكثر تأثراً بالنتائج العملية منهم
بالاقتناع المنطقي^(٢) بيد أن الفلاسفة قد قدموا أدلة [لبقة] دقيقة على صدق
التنبؤ بالغيب ، وكان أكسانوفان Xenophanes — من أهل كولوفون —
(وهو أعرقهم في القدم في هذا المجال) ، الوحيد الذى أنكر — مع تسليمه
بوجود الآلهة — التكهن بمخذافيه^(٣) .

أما سائر الفلاسفة — مع استثناء أبيقور Epicurus الذى كان يثرثر في
حديثه عن طبيعة الآلهة — فقد سلموا بالتكهن بالغيب ، وإن تفاوت تسليمهم
قوة وضعفاً ، وإنا لنذكر على سبيل المثال سقراط Socrates وأتباعه^(٤) ،

(١) كان كايكليوس متلوس بلايريكوس قنصلاً عام ١٢٣ ق . م . (لويب) .

(٢) كان شيشرون يستصوب حرفة الكهانة ولا سيما فن العيافة ، لأسباب سياسية ،
لأنه كان يثق في قيمتها التنبؤية (قارن الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الثانى من هذا
الكتاب في أسخته العربية — (لويب) .

(٣) نجد شاهداً يتفق مع هذا في : De placitis philosophorum V, I. مؤلفه
بلوتارك ، وقد كان أكسانوفان خصيم مذهب الشرك ومؤسس المدرسة الأيلية ينكر التكهن
بالغيب ، ونجد شاهداً آخر على هذا في ديوجانس اللايرتي : Diogène Laerce, X, 135.
(جارفنيه) .

(٤) كان سقراط فيلسوفاً عميق الشعور الدينى ، وكان كثيراً ما يعتقد بأنه يعمل أو يتكلم
تحت تأثير إلهام إلهى ، وكان على يقين من أن إلهامه خيراً يعين الناس حين يكونوا في شك من
أمر المستقبل ، لأنهم لا يستطيعون إذا استعانوا بعقولهم وحدها أن يعرفوا على وجه الدقة
الاتجاه أو التصرف الذى يحسن التزامه ، انه يؤنب الذين يعملون بغير ما تنذر به الآلهة ،
ويحض أصدقاءه على استشارة الوحي ، ولا سيما وحي ، دافى ومن هذا نرى أنه كان يتشبع
للتكهن ، أو يرى بتعبير أدق ، أن من واجب المرء أن يستشير الآلهة في الحالات الجدية
الخطيرة ، أما في الأمور التى يستطيع المرء أن يحكم عليها حكماً مسبباً قائماً على العمل التى
تبرده ، فان سقراط يرى أن استشارة الوحي في مثل هذه الحالات أمر يخالف العقل .

== ونلاحظ أن أنتستانس (زعيم المدرسة الكليية) وأرسطوبوس (زعيم المدرسة (الفورنيائية) وإقليدس (زعيم المدرسة الميفارية) لا يعتقدون عقائد أستاذهم (سقراط) الدينية ، ولا يرون رأيه في الإيمان بالتكهن بالغيب ، وقد كانت المدارس التي أنشأوها لا دينية ، فأما الكليون فنلاحظ أن ديوجانس الكلبي يميز موقفه في وضوح ، فيقول إنه يرى معبري الأحلام ، والكهان الذين وصل بعضهم إلى المجد والثراء ، ويرى السذج الذين ينصتون إليهم ، فيضيق بهم جميعاً ، ويعتقد أن الإنسان أجهل مخلوق في الوجود (Diog. Laerce, VI, 2, 24) . هذا عن الكليين Les Cyniques أما الفورنيائيون Les Cyrénaïques فإن مبدأهم يقضى بالافادة من الحالة الراهنة بمختلف الأساليب ، لأن الخير الأعظم عندهم هو اللذة ، ولهذا فانهم لا يستطيعون إلا أن يكونوا قساة في حكمهم على قاتق النفس التي تتلمس السعادة عن طريق التكهن بالغيب .

أما عن الميفاريين Les Mégariques فإن لدينا شاهداً كافياً في معرفة رأيهم في الآلهة ، فإن كراتيس Cratylus يستفسر من ستيلبون Stilpon تلميذ إقليدس عما إذا كانت الصلوات وطقوس العبادة مقبولة عند الآلهة ، فيجيب ستيلبون قائلاً : لا تسألني على مسمع من الناس عن مثل هذه الأشياء ، ولكن وجه إلى سؤالك عندما نكون على انفراد (Diog. Laerce 11, 11, 117) ويختلف عن هذا كل الاختلاف موقف أفلاطون ، فإنه وحده الذي تصدق فيه كلمة شيشرون عن السقراطيين ، إذ يرى (فيما نرى في محاوره فيدروس) أن فن التكهن أجمل الفنون جميعها ، وكثيرة هي الفقرات التي تقرر معتقدات أفلاطون في التكهن بالغيب ، ومن الممكن اعتبار هذه المعتقدات مقابلة للحكمة عند غير الفلاسفة ، وهذا هو السر في أنه لا يتعرض لها مفسر عاقل ، وقد كان من رأيه أن القوانين الجميلة المقررة لا ينبغي الإقدام على تغييرها ، فإن كان من الضروري إجراء تغيير فيها ، وجب ألا يقدم المفسر على هذا إلا بعد أن يستشير جميع الحكام وكافة أفراد الشعب ، وكل أنواع الوحي ، حتى إذا وافقوا على التغيير جميعاً جاز الإقدام عليه . (النواميس في الكتاب السادس ص ٢٧٢ ج د) .

وقد ظفر التكهن بالغيب بمكان مرموق في الدولة ، وقد عرض لييان هذا أفلاطون في النواميس والجمهورية والمائدة وطيمائوس التي يعرض فيها نظرية التكهن عن طريق الإلهام الإلهي مستخدماً لغة الصوفية في اشتراط هدوء النفس النام ، وتعطل الفكر بالنوم وصفقه بالمرض أو بحالة الجذب التي تعترى الإنسان .

أما عن أرسطو فإن بلوتارك يقول إن أرسطو يعتبر التكهن الذي يقوم على مشاهدة الشواهد الظاهرة وفن العيافة وملاحظة الطيور ، كلها غير خليقة باهتمام الفلاسفة . إن فلسفة أرسطو تستبعد بوجه عام كل ما فوق الطبيعة ، وإن كان يرى أن من الممكن أن نصل بشأن المستقبل إلى تخمينات ، وأن نبني آمالاً ، ومن هنا كان في الإمكان قيام علم للأمل الممكن ، وهو يريد أن يستبدل بالتكهن نوعاً من التنبؤ الملل الذي يقوم على أسباب ويستند إلى الاستقرار وحساب الاحتمالات ، أما عن التنبؤ في الأحلام فقد وضع عنه بحثاً قال فيه إنه لا يسهل علينا احتقار هذا النوع من التنبؤ ولا الاعتقاد في صحته (جارييه وانظر تفصيل رأيه في كتابنا الأحلام)

وزينو Zéno وأشياعه^(١)، فقد واصلوا الاعتقاد في رأى الفلاسفة القدامى ،
واتفقوا في الرأى مع الأكاديمية القديمة والمشائين معاً، [وسلفهم] فيثاغورس
Phythagoras^(٢) الذى كان يميل إلى أن يعرف بين الناس بأنه من أهل
العيافة ، قد خلع اسمه العظيم على هذه الحركة من قبل . وأكّد [المؤلف]
« ديموقريطس » Democritus في أكثر من موضع ، عقيدته في المهجس بأمور
تقع فيما بعد^(٣) أما ديكاركوس Dicaearchus^(٤) أحد المشائين ، فانه رغم
تسليمه بالتنبؤ بالغيب عن طريق الأحلام والمس ، قد رفض التسليم بسائر
أنواع التكهّن الأخرى ، وقد حذا حذوه في ذلك صديقى [الحميم] كراتيپوس
Cratippus^(٥) الذى أضعه مع أعظم المشائين في صف واحد ، فأعلن ثقته

(١) من الغريب أن يذكر شيسرون هنا [زينو وأشياعه] ثم يعود بعد قليل إلى
الحديث عن الرواقية . ولا يلوح من خلال الحديث أنه يقصد هنا زينو الأيلي (جارنييه) .
(٢) يقول بلوتارك (Plac Philos V, 1) إنه سلم بكل أساليب التكهّن ، إلا ما يشترط
فيه أولاً أن يكون توضيحاً ذبحة ، وتجذ نفس هذا الشاهد في ديوجانس اللايرتى وسويداس :
Suidas وجامبليك : Jamblique (جارنييه) .

(٣) إن موقف ديمقرطيس ، إزاء التكهّن يدل على إصراره في الاهتمام بالصفة الآلية
(الميكانيكية) في مذهبه ، فليس نعمة شيء إلا الجوهر الفرد والحلاء ، وكل ما هو موجود ،
وكل ما يقع ، ينبغى أن يفسر باتصال الجواهر الفردة ، وهذه الذرات لا تخضع لغير القوانين
الآلية ، وقد كان يرى وجود كائنات أعلى من الإنسان وأوفر منه حظاً في القدرة ، وأطول
مه أجلاً ، تتألف من جواهر فردة ، إلا أنها جواهر لطيفة جداً ، تتحرك في الفضاء بسرعة
خارقة ، كانت تسمى في بعض الأحيان بالجن ، سواء أكانت خيرة أم شريزة ، وكانت تلقى
صوراً تراها أعين الناس ، وأصواتاً تصل إلى آذانهم ، وبهذا يمكن تكشّف المستقبل .
وإذا كانت حواسنا إبان النوم منصرفة عن إدراك الأشياء المحيطة بها ، فإن الأحلام
تحمّل أنباء المستقبل ، وفي بعض الحالات يعكس لبعض الناس الذين يهتريهم الجذب أن تنبأ لهم
رؤى أو أصوات تقدم عن كائنات أكمل منها تكويناً ، وإن كانت هذه الصور التي تبعث بها
الجن ، قد يشوهها قلب الهواء وسقوط الأوراق مما يجعل النبوءات في فصل الخريف كثيرة
الأخطاء ١٠٠ (جارنييه) .

(٤) كان من مسينا ، وقد سلم فيما يقول بلوتارك بآراء أستاذه (أرسطو) نفسها —
ديماريه وجارنييه) .

(٥) كان يعلم ابن شيسرون الفلسفة في أثينا ، وقد كتب بحثاً عن « التنبؤ بالغيب » ووضع
بحثاً آخر عن تأويل الأحلام . ورأيه الذى اتفق فيه مع ديكاركوس يتفق مع رأى جمهرة
مفكرى الاسلام (انظر كتابنا : التنبؤ بالغيب)

بهذين الضربين من التكهن ، ثم رفض التسليم بما عداهما .

أما الرواقيون فقد تولوا الدفاع عن كافة ضروب التكهن بالغيب على وجه التقريب ، وذلك أن « زينو » قد وضع بكتابات نواة تعهدا « كلياتس » ، Cleanthes بعض الشيء ، ثم ظهر بعده « كريسيبوس » Chrysippus (١) — وهو رجل يمتاز بالعقل النفاذ — فبحث نظرية التكهن بأكلها بحثاً وافياً في كتابين من كتبه ، ووضع كتابا تناول فيه النبوءات — التي يتلقاها الكهنة عن الآلهة — وخصص كتابا لدراسة الأحلام ، واقتدى به تلميذه ديوجانس Diogenes البابلي فنشر عن التكهن كتابا ، كما نشر « أنتباتر » Antipater كتابين آخرين ، ووضع صديقي « بوسيدونيوس » Posidonius خمسة كتب . وقفها على دراسة هذا الموضوع — أما أستاذه « بانياتيوس » ، Panaetius (٢) — وهو تلميذ « أنتباتر » ، وأحد أقطاب المدرسة الرواقية — فقد انسلخ عن مدرسته ، وهو وإن لم يجرؤ على التصريح بأنكار التكهن [إنكاراً قاطعاً] ، إلا أنه استطاع أن يعلن الشك الذي يساوره في أمره ، وما دام الرواقيون قد أذنوا — [وأنا أسلم بأنهم] أذنوا مكرهين — لهذا الرواق [الذائع الصيت] بأن يعلن شكه في رأى لهم ، فهلا يمنحونا نحن أتباع الأكاديمية — الجديدة — حق الشك في سائر آرائهم ، ولا سيما وأن هذا الرأى الذى بدا أمام « بانياتيوس » ، غامضاً ، كان عند أعضاء المدرسة الرواقية أسطع من وضوح النهار . . . ؟ ومهما يكن من شيء فقد أقر فيلسوف ممتاز — هو بانياتيوس — بهذا الحكم الخطير ، نزوع الأكاديمية المحمود نحو الشك (٣) .

(١) تولى كلياتس « زعامة المدرسة الرواقية » بعد زينو ، وأعقبه الثانى فى رياستها (ديماريه)
(٢) رواقى طائر الصيت ولد فى رودس وكان مؤدب سيبوي الأفريقى فبدأ يقول ديماربه ويقول شيشرون فى الأكاديمية إنه طرح أو شك فى التعاليم التى يعتقها غيره من الرواقية .
(٣) يقول ديماربه إن « بانياتيوس » هو المقصود بهذه الإشارة ، ولكن شيشرون يقول أنه كارنيادس إذ كان فى القرن الثانى قبل الميلاد أكبر ممثل لروح النقد ، وأعظم خصم للنظرية الرواقية ، وكانت الأكاديمية الجديدة التى ينسب إليها شيشرون ترى فيه أستاذاً الأول ، وهو لم يكتب شيئاً ، ولكن شيشرون حينما يذكره يعتمد على تلميذه ، كلتوماك : Clitomachus (جارييه) .

تردد شيشرون في التسليم بالتكبر :

٤ — ولهذا ، وبما أني أريد بدوري أن أعرف الحكم الصحيح الذي يجب أن ينصب على التنبؤ بالغيب ، لأن كارنيادس Carneades أدلى بكثير من الحجج الشاملة القاطعة في طعنه في رأى الرواقية ، وبما أني أخشى أن أتسرع في التسليم بقضية قد يتضح بطلانها أو عدم كفاية أدلتها ، فأني اعتزمت أن أثار ملتزماً الدقة في مقارنة ما يقال في موضوع التكهن من أدلة ، على نحو ما فعلت في كتيبي الثلاثة التي وضعتها عن « طبيعة الآلهة » ، لأن التسرع في التسليم برأى خاطئ ، أمر شائن على كل حال ، ولا سيما إذا كان [مثل] هذا التسرع في بحث يراد به تقدير مالفال والطيرة والطقوس المقدسة والشعائر الدينية من خطر ، فإن الاستخفاف بها مجازفة بارتكاب جريمة في حق الآلهة ، كما أن الإذعان لها مساهمة في التسليم بخرافة يهذى بها المسنات من النساء

بدء المناقشة بين شيشرون وأفيم في موضوع التكهن :

٥ — وقد عالجت هذا الموضوع في عدة مناسبات ، ولسكني بذلت في معالجته اهتماماً يربى على المؤلف منذ عهد قريب ، وعندما كنت مع أخى كوتوس Quintus في بيتنا بمدينة توسكولوم Tusculan وقد مضينا بغية التجول الى اللوكيون Lyceum ^(١) وهو اسم أطلقته على منتزهى العلوى ، فقال « كوتوس » :

« فرغت الآن من قراءة دقيقة للكتاب الثالث من بحثك الذى وضعته

(١) يعلق ديماريه على هذا الاسم قائلاً ان شيشرون — فيما يلوح — كان له في مدينة توسكولوم منتزهان مختلفان : أحدهما خصصه لترهات الصباح وكان عاليًا مكشوفًا ، وقد أطلق عليه اسم اللوكيون ، والآخر لترهات بعد الظهر وكان أقل من الأول ارتفاعًا ، وقد غرس فيه الأشجار وأطلق عليه اسم الأكاديمية . وعلقت « لويب » على الاسم فقالت أن شيشرون كان له مكانان : أحدهما لرياضته في المدينة السالفة الذكر ، وقد اشتق اسم منتزهه الأول من المكان الذى كان أفلاطون يعلم فيه — قارن شيشرون : Tusc 11. 3 ولا يكاد تعلبى جارنييه يخرج عن هذا — .

عن طبيعة الآلهة ، وضمنته مناقشة « كوتا ، Cotta ، وهي وإن زلزلت آرائي في
في الدين ، فإنها لم تقو على تحطيمها جميعاً »^(١)

فقلت « حسناً جداً ، فإن الأدلة التي وضعها « كوتا ، قد قصد بها قبل
كل شيء أن يدحض حجج الرواقيين ، لأن يهدم عقيدة المرء في دينه ،
فقال « كوتوس ، « إن « كوتا ، نفسه يقول ذلك ويكرره مراراً ، حتى
لا يظهر — فيما أظن — بمظهر المتمرد على قواعد العقيدة الدينية المتفق عليها
بين الناس ، ومع ذلك فإنه يلوح لي — وهو في حملته التي أثارها لدحض
الرواقية — قد أنكر وجود الآلهة إنكاراً باتاً ، وفي الحق أني لأشعر رغم
ذلك بالعجز عن تفنيد أدلته ، لأن « لوكيليوس ، Lucilius قد قام في الكتاب
الثاني بدفاع شامل عن الدين ، وكانت الأدلة التي قدمها — فيما تقرر أنت
نفسك في نهاية الكتاب الثالث — أدنى إلى الحق — فيما بدا لك من الحجج
التي استند إليها « كوتا ، بيد أن هناك مسألة أهملت الحديث عنها في هذه
الكتب السالفة الذكر^(٢) إذ آثرت من غير شك أن تتناولها في بحث مستقل ،
وأعني بهذه المسألة التمكن بالغيب ، وهو سبق النظر والتنبؤ بالحوادث التي
يعتبر وقوعها محض مصادفة ، فهيا الآن نبحت — إن شئت — في تأثيرها ،
وتبين طبيعتها .

أما عن رأيي فأني أعتقد أن مختلف ضروب التكهن التي انحدرت إلينا

(١) « جايوس أورليوس كوتا » كان قنصلاً في عام ٧٥ ق . م . وكانت خطيباً
مفوهاً ، وقد صورته المؤلف في كتاب « طبيعة الآلهة » مع « لوكيليوس باليوس » في
محاورة . مثل فيها الأول رأي الأكاديميين ، ودافع فيها الثاني عن وجهة النظر الرواقية ،
هذا ما ورد في تعليقات أويب ، ويضيف جارنييه إلى هذا أن كوتا لا ينكر وجود الآلهة ،
بل لأنه على العكس يقرر جهاراً انصالحهم بالمعتقدات الشعبية ، ويقول إن الرواقية لم يستطيعوا
أن يضعوا بحق نظرية في الآلهة والعناية الآلهية .

(٢) نأش المؤلف هذه المسألة في إيجاز في الفقرة الثالثة من الجزء الثاني من
« طبيعة الآلهة » .

عن أجدادنا السالفين ، والتي نمارسها الآن ، إن كانت صادقة ، فإن هذا دليل
يشهد بوجود الآلهة ، وعلى العكس من ذلك ، إن قام الدليل على وجود آلهة ،
كان هذا حجة تهض على وجود أفراد أوتوا القدرة على التكهن بالغيب .
٦ — فقلت له : « إنك تدافع عن صميم الرأي الذي يعتنقه الرواقيون ،
عند ما تزعم بأن هاتين القضيتين تعتمد إحداهما على الأخرى اعتماداً متبادلاً (١)
« إذا صح إمكان التكهن بالغيب ، استقام وجود الآلهة ، وإذا استقام وجود
الآلهة ، صح إمكان التكهن بالغيب (٢) ، ولكن التسليم بكلتا القضيتين ليس
ميسوراً بهذه السهولة التي تتصورها ، لأن من الممكن أن تعلن الطبيعة شواهد
تنبئ عن أحداث المستقبل الخفى ، دون أن يتدخل فى هذا إله ما ، (٣) وقد
يستقيم وجود الآلهة دون أن يلزم من هذا أن تمنح الآلهة الناس قدرة
يتمكنون بها من معرفة الغيب المحجب ،

فعلق « كوتتوس » على هذا قائلاً : « أياً ما كان الأمر فإنى أجد الدليل
على وجود الآلهة ، وعنايتهم بالشئون الإنسانية ، قائماً فى اقتناعى بوجود
ضروب من التكهن بالغيب ، متميزة واضحة لا يشوبها غموض .

وسأعرض آرائى فى هذا الموضوع — إن أذنت بهذا وكان لديك فراغ
فى الوقت ، ولم تجد ما تؤثره على مثل هذه المناقشة .

فقلت له : « حقاً — يا عزيزى « كوتتوس » — إن وقتى يتسع على الدوام
لدراسة الفلسفة ، (وفضلاً عن هذا) فإنى لأجد الآن عملاً آخر أستطيع أن

(١) كان كوتتوس أخو شيشرون من أتباع الرواقية فيما يقول « ديماريه » بل فيما يظهر
من حديث شيشرون فى كثير من فقرات الكتاب الثانى

(٢) قارن الفقرة السادسة فى كتاب « طبيعة الآلهة » للمؤلف (لويب) .

(٣) يظهر أنه يشير هنا إلى التنبؤ القائم على علل تبرر الاهتمام إلى نتائجه ، وهو الذى
يريد بعض فلاسفة اليونان — كآرسطو وديمقريطس — أن يحلوه مكان التنبؤ فوق الطبيعى
(جارنييه) وقد رفض جمهرة مفكرى الإسلام هذا الاتجاه ، أنظر كتابنا فى « التنبؤ
بالغيب عند مفكرى الإسلام » .

أجد في أدائه لذة (١). وهذا يزيدني شوقاً إلى معرفة رأيك في موضوع التكن بالغيب .

فقال لي : « إني أؤكد لك أن ليس فيها أرى جديد أو مبتكر طريف ، لأن هذه الآراء التي أعتنقها اليوم ، ليست عريقة في القدم فحسب ، بل لقد صادفت رضا الناس عامة والشعوب كافة .

إن التكن بالغيب ضربان : يعتمد أولهما على الصناعة ، ويستند ثانيهما إلى الطبيعة .

فلنذكر أصناف الضرب الذي يكاد يعتمد على الصناعة اعتماداً كاملاً : أى شعب أو أية دولة تلك التي تستخف بنبوءات الكهان أو مؤولي الخوارق والبرق أو أهل العياقة أو التنجيم ، أو أصحاب الوحي ، أو — إذا تحدثنا عن الصنفين اللذين يعبران عن الطرق الطبيعية للتكن بالغيب — فأى الأمم تستخف بنذر الأحلام ، ونبوءات من يعترهم المس . ؟

ضرورة الافتناع بالتنبؤ رغم غموضه أسبابه :

وأظن أنه ينبغي عند البحث في طرق التكن بالغيب ، أن نهتم بنتائجها لا أن نغنى بأسبابها ، فإن هناك قوة طبيعية خاصة تكشف المحجب من أنباء المستقبل ، تارة بملاحظة شواهدا السابقة ملاحظة طويلة متصلة ، وأخرى إبان المس والإلهام الآلهي .

٧ — ليسك « كارنيادس » ، عن اللجاجة في سؤاله الذي رده كذلك « بانياتيوس » ، حين تسأل : « أمر » جوبتر ، نوعاً من الغربان أن ينطق بمنة وآخر أن ينطق يسرة . . ؟ كلا ، ولكن هذه الشواهد قد لوحظت زماناً مديداً ، وتحققت نتائجها ، ورصدها أهلها ، وليس ثمة شيء لا يستطيع طول الأمد

(١) يشير شيشرون في هذه الفقرة إلى أحوال السياسة الرومانية المحزنة ، وإبعاده عن مجالس الدولة وسائر الوظائف الرئيسية في الحكومة — أنظر ترجمته في مقدمتنا للترجمة العربية .

إتيانه ، إذا واتهذا كره التي تعى ، والصحيفة التي تحفظ (١)
قد يساورنا العجب لأنواع الأعشاب التي لاحظ الأطباء أنها تنفع ، والجذور
التي تشفى من عضات الوحوش الضارية وأمراض العيون وإصابات الجروح ،
ورغم أن العقل لم يفسر لنا سر قوتها وطبيعتها ، فإن نفعها قد أدى بالناس
إلى استخدامها فى شئون العلاج ، وتمجيد من اهتدى إلى اكتشافها (٢)
والآن ، هيا فلنعرض أمثلة تشبه موضوع التكهن شها قوياً ، وإن
اعتبرت خارج نطاقه (٣)

(كثيرا ما ينذر البحر بهبوب العواصف ، عند ما تأخذ مياهه فى الارتفاع
فجأة ، وعند ما تحاول الصخور الشهباء المغطاة بالجليد والملح ، أن تجيب البحر
معلنة نبوءاتها فى أنغام مزعجة ، وعند ما يهب الريح مدوياً من قمم الجبال
الشاهقة ، ويشتد صفيره كلما اصطدم بالصخور المحيطة بالبحر) .

٨ — إن كتابك . «النذر» (٤) حافل بمثل هذه الزواجر المنبئة ، ولكن
من الذى يستطيع أن يسبر غور أسبابها ، ومع هذا فإن « بويتوس » Boethus
الرواقى (٤) قد حاول أن يهتدى إلى ذلك ، وقد وفق إلى حد أنه شرح ظواهر
البحر والسماء ، ولكن منذ الذى يستطيع أن يكشف لنا عن السبب الذى
يكفى فى بيان السر فى وقوع الظواهر التالية :

(١) فى سياق الكلام شىء من الاضطراب ، ويظهر هذا فى النسخة اللاتينية وغيرها
من نسخ الإنجليزية وفرنسية .

(٢) كان الإغريق يستبشرون خيراً إذا صاحت الطيور أو غردت عن عين من يشاهدها ،
ويشاءمون إذا كانت عن يساره . أما اللاتين فكانوا على عكس ذلك (جارنييه) وانظر
الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الثانى وكذلك آخر الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب
نفسه . ثم ما قلناه فى فن العيافة فى كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » .

(٣) الأبيات التالية ، والتي سترد فى الفقرتين الثامنة والتاسعة مقتبسة من ترجمة
شيشرون لـ : Deiosemeia of Aratus (لوب) .

(٤) ترجم « شيشرون » هذا الكتاب شعراً عن « أراتوس » Aratus من اليونانية
إلى اللاتينية (ديماريه) .

تردد طيور البحر الزرقاء بجناجرها المرتعدة نذرها أثناء فرارها من خليجان المحيط المصطنعية، وهي في تنافر وهياج، مهددة في ارتعادها معلنة بأن الزوابع توشك أن تثور حاملة في طياتها الأهوال، وعند ما تحول آلهة الفجر الصقيع إلى ندى، كثيرا ما يرسل البلبل من صدره نذر الشر، ويتوعد ويحار بشكواه المتصلة، وكثيرا ما ترى الغراب الأسود في تجواله حائرا على الشاطئ يغمر في الماء عرفه، كما تقابل الأمواج عنقه)

٩ — إن هذه الشواهد لا تكاد تخطئ أبدا، ومع هذا فانتا لا تعرف السبب الذي من أجله هي كذلك.

(وأنتن ياسا كنات المياه الجلوة، تستطن معرفة هذه الشواهد، عندما يرتفع صياحكن في ضجيج خلو من المعاني، وتهززن النافورات والبرك بنعيقكن السخيف).

فماذا الذي يستطيع أن يفرض أن الضفادع قادرة على ذلك...؟ ومنغ هذا فان لها بطبيعتها ملكة ما، بها تشعر بما ينتظر أن يقع، وهذه الملكة واضحة في ذاتها (وضوحاً ملحوظاً)، ولكنها غامضة (أشد الغموض) أمام العقل الإنساني.

(والثيران ذوو الأظلاف اللينة تتجه بعيونها نحو ضوء السماء، وتتنسم بخياشيمها، الرطوبة من الهواء).

ما دمت أعرف ما ذا يحدث، فاني لا أستفسر عن السبب الذي يؤدي إلى حدوثه، فإن شجر العلك (المصطكا) ذو الخضرة الدائمة يكبر ثلاث مرات وتتفتح براعمه عن ثمارها ثلاث مرات، فتكشف هذه الشواهد عن ثلاثة فصول لحرث الأرض!

ولست أستفسر كذلك عن السبب الذي من أجله تزهر هذه الشجرة وحدها ثلاث مرات، أو لماذا تجعل أزهارها في المرات الثلاث على اتفاق مع زمن الحرث، أنا قانع بعلى أنها على هذا النحو تزهر، وإن كنت لا أعرف

لهذا سيبا . (واستناداً إلى هذا فإنى) — فيما يختص بكافة أساليب التنبؤ بالغيب — سأجيب نفس الإجابة التى عرضتها بصدد هذه الحالات السالفة الذكر .

١٠ — إني أعرف أثر جذع المحموده ، : Scammony كمسهل ، وأجد ترياقاً للدغة الثعبان فى نبات « أرستولوكيا » واسمه مشتق من كاشفه الذى عرفه فى حلم وقع له — إني أرى ما لهذه الأشياء من قوة ، وحسي ما أرى ، أما لماذا تهبأت لها هذه القوة ، فإنى لا أعلم عن هذا شيئاً ، وهكذا الحال فيما يختص بشواهد الرياح والأمطار التى أسلفت القول بأنها تنذر بما ينتظر أن يقع ، فإنى لست على يقين من أمرها ، ولكنى أعرف قوتها وتأثيرها ، وأدرك هذا وأشهد به ، وكذلك الحال فيما يختص بشقوق الأحشاء أو خيوطها الرفيعة ، إني أسلم بالمعنى الذى تحمله ، ولا أعرف عن سبب هذا شيئاً ، وكفى فى الدنيا من أفراد يقفون موقفى هذا تماماً ، إذ يكاد كل فرد يستخدم الأحشاء فى التنبؤ بالغيب — وهو يحفل تفسير هذه الظاهره فى ضوء منطقته —

ثم هل فى وسعنا أن نشك فى قيمة الصواعق فى التنبؤ بالغيب ؟ .. أليس لدينا الكثير من الأمثلة التى تشهد بإعجازها ؟ .. وأليس يحذر بنا أن نخص بالذكر تلك الحادثة التالية : حادثة تمثال « سومانوس » ، Summanus^(١) الذى يقوم على قمة معبد جوبتر القوى العظيم — وقد صنع تمثاله من الصلصال — عندما أطاحت برأسه صاعقة فاخنتى حتى عز وجوده فى مكان ، فأعلن

(١) وهو غير Boethus « بوشوس » المشائى وقد مات سنة ١١٩ ق . م . ويقول مترجم جارنييه فى تعليقاته إنه وضع بحثاً فى الطبيعة ، وألف كتاباً فى القدر وحاول أن يوفق بين طبيعة الرواقية وطبيعة أرسطو كما حاول أن يبرر — علمياً — بعض غرُوب التنبؤ بالغيب .

(١) اسم إله استعاره قدماء الرومان من « أتروريا » ، وكان يثير العواصف إبان الليل ، وكان الديوت الذى أنشأه « روميلوس » ، يقدم اقرايين حين تزلزل العواصف الأشجار (باشليه وديزوبرى) وانظر شيفرون على هذا المثال فى الفقرة العشرين من الكتاب الثانى .

العرافون بأن الصاعقة قد ألقت بالرأس في نهر التير ، وقد عثر عليه في نفس المكان الذى حدده هؤلاء العرافون . . .

١١ - ولكن أى حجة أو شاهد أستطيع أن أجا إليه ، ويكون أقطع في الدلالة على هذا منك أنت نفسك ؟ لقد استظهرت بمزيد الغبطة الآيات التى كانت ترددها إحدى الآلهات التسع وهى إلهة الفلك . أورانيا Urania^(١) فى الكتاب الثانى من قصيدتك التى تحمل هذا العنوان : عهدى فى القنصلية^(٢) .

١١ - وعلى هذا فلو تأملت آثارك وأشعارك (التى أسلفت اقتباسها) والتى التزمت أنت فى نظمها منتهى العناية والدقة ، أيمكن أن يودى بك هذا إلى معارضة رأيى فى التنبؤ بالغيب ؟

مصرى او منجم بالصادقة فى تفسير التنبؤ :

ولكن ماذا . . ؟ إنك تسأل « كاريادس » عن السبب الذى من أجله تقع هذه الأشياء ، وتستفسر منه عن القواعد التى تساعد على فهمها ، إنى أعترف بأنى لا أعلم من ذلك شيئاً ، أما أنها تقع على هذا النحو ، فأنى واثق بأنك تراها على هذا النحو بنفسك ، ولكنك تقول إنها « محض مصادفات » فهل هى كذلك حقاً . . ؟ أيمكن أن يكون شيء ما ، وليد المصادفة وهو يحمل فى ذاته كل شاهد على أنه حق . . ؟ إن زهرات الرد الأربع تلقى وتقع رمية

(١) Muse اسم يطلق على أية إلهة من الآلهات التسع ، لشعر والموسيقى وغيرها من الفنون ومن : Clio إلهة التاريخ ، Euterpe إلهة الموسيقى و Thalie إلهة الكوميديا ، Melpomène إلهة التراجيديات ، Terpsichore إلهة الرقص و Erato إلهة شعر الحب (الغزل) و Palymnie إلهة الشعر الغنائى والفصاحة ، Urania إلهة علم الهيئة (الفلك) ، Erato ، Calliope إلهة شعر البطولة والملاحم ، أما Urania فهى إلهة علم الهيئة وهى تتمثل فى نوب أزرق ، متوجة بالسكواكب ، ومهما القبة الفلكية وآلات الرياضة ، وهى إلهة مثلى لا تدركها شهوات الجسد وكانت تعبد تحت اسم « فنوس السماوية » (باشليه وديزوبرى) .

(٢) وضع « شيشرون » عن الحوادث التى وقعت لإبان فتصليته ثلاثة كتب شعراً ، لم يبق منها إلا أشنات ، وأم هذه الكتب هو المشار إليه هنا (ديماريه) وقد أهدنا ترجمة الشعر استغافته .

لفينوس^(١) ، فتكون هذه مصادقة ، ولكن أظن أنها محض مصادقة ، إذا كنت في كل مائة محاولة ، تصيب مائة رمية لفينوس ؟ . . .
إن من الممكن للألوان التي تنتثر عفواً على قطعة من الخيش ، أن تكون شكل وجه ما ، ولكن أتصور أن مادة الألوان التي تتفرق سهلاً يمكن أن ترسم الصورة الجميلة لآلهة الجمال في جزيرة كوس Cos . . . هب أن خنزيراً قد استطاع أن يرسم على الأرض بأنفه الطويل الحرف « ا » ، فهل هذا يبرر الظن بأن في وسعه أن ينسخ قصيدة « أندروماك » : Andromache التي وضعها أنيوس Ennius . . . ؟

لقد كان « ثارنيادس » يروي قصة خلاصتها أن صخرة قد انشقت ذات مرة في محاجر « شيان » ، فبرز من انشقاقها رأس الآلهة الطفل « بان » Pan وأنا أسلم بأن هذه الصورة تحمل بعض وجوه الشبه بصورة الإله ، ولكن الشيء الذي لا يرتقى إليه الشك ، هو أن التشابه لا يصل إلى درجة تمكنك من أن تعزوه إلى فنان كاسكوپاس : Scopas ، لأن من الحق الذي لا يحتمل الإنكار ، أن المحاكاة الكاملة لشيء ما ، لا تكون وليدة المصادقة أبداً .

مناقشة الإلهام بكمزب النبوءات أحياناً :

١٣ — بيد أن هذا قد يثير الاعتراض القائل بأن « التنبؤات لا تصدق أحياناً » ، ولكن معذرة ، أي فن — وأقصد بالفن هذا الذي يعتمد على الحدس والاستنباط — أقول أي فن ليس عرضة لهذا الخطأ نفسه ؟ . . . إن مزاوله الطب فن لا محالة ، ومع ذلك فكم من الأخطاء يتعرض لها أهل هذا

(١) يقول مترجم لوبي إن رمية « فنوس » تقع عند تسقط كل من الزهرات الأربع وتعلن على سطحها العلوي عدداً مختلف باختلافها . ويقول « ديماريه » أن زهرات الترد عند القدماء كانت منقوشة على نمو ما هي عليه الآن ، ولسكنهم كانوا يلعبون بأربع زهرات (بدلا من اثنتين) ، وتعلق جاريثيه لا يكاد يخرج عن هذا — وانظر رد شيسرون على هذا المثال في الفقرة الحادية والعشرين من الكتاب الثاني .

الفن . . ؟ وأليس قباطنة السفن معرضين للخطأ أحياناً . . ؟ إن الشاهد على هذا نراه في جيوش الأغريق وقادة أسطولهم الجبار عندما أبحروا من ترواده ، وكانوا كما يقول « با كوفوس » Pacuvius ^(١) :

[يتأملون الأسماك وهى تلعب فى البحر ، فرحين وهم يخلفون ترواده وراءهم ، بل لأنهم لم يستوفوا حظهم من التأمل ، وهكذا هياؤا للوقت أن يمر بهم دون أن يستشعروا الضجر ، وبينما كانت الشمس تميل إلى الغروب ، كان اليم يرتفع غاضباً ، والظلام يتكاثف رويداً رويداً ، والليل يظلم ويمطر مطراً يحجب النظر] .

وهل لا تكون الملاحه فناً ، لمجرد أن الكثيرين من الممتازين من قباطنة السفن وأرباب الملك ، قد تحطمت سفنهم وابتلعتهم المياه . . ؟ وهل يفقد العلم العسكرى قيمته ، لأن قائدا طائر الصيت قد فقد جيشه منذ عهد قريب وولى الأدبار . . ؟ ^(٢) وهل يتجرد فن السياسة من مناهجه وضروب الخدق فى مجاله ، لأن أخطاء سياسية قد وقع فيها مرارا جنايوس پومپى Gnaeus Pompey وماركوس كاتو Marcus Cato وأنت نفسك — مرة أو مرتين . . ؟ كذلك الحال مع تنبؤات العرافين ، بل مع سائر ضروب التكن الذى لا تكون استنباطاته إلا على سبيل الاحتمال ، لأن مثل هذا التنبؤ يعتمد على الاستدلال ولا يتجاوز نطاقه ، وقد يودى إلى الضلال أحياناً ، ولكنه مع ذلك يهديننا إلى الحق فى أكثر الحالات ، لأن هذا التكن الذى يقوم على الحدس وليد الأزل الذى يمتد فى قدمه إلى غير نهاية ، وقد أدركه النمو على مر الزمن حتى أضحت فناً يقوم على تكرار المشاهدات وتسجيل الحوادث

(١) هو شاعر لاتينى كان ابناً لأحدى أخوات « إنيوس » وقد ولد فى « برنديزيوم » فى مملكة بابل على البحر الإدرىاتيكى (ديمارىه) .

(٢) يشير إلى هزيمة « پومپى » على يد قيصر فى « فارسالوس » سنة ٤٨ ق . م . (لويب وجارنييه) .

التي لا يكاد يحصيها العد ، والتي كانت نفس الشواهد تسبق فيها نفس النتائج .

التكهن قبل شيسرون في أيامه :

١٤ — وفي الحق لقد كانت نبوءات الطيرة والفأل وفن العيافة موضع ثقة من الناس ، عندما كنت (أنت) من أهل العيافة^(١) ، إن المشتغلين بهذا الفن من الرومان قد أهملوا شأن الزجر والفأل في أيامنا الراهنة — ومعدرة في هذا التصريح — وإن كان السكيليكيون والباμφليون والبيسيديون والليكيون يمجدون من شأنه ، ولست بحاجة إلى أن أذكرك بصديقنا وضيفنا الجليل ، أشهر الناس الملك « ديوتاروس » Deiotarus^(٢) ، الذي لم يقدم على تنفيذ مشروع قبل أن يستنبي الطالع ، وقد شرع في إحدى المناسبات في رحلة قد اهتم بإعداد خطتها من قبل ، ثم عاد إلى بلده بعد إنذار زاجر عرفه من نسر حلق في الجو ، ثم ظهر أن الغرفة التي كان ينتظر أن ينزل بها إذا واصل رحلته ، قد انهارت في الليلة التالية ، وهذا هو السبب — فيما أنبأني هو نفسه — في أنه كثيراً ما كان يعدل عن إتمام رحلة مضى فيها أياماً .

وبهذه المناسبة أقول إنها كانت كلمة نبيلة تلك التي أعلنها بعد أن رفع عنه قيصر تبعيته ، وخلعه من مملكته ، وأكرهه على أن يدفع غرامة ، اذ قال : « لست آسفاً — مع هذا الذي أصابني — لأن الفأل قد أيد انصالي بيومي ، فبهذا الاتصال وضعت قواتي العسكرية للدفاع عن سلطة مجلس الشيوخ

(١) يقول مترجم لوبيب إن « شيسرون » قد انتخب عضواً في ديوان العيافة ، وأضحى زميلاً لبومي وهورتنسيوس عام ٥٣ ق . م . وأن كوتوس سيبدأ الآن في شرح وجوه التفرقة بين العيافة كما كانت عام ٥٣ — ٦٣ ق . م . وبينها أثناء هذه المحاورة أي عام ٤٤ ق . م — أما ديوان العيافة فهو كلية دينية أقيمت لفن العيافة في روما القديمة وكانت مهمة أعضائها ملاحظة الطيور وتأويل الشواهد توطئة لتنفيذ للمدروعات أو العدول عنها كما تنص على هذا دائرة المعارف البريطانية في مقال : Augur .

(٢) كان « ديوتاروس » من أتباع قيصر في « جالوجرايكيا » وكان ملك أرمينيا الصغرى — وقد ناقش شيسرون هذا النال في العقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الثاني وقد نازل مع « بومي » في « فارسالوس » ، إذ كان صديق الرومان وحليفهم .

والذود عن حرية الرومان، والدفاع عن عظمة الامبراطورية . وقد أحسنت الطيور نصحي حين أشارت علىّ بالتزام الواجب والشرف ، لأنى أقدر ذكرى اسمى ، أكثر مما أقدر الظفر بالغنى والثراء ، وفكرته عن العياقة ، هي الفكرة الصحيحة — فيما يلوح لى —

وثمة حكام يستعينون بزجر الطيور وفألها كما تفعل نحن ، ولكن نبوءاتهم فى هذا مصطنعة متكلفة ، إذ أن كرات العجين الملقاة أمام صغار الكتاكيت المقدسة لتطعم منها ، لا بد أن تسقط من منقارها^(١) ، والفأل الطيب يقع — فيما تنبئنا كتاباتكم أيها العيافون — متى سقطت على الأرض من منقار الكتاكيت قطعة من الطعام ، وأنت — أيها الأخ — تطلق على ما أسلفته من طوابع مصطنعة ، نفس الاسم الذى تطلقه على النبوءات الحرة المألوفة^(٢) وهكذا يؤدى استخفاف ديوان الكهانة بضروب العياقة — فيما يقول دكاتو ، الحكيم متأماً راثياً — إلى إهمال تام وضياح كامل للكثير من أساليب العياقة وطرق الزجر والفأل .

١٥ — وقد كان يندر أن يقدم أهل العصور القديمة على أمر ذى خطر — ولو اتصل بشئونهم الخاصة — دون أن يستشيروا الطير ليعرفوا إن كان سانحاً أو بارحاً ، والشاهد البين على هذا يتجلى حتى فى عصورنا الحاضرة بمثلاً فيما ألفناه من قال الزواج ، وإن كانت قد فقدت معناها الدينى القديم واحتفظت بالاسم وحده . ولا نزال فى أيامنا الراهنة نستخدم فى المناسبات الهامة النظر

(١) كانت الكتاكيت فى مثل هذه الحالات تعلم بحيث تعطى النبوءة المطلوبة — قارن الفقرتين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين من الكتاب الثانى (فىهما مناقشة شيسرون لذلك المثال) (لويب) .

(٢) كانت الكتاكيت تأكل فى شراهة بحيث تتساقط منها قطع الطعام وتصطدم بالأرض ، فيكون هذا فألاً ميموناً — وفى الفقرتين ٣٤ و ٣٥ من الكتاب الثانى شرح للفظ اللاتينى الذى يستخدم فى التعبير عن هذين المعنيين المختلفين ، ويلوح أن « كوتتوس » يشكو لأن هذه الطريقة المتكلفة ليست من طرق التكهن الصادقة ، لأن النتيجة فيها محتومة ولا سبيل إلى تجنبها (لويب) .

في فحص الأحشاء في التنبؤ بالغيب ، وإن كانت اليوم أقل مما كانت في الماض
شيوعاً ، وقد جرت العادة قديماً بأن يستخدموا كذلك التنبؤ عن طريق الطيور
ويأهمل النذر الزاجرة التي لا تلائم مطالبنا ، نعاني ضرراً بليعاً ومن أمثلة
هذا أن « بوبليوس كلوديوس » Publius Claudius بن أيوس كايكوس :
Appius Caecus^(١) وزميله لوكيوس جونيوس Lucius Junius قد فقدوا
أسطولين ضخمين ، لأنهما أبحرا على كره من زجر البارح من الطيور ، وقد
كان هذا نفسه مصير « أجامنون » Agamemnon ،^(٢) إذ بعد أن شرع
الآغريق :

(يرفعون بالصياح حناجرهم مظهرين احتقارهم لنبوءات الكهان ، وعلا
صياحهم حتى غلب الزجر ، أصدر « أجامنون » أمره إلى السفن بأن تمخر
العباب)^(٣).

ولكن لماذا نستشهد بهذه الأحداث القديمة ؟ . إننا نرى ما أصاب
ماركوس كراسوس M. Crassus^(٤) عند ما استخف بنبوءات الطيرة التي
زجرته عما يقصد .

إن Appius الذي كان مراقباً Censor في ذلك الحين . والذي كان زميلك
في ديوان العيافين ، وكان رجلاً قديراً فيما سمعت منك مراراً — قد وصم بالعار

(١) في الحرب اليونانية الأولى عام ٢٤٩ ق . م . قارن شيشرون في الفقرة الثالثة من
الكتاب الثاني من طبيعة الآلهة ، : polyb في الفقرة : ٥٤ من الكتاب الأول (لويب)
وفي كتابي : قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٣٨ — ٤١ (طبعة أولى) بيان عن
موقف جليل لهذا الرجل .

(٢) بعد غزو ترواده (ديغاريه)

(٣) لعله اقتبس هذين البيتين من Dulorestes لوضعه « باكوفوس » (لويب) .
(٤) عندما رحل « كراسوس » من روما ليحارب « البارثيين » فاعترض على رحيله
« جايوس أتيس » زعيم الشعب الروماني وتغنى له السوء (ديغاريه) وفي الفقرة التالية
غموض في النص اللاتيني والترجمات الإنجليزية والفرنسية ، وقد استعنا على ترجمتها بالذكور
زكي محمد حسن .

— فيما نعلم — رجلا شريفا ومواطنا ممتازا هو « جايوس أتيرس » Gaius Attius. وأدانه بتهمة لم يقم على صحتها دليل كاف ، وهي أنه زيف في القول.

وأنا أسلم معك بأن أيوس لم يتجاوز حقوقه كمرقب حين أدان جايوس أتيرس ، إن كان على يقين بأن أتيرس قد أعلن فالأ زائفاً .

ولكن أيوس كان خلواً من كل قدرة في فن العياقة حين ظن أن أتيرس بحمل تبعة تلك المصيبة الفادحة التي نزلت بالشعب الروماني ، وإذا كان هذا هو السبب ، فإن الخطأ لا يقع على عاتق « أتيرس » الذي أعلن بأن الزجر في غير مصلحته ، ولكنه خطأ « كراسوس » الذي عصي أمره ، لأن النتيجة دلت على أن النبوءة كانت صحيحة ، كما سلم بها الكاهن والرقيب معاً ، وحتى إذا كانت النبوءة باطلة لما كانت العلة في وقوع هذه النكبة ، لأن التكهنات المشثومة — ومثل هذا يقال عن الطيرة والفأل وغيرها من الشواهد — ليست السبب فيما يقع من أحداث ، إنها مجرد تكهن بوقوعها إلا إذا أخذت الخطية لاتقائها ، وعلى هذا فإن « أتيرس » بإعلانه تلك النبوءة لم يخلق السبب الذي أدى إلى وقوع النكبة ، ولكنه لاحظ الشاهد الذي ينبيء عنها ، وسارع إلى إعلان « كراسوس » بالنتيجة التي ينتظر أن تترتب على هذا ، إذا استخف بهذا النذير الزاجر ، ومن هذا نرى أن إعلان « أتيرس » Attius للنبوءة المشثومة ، لا أثر له في تحقيقها ، أو إذا كان ذا أثر كما يظن « أيوس » Appius فإن التبعة في هذا لا يحملها من أعلن النذير ، ولكنها تقع على عاتق من أهمله واستخف بأمره .

في تاريخ الكهنة :

١٦ — أرجو أن تنبئوني أيها الكهان عن المصدر الذي أخذتم عنه هذه العصا التي تعتبر أظهر خصائص منصبكم الكهنوتي . . ؟ إنها بغير شك نفس العصا التي حدد بها « روميلوس » النطاق الذي كان يلاحظ فيه الطيور

ويستنبثها المستقبل المحجب ، عندما أقام مدينة روما^(١) وهذه العصا صولجان ملتو مقوس قليلا عند قته ، وبينه وبين البوق مشابه ، ولهذا اشتق اسمه من كلمة لاتينية معناها « البوق الذى ينفخ فيه للبدء بالتحام الجيوش » وقد حفظ فى معبد قسيس إله الحرب ، المقام على تل « بلاتين » ، ورغم أن المعبد قد احترق فإن العصا قد وجدت سليمة لم تصبها النار ب تلف ما . ثم أى مسجل للحوادث قد فاتته أن يذكر تلك الحقيقة التى تقول إن السماء قد قسمت إلى أربع مناطق ، على يد « أتوس ناقيوس » : Attus Navius الذى عاصر « تاركونيوس برسكوس Tarquinius Priscus^(٢) » ، بعد عصر « روميلوس » ، بأمدة طويل .. ؟ وقد كان « أتوس » لفقره راعياً للخنازير فى شبابه ، وقد افتقد — فيما تروى القصة — أحد هذه الخنازير ، فنذر بأن يقدم للآله — كقربان — أكبر عذق عنب فى كرمه ، إن وجد الخنزير ، فلما عثر على الخنزير ، وقف

(١) يقول مترجم لويب إن هذا النطاق كان يسمى : templum ويقول Livy فى الفقرة السادسة من الكتاب الأول أن « روميلوس » قد اتخذ « بلاتين » Palatine مكاناً لاستنباء الطيور ، أما ريموس فكان مكانه « أفنتين » Aventine وقد جرت العادة بأن يكون المكان بقعة فى السماء . ويقول « ديماغريه » إن تقسيم المناطق وتجزئتها كان عرفاً شائعاً عند أهل العيافة فى روما القديمة ، كانوا يعتزمون أن يستنبثوا الطيور ، فكانوا يجزئون بمصامم الأفق إلى أربع مناطق أو ثمان أو ست عشرة منطقة ، ليحددوا من أى هذه المناطق يصدر الزجر أو القأل وتقول دائرة المعارف البريطانية فى مادة Augur : إن العياف كان يحدد بمصامم المكان المقدس الذى كان يجرى فيه مشاهدته [وهو templum كما قلنا] فإذا انتصف الليل وهدأت الرياح ، اعتلى العياف ربوة لتتسع بهذا رحاب نظره . ويحضره فى هذا الحاكم . فإذا أقيمت الصلاة وقدمت القرابين ، حدد العياف نطاقاً فى السماء ليجرى فيه ملاحظاته ، وعلى الأرض ليقم عليه خيمة ، ثم يجلس مغطى الرأس ويلتمس من الآلهة شاهداً يكشف عن يمن المشروع أو شؤمه ، ثم ينتظر انكشاف هذا الشاهد ، فإذا انكشف الشاهد أعلن العياف ما رأى ، وكان على الحاكم أن يعمل فى حدودها . وقد ناقش شيشرون هذا المثال ، والمثال الذى يليه فى الفقرة الثامنة والثلاثين من الكتاب الثانى .

(٢) أحرق أهل الغال فى عام ٣٩٠ ق . م هذا المعبد ، عندما اغتصبوا المدينة ، وقد احترق كل ما كان يحويه المعبد إلا هذه العصا . إقارن Val. Max 1, 1. Plut, Livy V, 41.

(لويب) =

وسط الكرم - فيما يقال لنا - وقد ولت وجهه شطر الجنوب ، وقسم الكرم إلى أربع مناطق ، واستنبأ الطيور فزجرت عن ثلاث منها ، فأعاد تجزئة الرابعة - وهي الأخيرة - فوجد - فيما تقول لنا القصة المدونة - كرمًا من العنب كان كبير الحجم إلى حد معجز .

ولم يكد ينتشر أمر هذا الحادث في الخارج ، حتى وفد إليه كافة جيرانه ، وأخذوا يستشيرونه في شئونهم الخاصة ، وبهذا عظم اسمه وحلقت في الآفاق شهرته ، وترتب على هذا أن أرسل الملك « پرسكوس » Priscus في طلبه ، وأراد أن يجرب مهارته كرجل مشغل بالعيافة ، وقال له . « إنى أفكر الآن في أمر مّا ، فنبتى إذا كان الإقدام على عمله ممكناً أو غير ممكن . »

فاستنبأ الكاهن الطيور ، وأجاب الملك على الفور قائلاً إن في إمكانه أن يقدم على عمله . وعندئذ قال الملك « تاركوين » إنه كان يفكر في إمكان قطع مسن إلى قسمين بموسى ، وأمر بإجراء هذه التجربة ، فحملوا الصخرة إلى الجزء الشرقى من السوق الرومانية العامة^(١) وأخذ الملك ورعيته يراقبون الصخرة عند إجراء التجربة ، وإذا بها تنشق بالموسى إلى شقين ، فاستخدم الملك هذا الرجل عيافاً له ، وأخذ الناس يستشيرونه في شئونهم الخاصة ، بل إن القصة المتواترة تقول لنا إن المسن والموسى قد دفنا في نفس المكان الذى وقعت فيه التجربة السالفة الذكر ، ووضعت فوقهما صخرة تقيهما يد العبث .

ولكن فلنفرض أن هذه القصة مختلفة من بدايتها إلى نهايتها ، ولنحرق السجل الذى ضمها ، ولنعتبرها خرافة ، ولنقبل التسليم بما يروقك ويرضيك ، ولا ندعن للقول بأن الآلهة تربطهم بالشئون الإنسانية أية رابطة ، ولكن أعرنى سمعك ، ألا تنهى قصة « تباريوس جرا كوس » Tiberius gracchus التى

(١) كانت تجتمع فيه هيئات الشعب المختلفة للانتخاب أو لغيره من شئون الدولة ، وقد كان لكل مدينة رومانية سوق عامة : Forum يلتقى فيها أهل المدينة للتشاور في شئونهم .

تضمنتها كتاباتك^(١) بأن العياقة والعرافة فنان من الفنون ، فان « جراكوس » قد أقام خيمة^(٢) ونخالف قاتون الكهانة عفوا ، بأن عبر التخوم المقدسة قبل أن يتم استنباء الطيور ، ومع ذلك فقد أقر انتخاب القنصل . إنك تعرف هذه الحقيقة حق المعرفة ، لأنك سجلتها في كتاباتك ، وفوق هذا فان « جراكوس » — وكان من أهل العياقة — قد أيد سلطان التكن عن طريق الطيور ، فاعترف بخطئه ، ورفع الكهان بذورهم من سلطان حرفتهم ، فخفوا إلى مجلس الشيوخ عقب الانتخابات مباشرة ، وأعلنوا بأن المشرف على الانتخاب كان يعمل بغير سلطة صفة شرعية .

تأثير التكن بنوعيه : المسمى والطبيعى

١٧ — أنا إذن متفق مع هؤلاء الذين قرروا وجود ضربين من التكن بالغيب ، يتصل أحدهما بالصناعة^(٣) ويتعد الثانى عنها ، وهؤلاء العرافون الذين يستخدمون الصناعة ، ينزعون — وقد عرفوا المعلوم عن طريق المشاهدة — إلى اكتشاف المجهول عن طريق الاستنباط ، أما الذين يستغنون عن الصناعة ، ولا يستعينون بالعقل أو الاستنباط ، ولا يهتمون بملاحظة الشواهد التى سجلت بعد مشاهدات أجريت ، فانهم يكشفون المستقبل وهم فى حالة تهيج عقلى — جذب — أو انفعال حر غير مقيد ، وكثيرا ماتقع هذه الحال فى أحلامهم وهم نيام ، وقد تقع للذين ينبئون بالغيب وهم فى حالة

(١) قارن « شيمرون » فى الفقرة الرابعة من الكتاب الثانى من « طبيعة الآلهة » (لويب) ثم انظر الفقرة الخامسة والثلاثين من الكتاب الثانى هنا ، فيها مناقعة شيمرون لهذا المثال .

(٢) كانت الخيمة (tabernaculum) توضع فى مركز بقعة يلاحظ فيها الكاهن الطيور ، أما التخوم المقدسة (Pomerium) فكان يراد بها حدود المدينة وكانت تقام فيها الخيمة السالفة الذكر ، فاذا عبر الكاهن هذه الحدود قبل أن تنبئ الطيور سانحة أو بارحة ، وجب أن يتخير مكانا آخر ويبعد فيه استنباءها من جديد (لويب) .

(٣) أطلق مجمع فؤاد الأول لغة العربية كلمة « صنعى » على ما يقابل عند الفرنجة Artificial (fr. ielle) و« طبيعى » على ما يقابل Natural (fr. elle) .

جنة ، وقد وقع هذا لـ با كس Bacis^(١) من أهل بيوتيا و . ابمنيدس Epimenides الكريتي ، وكاهنة إريتريا^(٢) وتدخل النبوءات التي يهبط بها الوحي في هذا النوع الأخير من التكهن (الاصنعى) ، ولسنا نقصد النبوءات التي تكون بطريقة الأنصبة التي جعلت متساوية^(٣) ، بل نغنى تلك التي يتكشف عنها الإلهام ، وإن لم يكن التنبؤ بالأنصبة موضع احتقار في ذاته — متى أيدها القدم ، كما زى في الأنصبة التي تكشف عنها الأرض^(٤) — فيما تقول القصة المتواترة — ومهما يكن من شيء فاني أميل إلى الاعتقاد بأن من الممكن أن تسحب الأنصبة بحيث تستجيب لمطالبنا بقدره إلهية ، ويلوح لي أن الذين يستطيعون أن يؤولوا جميع هذه الشواهد المنبئة عن المستقبل تأويلاً صحيحاً ، يشبهون الآلهة الذين يقوون على كشف الغيب ، ويستطيعون أن يؤولوا هذه الشواهد متى أرادوا ، كما يؤول أهل العلم شعر الشعراء .

فبأى نوع من المهارة القائمة على الدجل ، تحاول أن تقلب الحقائق التي مكن لها الزمان الطويل . . . إنك تقول إن الكشف عن أسبابها قد فاتني ، قد يكون هذا سرا من أسرار الطبيعة الخفية ، إن الله لم يشأ أن يطلعني على أسبابها ، ولكنه مكنني من الإفادة من هذه الطرق التي منحني إياها ، ولهذا فستأخذها دون أن آذن لنفسي بالاعتقاد بأن الشعب الاثروري بأسره قد طاش وضل سبيل الرشاد في اعتقاده في التكهن عن طريق النظر في الأحشاء ، أو أنه جنح عن السداد في إيمانه بالتنبؤ عن طريق البرق ، أو أنه أساء تأويل النذر التي تنبئ عن الشر المقبل ، فإن قرقرة الأرض وزئيرها وزلزلتها ، كثيراً

(١) كان يوجد فيما يقول كليمان الأسكندري ثلاثة كهان يحملون هذا الاسم ، أولها المشار إليه هنا والثاني من أركاديا ، والثالث من بيوتيا ، ولكن الأول أشهرهم . أنظر في تقسيم التكهن ، الفقرة السادسة في الكتاب الأول والحادية عشرة في الكتاب الثاني .

(٢) كانت « هروفايل » Herophile هي الكاهنة التي ذمبت أخيراً إلى « كوماي »

Cumae (لويب) .

(٣) لا نعرف الآن ما يراد بهذه الأنصبة (aequales sortibus) (لويب) .

(٤) كانت هذه ألواحاً من السنديان أقيمت في معبد إلهة الحظ في « براينسقي » ، وكان

عليها كلمات منقوشة (لويب) .

ما لوححت لنا ولغيرنا من الأمم بنذر نكبات توشك أن تقع، فلماذا يسخرون اليوم من العرافين الذين تنبأوا باستهداف الدولة لسلسلة شرور لا تحصى، اعتماداً على أن بغلة — وهي حيوان عقيم بطبعه — وقد ولدت فلوا... (١)٢.

وإني لأرجو أن تنبئ عما تقول في خادثة «تباريوس جراكسوس»، ابن «بوبليوس» وهي المعروفة حق المعرفة، فقد كان رقيقاً وقصلاً مرتين، وكان أعرف الناس بفن العيافة، وحكماً ومواطناً ممتازاً، وقد أمسك — فيما تروى القصة التي خلفها لنا ابنه «جايوس» Gaius بثعبانين في بيته، واستدعى العرافين ليستشيرهم في أمرهما، فأنبأوه بأنه إذا أطلق سراح الذكر منهما، وأدركت المنية العاجلة زوجه لا محالة، فإن أطلق الأنثى منهما، عجل الموت باختطافه — ما في ذلك شك ولا ريب — فرأى أن موته العاجل — وهو طاعن في السن — أنسب من موت زوجته ابنة «بوبليوس» الإفريقي، وقد كانت في مستقبل الشباب، فأطلق أنثى الثعبان، وسرعان ما أدركه الموت بعد ذلك بأيام (٢)...

١٨ — ولكن فلنسخر من العرافين، ولنصفهم بالمسكر والخداع، ولنحتقر حرقهم، ولو دلل «جراكسوس» الحكيم بظروف موته ونتائجه على أنها مهنة خليقة بالتقدير، ولنهزأ بالبابلين كذلك، ولنسخر بأهل التنجيم الذين يلاحظون وهم فوق قمة جبل القوقاز شواهد السماء، ويتتبعون مسالك النجوم مستعينين بالرياضيات، ولنقرر بأن هؤلاء القوم الذين شغلت

(١) في «هيرودوت» ج ٣ ص ١٥١ — ١٥٣ مثال آخر فيما نشير أويب، ويقول مترجم جارتنيه: إن القدماء قد لاحظوا أن الحيوانات التي تحب من نوعين مختلفين — كالبحال — لا تنسل، ويذكر هيرودوت الكلمة عن سكان بابل وفارس فيقول: سنأخذون بلدنا عندما تلد البغال... ولهذا كانت ولادة البغلة نذيراً بشر مقبل لأن هذا مخالف لقوانين الطبيعة في عرف الناس. أنظر الرد على هذا في الفقرة الثانية والعشرين من الكتاب الثاني.

(٢) روى قصة الثعبانين بما يقرب من هذا «بلوتارك» في حياة: Grecque و «فاليريوس مكسيموس» (IV, 6, 1) Plin l'ancien, (Hist. nat VII, ٤٦) (جارتنيه).
وانظر مناقشة شيشرون لهذا المثال في الفقرة التاسعة والعشرين من الكتاب الثاني

سجلاتهم — فيما يقولون هم أنفسهم — أربعمائة وسبعين ألف عام^(١)، قد انطوا على سفه وزيف وتبجح، ولتهمهم بالكذب وعدم الاكتراث بالرأى الذى أيدته الأجيال المتعاقبة، ولنسلم بأن البرابرة جميعاً خداعون أدنياء، ولكن هل نصف بالكذب مؤرخى الاغريق كذلك،...؟

تأثير التنبؤ الطبيعى :

١ — التنبؤ عن طريق الوحي (دلفى) :

وإذا نحن تحدثنا عن النوع الطبيعى، فى التمكن بالغيب، فإن كل امرئ يعرف النبوءات التى أجاب بها وحي الكاهنة « بيثيا »، عن أسئلة « قارون »، Croesus وأهل أثينا واسبرطه، وأهل تيجيا وأرجوس وكورثة. وقد قام « كريسيبوس » Chrysippus بجمع عدد كبير من هذه النبوءات، وأثبت كل حادثة منها بأدلة وافرة، ولكنى لن أعرض للحديث عنها لأنك تعرفها حق المعرفة، وحسبى أن أقول فى دفاعى « إن مهبط الوحي فى دلفى، ما كان يكثر زواره على هذا النحو، ويشتهر إلى هذا الحد، ويزدحم بالقرايين تقدمها الشعوب والملوك من كل صوب، لو أن الناس فى مختلف العصور لم يضعوا صدق نبوءاته موضع اختبار. والآن وقد تغير هذا منذ زمان طويل، واضمحلت شهرته فى الوقت الحاضر، إذ لم يعد له من بُعد الصيت ما كان له قديماً، فانه ما كان يصيب هذه الشهرة فى ماضيه، لو أنه كان غير خليق بالتقدير فى أعلى مراتبه، ومن الممكن أن تكون الأبخرة الأرضية التى كانت تضىء نفس كاهنة « بيثيا »، بالإلهام الإلهى قد اختفت بالتدريج على مر الزمان كما جفت — فيما نعلم — أنهار واختفت من الوجود، بينما غيّر بعض الأنهار الأخرى بالانحراف والدوران مجراه، ولكن فسر اضمحلال الوحي كما

(١) قارن «ديودورس» الصقلى (Bibl 11. p. 118) (٤٧٣، ٠٠٠) و «لاكتانتيوس»

فى (Div Inst VII, ch. 14) ولكن أنظر Pliny «بلاينى» فى (H.N. VII 56) (لوبيج)

ومناقشة شيشرون لهذا فى الفقرة السادسة والأربعين من الكتاب الثانى .

تشاء ، ما دام هذا التفسير يهيء لنا مجالا رحباً للمناقشة ، في أن مهبط الوحي في دلفي ، وقد صدرت عنه نبوءات صادقة مئات كثيرة من السنين ، ولكن بشرط أن تقدم لنا في تفسيرك ما يؤدي إنكاره لا محالة إلى تشويه التاريخ كله

ب — تأييد التنبؤ عن طريق الرؤيا :

١٩ — ولكن فلندع الوحي ، ولتحدث عن الأحلام ، وقد حشد « كريسيوس » — كما فعل « أنتباتر » Antipater^(١) حشداً من الأحلام التافهة وقام بتعبيره وفقاً للقواعد التي وضعها « أنتيفون » : Antiphon للتأويل ، إلى أن أسلم بأن البحث يكشف عن نفاذ النظر عند واضعه ، ولكنه كان يحسن صنعاً لو أنه صور في بحثه نماذج من أحلام أكثر جدية مما عرضه منها ، وقد قدم لنا « فيليستوس » Philistus — وهو عالم دقيق يكتب عن أحداث عاصرها — تلك القصة التالية التي وقعت لأم « ديونسيوس » Dionysius طاغية سيراكوص Syracuse ، ذلك أنها كانت تحمل في بطنها طفلاً — هو ديونسيوس السالف الذكر — فرأت في منامها أنها وضعت إلهاً من سكان الغابات يتمثل في صورة تجمع بين الإنسان والعنزة ، فلما ذكرت هذا الحلم لمعبري أحلام السوء الذين أطلقوا عليهم في صقلية اسم Galeotae^(٢) أجابوا فيما يروى « فيليستوس »^(٣) ، بأنها ستلد ابناً يكون في مقبل أيامه واسع الشهرة في بلاد الأغريق ، ويتمتع بحياة يصحبها التوفيق وتمتد أجلاً طويلاً .

ألا أذكرك ببعض القصص التي وردت في آثار الشعراء من الرومان والأغريق .. ؟ إن الحلم التالي — على سبيل المثال — قد وقع للعذراء

(١) كان أثينا ، وقد أدرك عهد أفلاطون ، وكان يؤول الأحلام ، ويتحدث « لوكيان » في تاريخه عن معبد جزيرة الأحلام ، فيقول إن « أنتيفون » مؤول الأحلام كان كاهن المعبد ورثته (لويب) ويقول مترجم جارييه إنه وضع بحثاً معروفاً عن تأويل الأحلام .

(٢) هم كهان في صقلية ، أطلقوا عليهم هذا الاسم ، لأنهم كانوا يدعون أنهم أبناء « جاليوتس » بن أبولو (ديماربه) .

(٣) قيل إنه من قراطيس وهي في مصر ، وقيل إنه من سيراكوص (ديماربه) .

العفيفة فيما يروى « إنيوس » ، (١) :

(إن ريا سلقيا ابنة نوميتر التي حملت من « مارس » وأنجبت جدى الرومان :
روميلوس وريموس ، قد رأت في منامها ، أن رجلا جميل الطلعة قد حملها إلى
أراض مجهولة (٢) ، وأخذها إلى غابات جميلة ، وشواطئ وأما كن جديدة ...)
٢٠ — أنا أسلم بأن هذا الحلم خرافة ولدها مخ شاعر ، ولكنه لا يتعارض
مع ما خبرناه من أحلام واقعية ، وقد يكون الخيال هو الذى حاك قصة الحلم
التالى ، الذى أزعج بريام Priam. إزعاجا رهيبا (٣) .

(رأت زوجته هكيوبا Hecuba فى منامها أنها وضعت شعلة من نار ، وفسر
الحلم بأنها ستلد باريس — صاحب قصة باريس المشهورة ...)

وأكرر القول بأننا سنسلم بأن هذه الأحلام من نسيج الخيال ، ولنضف
إليها حلم « إينياس » Aeneas الذى رآه مواطننا فايوس بكتور Fabius Pictor (٤)
فى حولياته عن أحداث اليونان ، فان كل ما فعله أو قاساه — فيما يقول
بكتور — قد وقع على التحقيق كما تكهن به حلم رآه .

٢١ — ولكن هيا نستعرض أمثلة أدنى إلى عصرنا عما أسلفناه ، أتجرؤ على
أن تسمى الحلم المعروف الذى رآه تاركوين المتكبر The Proud Tarquin

(١) من حولياته ، وقد كانت العفيفة هى « ريا » أو أخت « نوميتر » وأم
« روميلوس وريموس » ولدتها من المريخ إله الحرب (لوبي وجارنييه) أنظر كتابى
قصة السكفاج بين روما وقرطاجنة ص ٣١ وما بعدها من الطبعة الثانية .

(٢) الإشارة هنا إلى المريخ إله الحرب — قارن Ovid. Fast. III. 13 (لوبي) .

(٣) يرى مترجم لوبي أن صاحب النص غير معروف ، ولكن مترجم جارنييه يقول إن
هذه الأشار من مأساة وضعها « أنيوس » وأن « ريك » و « فاهلن » يظنان أنها
كانت تحت عنوان « الاسكندر » .

(٤) هو « نومريوس فايوس بكتور » وهو تانى اثنين يحملان هذا الاسم « فايوس
بكتور » ، أولهما « كوتوس فايوس » . وقد لقب بكتور لأنه نقش معبد الصحة فى
روما (ديماريه) .

خرافة حاكها الخيال . . ؟ إنه يصنف هذا الحلم بنفسه في آيات أوردها
أكيوس Accius^(١) في قصته المسماه بروتس Brutus :

(رأى في منامه أنه أخذ خروفين أخوين ، فذبح أحدهما ، ولكن الخروف
الثاني قد ألقاه على الأرض وهجم عليه بقرنيه ، فرأى وهو مستلقٍ على
الأرض أن الشمس قد غيرت مجراها) .

والآن انظر كيف أول المعبرون هذا الحلم :

حذر المعبرون الملك من شخص متبادل يحسبه الملك خروفاً ، وقالوا إنه
قد يلقي بالملك من شاطئ مركزه ، أما تغير مجرى الشمس فينبئ عن تغير الحكومة ،
وإن كان تغيراً محمود العاقبة ، لأن الشمس كانت تجري من اليسار إلى اليمين .

الأحلام عند غير الرومان

٢٢ — ولكن فلنعد الآن إلى أمثلة أخرى — من الأحلام التي وقعت لغير
الرومان — فإن هراقليدس من أهل بوتوس Heraclides Ponticus وهو رجل
من أهل العلم ، وأحد تلامذة أفلاطون وحواريه — يقص رؤيا رأتها أم
فالاريس Phalaris فيقول إن الكرى قد عقد أجفانها ، فرأت نفسها تنظر إلى
صور الآلهة المقدسة القائمة في بيتها ، وإذا بتمثال ميركيوري : Mercury
يصب الدم من قارورة في يده اليمنى ، وما اتصل الدم بالأرض حتى رؤى
وكأنه ينبثق منها في غزارة حتى ملأ رحاب البيت ، وقد تحققت هذه الرؤيا
فيما بعد ، بما أبداه ابنها من قسوة خلت من مظاهر الإنسانية .

وهل تراني في حاجة إلى أن أقدم لك من التاريخ الفارسي الذي وضعه
دينون Dinon أحلام الأمير المعروف كايروس Cyrus وتأويل كهنة الأقدمين
لها . . ؟ إليك هذا الحلم على سبيل المثال :

(١) هو « لوكيوس أكيوس » وقد وضع كثيراً من المآسي بعد « باكونيوس »
بقليل ، وقد ذاعت شهرته في قنصلية دكيوس بروتس حول عام ٦٢٥ من تقويم
روما (ديماريه) .

رأى كايروس فى حلم له ذات مرة أن الشمس قائمة عند قدميه ، وقد حاول عبثاً — فيما يقول دينون — أن يمسكها ثلاث مرات ، وفى كل مرة تبتعد عنه وتهرب منه ، ثم اختفت أخيراً ، وأنبأه كهنة الفرس القدامى — الذين كانوا يعتبرون بين الفرس حكماء وعلماء — بأن إمساكه للشمس ثلاث مرات ، ينبئ بأنه سيتولى الحكم ثلاثين عاماً^(١) ، وقد تحقق هذا ، لأنه عاش حتى بلغ السبعين من عمره ، وكان قد بدأ الحكم فى سن الأربعين .

ومن المحقق أن البرابرة بدورهم قد أوتوا القدرة على سبق النظر والتنبؤ بالمستقبل ، إذا صحت القصة التالية التى وقعت للهندي كالانوس^(٢) Callanus إذ بينما كان مشرفاً على الموت ، مرتقياً كومة الخشب التى يحرق عليها جثمانه قال : ما أجله من موت ، إن مصير « هرقل » Hercules قد قدر لى ، إذ عندما يحترق هذا الجسد الفانى ، تجدد النفس النور ، ولما طلب إليه الإسكندر أن يتكلم إن أراد أن يقول شيئاً ، أجابه قائلاً : « أشكرك ، لاشئ سوى أنى سأراك قريباً جداً ، وقد تحقق ما قاله ، لأن الإسكندر قد مات فى بابل بعد أيام قليلة .

لقد ابتعدت عن الأحلام قليلاً ، ولكنى سأعود إليها بعد حين ، إن كل امرئ يعرف أن معبد « ديانا »^(٣) ، فى أفسوس ، قد احترق فى نفس الليلة التى ولدت فيها « أوليمپياس » Olympias ابناً للإسكندر ، وأن كهنة الفرس

(١) هذه هى مدة الحكم فيما يقال عادة ، ولكن البعض يرون أنها واحد وثلاثون عاماً ، فارن هيرودوت ج ١ ص ٢١٤ و Sulpic Sev. H.S, 11,9 (لوبي)

(٢) قيل إنه كان برهانياً ، وأنه أصيب بنفس حاد وهو فى الثالثة والثمانين من عمره فاعتزم أن يموت على مرأى من الجماهير فوق كومة وقيد ، وقد أحضر الإسكندر جيوشه لشهود هذا المنظر تكريماً له (ديماريه) .

(٣) هى إلهة الخصوبة ، وهى أكثر ما تكون شهاً بأزيس المصرية ، أما « ديانا » الإيطالية فهى إلهة النور وهى ابنة « جوبيتر » و « لاتون » وهى إلهة الصيد ترسل الأوبئة والجذب ، وتنقذ وتنق ما ، وهى تقابل « آتميس » عند الإغريق .

القدامى ، قد أخذوا يصبحون مطلع النهار قائلين : لقد ولد ليلة أمس ، شقاء مهلك ينتظر آسيا — والآن دعنا من الحديث عن الهنود وكهان الفرس القدماء .

٢٣ — فلنعد إلى الأحلام ، يقول « كويليوس » ، Coelius (١) إن هانيبال قد همّ بالاستيلاء على عمود ذهبي في معبد « جونو » ، Juno في « لا كينيوم » ، وهو رأس في جنوبي إيطاليا — وإذا كان في شك عما إذا كان هذا العمود من ذهب مصمت أو مغطى بقشرة من الذهب ، فقد ثقب فيه ثقباً ، فالفاه ذهباً خالصاً ، وعندئذ اعتزم أن يغتصبه ، ولكن « جونو » قد تبذرت له في مساء هذا اليوم في رؤيا ، وحذرتة من مغبة الإقدام على هذا العمل ، وهددته بأن تفقده عينه السليمة إن أقدم على فعلته ، فلم يهمل هذا الرجل الذكي ذلك النذير ، بل لقد أمر بأن ينتزع بعض الذهب من ثقب العمود ، وتصنع منه صورة عجل توضع في قفته .

ونرى قصة أخرى عن « هانيبال » وضعها باليونانية « سيلنوس » ، Silenus الذي يحتذيه « كويليوس » ، والذي تناول حياة هانيبال بالدراسة الدقيقة ، ذلك أنه بعد استيلائه على « سغنتم » ، Saguntum قد رأى في حلم له أن چورپتر قد استدعاه إلى مجلس شورى الآلهة ، فلما بلغ المجلس . أمره « چوپتر » ، بأن يشعل نار الحرب في إيطاليا ، وقدم له أحد آلهة المجلس مرشداً له ، وقد اهتدى به « هانيبال » ، عند ما بدأ مسيره بجيشه ، وقد حذر هذا الإله « هانيبال » من أن يلتفت وراءه ، ولكن « هانيبال » — مدفوعاً بحب الاستطلاع — لم يستطع أن يصبر على ذلك طويلاً ، وتلفت وراءه فعلاً ، فرأى وحشاً مخيفاً ضخماً الجسم تغطيه الثعابين ، يقتلع كل ما يصادفه في طريقه من شجيرات وأشجار وبيوت ، فاستفسر هانيبال في دهشة عمّ يكون هذا الوحش الغريب ،

(١) يشير إليه المؤلف في الكتاب الأول من قوانينه ، باعتباره مؤرخاً من قدماء المؤرخين المتأخرين (ديماريه) .

فقال له الإله : إنه يمثل دمار إيطاليا ، وأمره بأن يمضى فى سبيله قدما ، وألا
يعبأ بما يقع وراءه وفى مؤخرته (١) ...

ونقرأ فى تاريخ وضعه « أجاثوكليس . Agathocles » أن « هملكار »
Hamilcar القرطاجنى ، قد سمع أثناء حصاره لسيراقوص — صوتاً فى الحلم
ينبئ به أنه سيتناول غداءه فى اليوم التالى فى هذه المدينة ، وعند مطلع هذا اليوم
نشب صراع عنيف فى معسكره ، بين كتائب القرطاجيين وحلفائهم من
أهل صقلية ، فلما رأى أهل سيراقوص هذا ، قاموا بهجمة مفاجئة على المعسكر
وحملوا « هملكار » حيا ، وهكذا تحققت الرؤيا بهذه الحادثة .

إن التاريخ حافل بمثل هذه الأحداث ، وحياتنا اليومية مليئة كذلك
بنظائرها ، ولكن دعنى أقص عليك حادثة أخرى :

كان ابن « كوتتوس فايوس . Quintus Fabius » : وهو « بوبليوس
دكيوس » : Publius Decius صاحب الشهرة الطائرة أول من كان قنصلا
من أفراد هذه الأسرة ، وقد كان حاكما عسكريا ، فى قنصلية « ماركوس
فاليريوس » M. Valerius (٢) و « أولوس كورنيليوس » Aulus Cornelius
فى الوقت الذى كان فيه جيشنا يعانى من حملة مريرة قام بها « السمنيون »
Samnites وقد دفع « كوتتوس » بنفسه إلى ميدان القتال بكل جرأة ،
فنصحوا له أن يكون أكثر حيلة وحذرا ، ولكنه أجابهم — فيما يقول
التاريخ — قائلا :

« لقد رأيت فيما يرى النائم أن موتى وسط الأعداء سيكسبني صيتاً مخلداً ،
ورغم أنه قد نجا بنفسه حينذاك ، وأنقذ الجيش من الأخطار التى كانت تحوطه ،
فانه عند ما تولى القنصلية بعد أعوام ثلاثة ، وقف للوت حياته (٣) ، فهجم
مكتمل السلاح على خط قتال اللاتين ، وأدركت الهزيمة أعداءه وأصابهم

(١) قارن كتابى « قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة » ص ١٠٧ — ١٠٨ طبعة أولى

(٢) فى عام ٢٤٣ ق . م (لوبيس)

(٣) أنظر « ليني » ج ٨ ص ٩ عن احتفالات التكريس (لوبيس)

الدمار من جراء هذا الإقدام ، فكان موته جليلاً ، حتى التمس ابنه أن يصيب هذه الشهرة نفسها ، ولكن فلتنمض الآن — إن أذنت — إلى التحدث عن أحلام الفلاسفة :

أهمرم الفلاسفة :

٢٤ — ونقرأ في أفلاطون أن سقراط عند ما كان في سجنه ، قال في حديث له مع صديقه « أقريطون » Criton ستدركنى المنية بعد أيام ثلاثة ، فقد تراءت لى فى الحلم سيدة فتانة الجمال وهتفت باسمى ، وأنشدتنى هذا البيت عن هومير ^(١) :

سيطلع عليك بالبشر ، فجر اليوم الثالث وأنت آتذ على شاطئه
فثيا (Phthia) .

وينبئنا التاريخ بأن مصرعه قد حقق هذه النبوءة ، ويسجل تلميذ سقراط وهو اكسانوفون — وأى رجل هو — تلك الأحلام التى تراءت له أثناء قتاله مع « كايروس » الأصغر ، وكيف كان تحققها رائعاً ^(٢) ، فهل تزعم أن اكسانوفون Xenophon كذاب أو مصاب فى عقله . . ؟

وأرسطو ، الذى وهب عقلاً منقطع النظر ، يكاد يشبه العقول التى تمتاز بها الآلهة ، هل أخطأ أو حاول أن يخدع غيره فيما يرويه عن صديقه إيدموس

(١) أشار مترجم اويب الى أن هذا مذكور فى الالباذة ج ٩ ص ٣٦٣ ، وإلى أن Phthia مدينة فى تساليا . وهى تعبر عند سقراط عن مقره فى السماء . وروى مترجم جارنييه أنها وطن « أشيل » وأن حلم سقراط مذكور فى محاوره « أقريطون » . وفى الحديث نوع من اللعب بالألفاظ يدركه الملون باللغة اليونانية ، وقد أشار الأستاذ « تايلور » فى مادة : أحلام Dreams فى دائرة المعارف الدين والأخلاق إلى أن الحلم السالف شبيه بحلم فيثاغورى .

(٢) « اكسانوفون » فى : Anab iii, 1.11; iv, 38. أ. مترجم جارنييه فقد ذكر أن « اكسانوفون » فى الكتاب الثالث فى الفقرة الأولى من الكتاب المشار اليه قد روى عن نفسه أنه رأى حلماً ينبئ عن الخير فى جلته ، رغم أنه استيقظ منه مذعوراً وربما كان ينتظر أن يصيبه خطر دائم ، ولكن « زيوس » جنبه هذا الضر وربما كان للحلم مغزى آخر لا ينبئ عن هذا الخير كله فيما يقول اكسانوفون — ولكن كوتوس لا يعبأ بهذا الشك .

Eudemus^(١) القبرصى . . ؟ فقد قال عن هذا الصديق إنه كان ماضياً في طريقه إلى مقدونيا ، ثم بلغ « فرای » ، Pherae وهي مدينة طائفة الصيت في « تساليا » ، ولكنها كانت تئن تحت حكم الإسكندر^(٢) الطاغية الجبار ، وهناك اعتراه مرض بغيض يئس الأطباء من شفائه ، وقد رأى إبان مرضه رؤيا ظهر فيها شاب . فاتن الجمال ، وأنبأه بأن شفاه سيكون عاجلاً ، وبأن الإسكندر الحاكم الظالم سيختطفه الموت بعد أيام قلائل . أما هو — « إيدموس » — فسيعود إلى وطنه بعد خمسة أعوام . وفي الحق لقد تحققت النبوءتان الأوليان على عجل كما قرر أرسطو ، فنقه « إيدموس » من مرضه ، وقتل الطاغية أخو زوجته . . وبعد انقضاء الخمس سنوات كان يأمل أن يعود من صقلية إلى قبرص ، اعتماداً على الرؤيا التي وقعت له ، ولكنه قتل في معركة نشبت أمام « سيراكوس » واستناداً إلى هذا قالوا في تأويل الحلم ، إن المراد به أن تعود النفس إلى وطنها بعد أن تفارق الجسد .

ولنصف إلى شهادة الفلاسفة شهادة رجل واسع العلم ، وشاعر إلهي مطبوع ، ونعني به « سوفوكليس » Sophocles فقد سرق من معبد « هرقل »^(٣) طبق ذهبي ثمين ، فظهر الإله نفسه في رؤيا رآها « سوفوكليس » وأنبأه عن السارق ، ولكن « سوفوكليس » قد أهمل أمر هذا النبأ الذي تراءى له مرتين ، فلما عاوده الإله بعد هذا ، مضى إلى المحكمة العليا للأثينيين Areopagus^(٤) ورفع

(١) فقد كتابه « إيدموس » قارن : Plut Dion, 22. (لوبي)

(٢) قتله أخوة زوجته حول عام ٣٥٠ ق . م قارن Xen Hellen VI. 435. (لوبي)

(٣) ينبغي أن نميز بين هرقل البطل ، وهرقل الأله الذي عرفته الديانة الفينيقية ، وقد كان « هرقل » علماً على كثيرين عند القدماء . وقد قرر « ديودور » أنهم ثلاثة وقال « شيفرون » أنهم ستة ، وزعم قارون : Croesus أنهم ثلاثة وأربعون والأله « هرقل » فيما تقول الأساطير ، هو ابن جوبيتر و « الكمان » (باشليه وديزوبري)

(٤) « الأريوپاجوس » محكمة أثينا ، وكانت تنعقد ليلاً ، ولا تقبل مرافعة المحامين مخافة أن يتأثر القضاة بقصاحتهم ، وهذا النظام يذكرنا بمحاكم مصر القديمة ، وكانت إن قبلت دفاع المحامين حذرتهم من استخدام أساليب الفصاحة ، وغيرها من الطرق التي تنجح بالقضاء إلى غير العدالة . وكانت محكمة أثينا إلى عهد « سولون » أرستقراطية ثم أصبحت على يده تتولى الإشراف على الأخلاق والعادات ونحوها ، وكانت أول أمرها تبحث في القضايا الجنائية ثم اختصت بعد هذا بشئون الإفتاء ، أما عدد قضاتها فكان يتغير في كل عام — [باشليه وديزوبري] .

الأمر أمام القضاة، فأمر هؤلاء بالقاء القبض على الرجل الذي ذكره «سوفوكليس»، وقد اعترف المدعى عليه بجريمته بعد التحري، وأعاد الطبق المسروق، وهذا هو السبب الذي من أجله سمي المعبد بمعبد «هرقل النبي».

الروم في المصادر الرومانية :

٢٥ - ولكن لماذا أسهب في تصوير ما سجلته المصادر الإغريقية، مع أن الأمثلة المستمدة من تاريخنا، تروقي أكثر مما تروقي أمثلة تلك المصادر؟ وهاك حلماً عرض له جميع مؤرخينا من الفايين Fabii والجيليين Gellii قديماً، وكويليوس Coelius حديثاً جداً، وذلك أنه عند ما كان يحتفل إبان الحرب اللاتينية لأول مرة بالألعاب النذرية العظيمة، دعيت المدينة فجأة إلى حمل السلاح، فتوقف الاحتفال بهذه الألعاب، ثم اعتزموا أن يعيدوها أخيراً، ولكن حدث قبل أن يبدأوا مزاولتها، وعند ما كان الناس يأخذون أماكنهم، أن اقتيد عبد يحمل نيراً إلى الملعب، وضرب بالمقارح^(١)، وبعد هذا رأى أحد العامة من الرومان حلماً تراهى له فيه شخص قال له إنه غير راض عن مرشد الألعاب، وأمره بأن يبلغ هذا إلى مجلس الشيوخ، ولكن هذا الروماني العامى لم يجرؤ على أن ينفذ ما أمر به، فكرر الطيف هذا الأمر مهدداً صاحب

(١) الألعاب النذرية هي التي كان يأمر بها أحد الحكام لتنفيذ نذر تقدم إلى أحد الآلهة في الوقت الذي كان يتهدد المدينة خطراً، وبلوح لنا أن «شيشرون» كان يقصد من هذه الألعاب تلك التي كان يجريها ويقوم بها الدكتاتور «إ. بوسوميوس توبرتوس» عام ٤٣٤ ق. م. فيما يروى مترجم جارفيه. وأشار «ديماريه» إلى أن الاحتفال بالألعاب كان يبدأ دائماً بدخول «بهاوان» والمراد بالدليل هنا هو — فيما تقول لويب — نفس العبد المشار إليه في النص، وقد كان الاحتفال يبدأ بضرب العبد حول الملعب، وكان هذا الروماني العامى «ت. أنتيوس». انظر Livy 11. 36, Val. Max. 71. 4. ويضيف مترجم جارفيه مصادر أخرى لهذه القصة : Tite, Live, 11. 36, Macrobe, Saturnales 1, 11, 3—5. Denys d'Halicarnasse VII, 68, Vie de Coriolan. وإن وجد خلاف في رواية القصة في هذه المصادر، واسم الفلاح الذي وقع له هذا الحلم المذكور بعد قليل هو «تيتوس» لا «ينيوس» أو «لاتينوس».

الحلم بالأذى إن أهمل طاعته ، ومع هذا فإن الروماني لم يجرؤ على طاعته ، وبعد هذا مات ابنه ، وتكررت الرؤيا نفسها للمرة الثالثة ، وعندئذ اعتراه مرض ، فأنبأ أصدقاؤه برؤياه ، وتحت تأثير نصيحهم حمل إلى دار مجلس الشيوخ على محفة ، وقص رؤياه على أعضاء المجلس ، وسرعان ما استرد صحته ، وعاد إلى بيته تحمله قدماه دون حاجة إلى التوكؤ على غيره^(١) ، ولهذا اعتقد المجلس في صدق رؤياه ، فيما تقول لنا القصة المتواترة ، وأعاد الاحتفال بالألعاب مرة أخرى .

وقد أنبأ « جايوس جرا كوس » ، الكثيرين — فيما يروى « كويليوس » نفسه — بأن أخاه « تباريوس » قد تراءى له في حلم عند ما كان يلتبس أن يعين في وظيفة الحاكم المنوط بالأموال العامة في روما — وكيل الخراج — وقال له : « مهما حاولت أن ترجى قضاءك ، فانك مُلاق نفس الميتة التي لقيتها أنا لا محالة » ، وقد وقع هذا قبل أن يصبح Gaius تريون العامة . ويقول « كويليوس » ، إنه سمع هذا من « جايوس » ، وأن هذا قد ردد النبأ لكثيرين غيره ، فهل تجد ما هو أدعى لليقين وأدل على الصدق من هذه الرؤيا ؟ ..

٢٦ — ولكن أرجو أن تنبئني عن استطيع أن يؤول الحلين التاليين اللذين يطيل الحديث عنهما كتاب الرواقيين . . . ٤ . . والحلم الأول يدور حول « سيمونيدس Simonides » ، الذي رأى مرة جثة رجل مجهول مسجاة فدقها في جوف الأرض ، ولما اعتزم أن يرحل بعد على ظهر سفينة ، تراءى له في رؤيا طيف هذا الميت وأنذره ألا يقدم على السفر ، لأنه إن أبحر لاقى حتفه في السفينة ، ومن أجل هذا عدل عن عزمه ، وأما الآخرون الذين أبحروا فقد لاقوا حتفهم جميعا .

أما الرؤيا الثانية فهي شائعة شيوعا واسع المدى ، وخلاصتها أن صديقين من « أركاديا » قد كانا في رحلة ، ووفدا على « ميغارا » ، واستقر أحدهما في فندق

(١) هذه مسألة يحسن تفسيرها السيكولوجي ، الملمون بأثر الأيحاء والاستهواء الذاتي .

ومضى الثانى إلى بيت صديق له، وبعد أن تناولا طعام العشاء ومضيا إلى الفراش، رأى الثانى فى سكون الليل حلما ترمى فيه زميله، وهو يتوسل إليه أن يمد له يد العون، لأن صاحب الفندق يدبر خطة لقتله، ورؤّع الرجل من هذا الحلم أول الأمر فاستيقظ، ولكنه ثاب إلى سكينته بعد، ولم ير شيئا يدعو للقلق فمضى إلى فراشه، ولما شرع فى النوم عاد الطيف نفسه، وقال له قد ضننت بمعوتى وأنا حى، فأتوسل إليك الآن أن تمنع بقاء جثتى بغير دفن، لقد قتلنى صاحب الفندق، وألقى بجثتى فى عربة، وغطاها بروث الحيوانات، وإنى أضرع إليك أن تكون فى الصباح عند أبواب المدينة قبل أن تبرحها العجلة.

وقد اقتنع الرجل بالرؤيا الثانية اقتناعا حمله على أن يقابل سائق العربة عند أبواب المدينة صباحا، ولما استفسر منه عما يحمل فى عربته، أدرك السائق العرب، فنقل الرجل جثة صديقه من العربة، ورفع أمر الجريمة إلى السلطات، ولقى صاحب الفندق عقابه (١).

٢٧ — فأى حجة أقطع فى الدلالة على وجود الرؤيا التى تكون صدق

الإلهام الإلهى من هذا الحلم — السالف — ؟..

ولكن لماذا نلتمس فى ثنايا التاريخ القديم ما يوضح فكرتنا ؟.. لقد رأيت حلما كثيرا ما قصصته عليك، ووقع لك حلم آخر كثيرا ما قصصته على، ذلك أنى كنت حاكما على آسيا (٢)، فرأيتك فى حلم ممتطيا صهوة جواد، وقد وليت وجهك شطر شاطئ نهر كبير، ثم غصت فجأة إلى قاع النهر واختفيت عن الأنظار، فتولانى الروح وأدركنى الخوف، ولكنك عدت إلى الظهور بعد لحظة ممتطيا الجواد نفسه، ثم صعدت إلى الشاطئ المقابل، وقد علا البشر حياك، وهناك التقينا وعائق كل منا صاحبه، أما المعنى الذى ينطوى عليه هذا

(١) قارن هذا فى الفقرة الخامسة والستين من الكتاب الثانى .

(٢) فى عام ٦١ ق . م قارن : Ad.lit. 1. 15 ولم يكن « كوتوس » قنصلا بل

كان حاكما على القنصل فى المرتبة « لويب » .

الحلم فقد أبانه لي في يسر أولئك المهرة في تعبير الأحلام في آسيا ، فكان تكهننا بالحوادث التي وقعت فيما بعد^(١) .

والآن إلى حلمك ، وقد سمعته منك بالطبع ، ولكنني سمعته مرارا من مولانا سالوستيوس Sallustius^(٢) . ذلك أنك إبان نفيك الذي كان مجيدا لنا وشوفا على الجمهورية ، قد وقفت انتقاء لظلام الليل عند بيت ريني في سهل أتينا ، وبعد أن أصابك أرق شطرا طويلا من الليل ، غشيك نوم عميق ، ورغم أن رحلتك كانت تتطلب الإسراع ، فإن « سالوستيوس » قد طلب إلى مرافقيه التزام الهدوء ، ولم يأذن لأحد بإزعاجك إبان نومك ، ولكنك استيقظت حول الساعة الثانية ، وقصصت عليه رؤياك ، وقد بديت فيها حزينا تتجول في أما كن قد أبدبت من السكان ، وقابلت « جايوس ماريوس » Gaius Marius بصفائه التي كانت حزمة من العصي تلفت حول بلطة^(٣) ، واستفسر منك عن سر حزنك ، فقلت له إنك نفيت من وطنك عنوة ، فطلب إليك ألا تدع للهموم سيلا إلى قلبك ، وأخذك من يمينك ، وسلمك إلى أقرب حاجب روماني ليقودك إلى معبد الذكرى^(٤) قائلا ، إنك ستجد في رحابه الطمأنينة والأمان ، وعندئذ هتف « سالوستيوس » — فيما يقول هو نفسه — قائلا لك : « إنك ستعود من منفاك عودا سريعا محمودا ، وقد كنت مغتبطا

(١) يشير إلى نفي « شيشرون » عام ٥٨ ق . م بإيماز من كاودوبوس وعودته المظفرة عام ٥٧ ق . م فيماروي مترجم اويب ، وكان حكم « كوتوس » في آسيا في الأعوام ٦٧ — ٦١ ق . وقد نفي شيشرون أثناء هذه الفترة فيما يقول مترجم جارفنييه ، وقد ناقش شيشرون هذا المثال في الفقرة الثامنة والستين من الكتاب الثاني .

(٢) كان مولى « شيشرون » وقد أطلق هذا مصراحة . وقد تبع شيشرون في منفاه (لويب وديماريه) .

(٣) كشاهد على الانتصار (لويب) .

(٤) كان هذا هو المعبد الذي أقامه « ماريوس » احتفالا بانتصار « جوبتر » على الـ Cimbri عام ١٠١ ق . م وقد اجتمع في المعبد مجلس الشيوخ عندما أقر عودة شيشرون من منفاه (لويب) . أنظر مناقشة شيشرون لهذا المثال في الفقرة السابعة والستين من الكتاب الثاني .

بهذا الحلم — فيما يقول أيضا — وسرعان ما قرر المجلس في معبد «ماريوس» قراره المجيد بصدد عودتك، «واقفة القنصل» — وقد كان رجلا واسع الشهرة جديرا بكل تقدير — واستقبل قرار العودة بهتاف لم يسبق له نظير في قاعة حافلة مزدحمة. وقد نبئت بأنك حين سمعت هذا قلت: ليس ثمة برهان أغرب من هذا في الدلالة على الرؤيا التي يوحى بها الإلهام الإلهي.

نشأة الرؤيا الصادقة ومالوت الحسى في رأى الفلاسفة:

٢٨ — ولكن ربما قيل في الاعتراض على هذا: «إن الكثير من الأحلام لا يصدق، ولعل الأخرى أن يقال إن المعنى الذى يتضمنه هذا النوع من الأحلام خفى علينا، ومع هذا فلنسلم بأن بعض الأحلام لا يصدق، ولكن لماذا نكثر من الطعن في الرؤيا الصادقة...؟» وهى فى الواقع كثيرا ماتقع إذا استسلمنا للنوم ونحن فى ظروف ملائمة، أما إذا شرعنا فى النوم ونحن مثقلون بالطعام والشراب، فإن أحلامنا تضطرب وتفسد، أنظر ما يقوله أفلاطون فى جمهوريته على لسان سقراط (١):

رأى أفلاطون:

عند ما يستسلم المرء للنوم، وتكون القوة الناطقة من نفسه فى تراخ وبلادة،

(١) أفلاطون فى بدء الكتاب التاسع من الجمهورية ص ٥٧١ (لويب) ولكن فى تعليقات مترجم جارنييه ما ينبغى ذكره فى هذا الصدد، يقول إن أفلاطون يبحث فى هذه القطعة الفكرة القائلة بأن الشهوات الضيفة التى يشبعها الإنسان إبان يقظته — وهذا يذكرنا برأى «فريد» — تخمد أثناء نومه — متى أوى إلى فراشه «سرقا فى طعامه وشرابه»، أما إذا قامت العفة — أى ضبط النفس — فى ظروف ملائمة فهلا يمكن للمرء أثناء نوم الجسد أن يحظى بالجلاء *Lucidité* ؟

وأول ما ينبغى ملاحظته — فيما يقول صاحب هذا التعليق — أن ترجمة «شيشرون» ناقصة وتعوزها الدقة... إن «أفلاطون» لا يقول بأن النائم ستقع له أحلام هادئة وصادقة فى تكهناتها، وإنما يقول إن الصور التى ينتظر أن تبدو له فى الحلم لن تكون مخالفة للقوانين، بل متمشية معها، وأن القوة الناطقة فى نفسه ستربط بالحقيقة ارتباطا كليا، فهل معنى هذا أن هذا الجزء الناطق مستقبيا له معرفة المستقبل ؟ إن هذا التفسير — فيما يلوح لنا —

وتسكون القوة الشهوية التي تنطوى على الفظاظة والوحشية قد أفرطت في التهام الشراب وازدراء الطعام ، فإن هذه القوة الأخيرة تطغى على القوة الناطقة وتدفع بالمرء إلى النوم دون عائق ، وفي مثل هذه الحال تكون كل رؤيا تتمثل أمام الخاطر خلوا من المنطق ، فيحلم النائم بأنه يزنى بأمه أو يفسق في رجل أو إله — وكثيرا ما يفسق في الحيوانات — أو قد يحلم بأنه يقتل إنسانا ويلطخ يده بسفك أثيم ، وأنه يقدم على أعمال فييحة دنيئة بغير مبالاة ودون استحياء .

أما إذا استسلم للنوم امرؤ دأبه الاعتدال والقناعة في حياته وطعامه ، وقوته المفكرة الناطقة نزاعة إلى أمر مشروع ، فياضه بأنبال الأفكار ، وتكون القوة (الشهوية) التي تغذيها الذات البهيمية لم يجهدا الإفراط ، ولم ينهكما التفريط — لأن القاعدة تقول : إن حد النطق لا يصح متى أدرك الطبيعة إفراط أو أصابها تفريط — وعند ما تنفتر — إلى جانب هذا — وتلين في مثل هذا الإنسان القوة الثالثة (الغضبية) التي تشتعل فيها نار الغضب ، وبهذا يحسن الإنسان ضبط القوتين اللاناطقتين ، عند ما يحدث هذا كله ، تضيء القوة الناطقة المفكرة ، وتصبح مهياة لتلقى الرؤى قادرة عليها ، وعندئذ تكون أحلامه هادئة صادقة موثوقا بها ، هذا هو نص الألفاظ التي قالها أفلاطون تماما .

== يحتمل المناقشة ، ثم إن أفلاطون يبر — في إحدى الجمل التي يحذفها « شيشرون » — عن الفكرة القائلة بأن النفس الناطقة تتجاهد لكي ترى وتشعر بما تجهل في غياب الماضى والحاضر والمستقبل ، وهذا عندما تكون بآمن من الفلق الذي ينشأ عن السرور أو الأسف الناتج عن شهوة الحصول على شيء مرغوب فيه ، أى أن النفس تحاول معرفة الغيب عندما تكون نقية لا يعكر صفوها شيء ، ومعنى هذا بكل بساطة — فيما يلوح لنا — أن وظيفة العقل الحقيقية هي البحث عن الحقيقة . ويرى أفلاطون أن الرجل الظالم هو الذى تتحكم فيه شهواته الحيوانية بحيث تخفت صوت العقل ، ويضع في مقابلة ذلك ، الرجل يظل على العكس ساكنا أمام شهوته لما يريد ، ولا يتسرع في غضبه ، أى الرجل الذى لا ينقاد عقله لغير نفسه ، ولا يعتقد صاحب هذا التعليق أن القطعة التي اقتبسها « شيشرون » عن « أفلاطون » تحمل دلالة غير هذا .

٢٩ — وهل تثق في آراء « أبيقور » أكثر مما تثق في آراء « أفلاطون » ؟
أما عن « كارنيادس » فقد كانت لذة الجدل تحمله على أن يقرر هذا الرأي
حيناً ، وذاك الرأي حيناً آخر ، وربما بدا لك أن ترد على هذا قائلاً : « ولكن
أبيقور يقول ما يعتقد ، — إلا أنه لا يعتقد شيئاً يستند إلى العقل أو يجدر
بفيلسوف ١٠٠ فهل يجوز بعد هذا أن نعتبر هذا الرجل أعظم من « أفلاطون » ،
و « سقراط » ، اللذين يتفوقان على هؤلاء الفلاسفة الصغار بجلال اسميهما ، حتى
وإن لم يقدمنا دليلاً يبرر رأيهما ؟ .. إن النصيحة التي يسديها إلينا « أفلاطون » ،
هي أن نتهياً للنوم بأبدان مستعدة للاحتلام ، بحيث لا يعترى النفس خطأ
أو اضطراب .

رأى الفيثاغوريين :

ولهذا السبب يُظن أن الفيثاغوريين قد حُرِّم عليهم الإفراط في أكل
الفول (١) لأن هذا النوع من الطعام ، يولد في المعدة الرياح ، ويؤدي إلى
حال من الصراع يتنافى مع ما ينبغي أن تكون عليه نفس تبحث عن الحقيقة ،
ولهذا فإن النفس عند ما تتجرد عن طريق النوم من علائق الحس ، تستدعي
الماضي ، وتذكر الحاضر ، وتنبأ بالمستقبل ، إذ أن الجسم النائم وإن كان يشبه
في امتداده الجثة التي فارقتها الحياة ، فإن النفس فيه حية وقوية ، وتكون أوفر
حياة وأعظم قوة عند ما يدركها الموت وتتجرد من علائق الجسم كل التجرد ،
وهكذا تعظم قدرتها على التنبؤ كثيراً بدنوها من الموت ، ونذكر على سبيل
المثال هؤلاء الذين يعترهم مرض شديد مهلك ، إنهم يرون الموت وهو يوشك
أن ينقض عليهم ، وتتراعى لهم الموتي في أحلامهم ، ويشتد نزوعهم إلى الشهرة ،

(١) قارن Tertul في كتابه عن النفس ، في الفصل الثامن والأربعين ، وبلوتارك .
Sympos 9. 10 وبلايني H.N.XV111. 12 (لوبي) وقارن رأى أفلاطون والفيثاغورية .
برأى مفكرى الإسلام في كتابنا « الأحلام » ص ١٣٧ — ١٣٨ طبعة أولى .

وفي مثل هذه الفترة يشعر الذين عاشوا على غير ما ينبغي أن يعيشوا ، بأسف عميق لما قدموا من آثام .

الموتى وإدراك الغيب :

وقد دلى « پوسيدونيوس » Posidonius على قدرة المثرفين على الموت على التنبؤ بالغيب ، فى قصته المعروفة التى رواها عن رجل من أهل « رودس » ، ذكر وهو على فراش الموت أسماء ستة رجال من عمر واحد ، متنبئاً بموعد مماتهم على الترتيب .

ويرى « پوسيدونيوس » أن الرؤيا التى تكون من وحي إلهام إلهى ، تنبئ عن ثلاث طرُق : أولها أن تكشف النفس الأشياء بذاتها ، لاتصالها بالآلهة ، وثانيها أن الهواء مليء بالنفوس الخالدة التى انطبعت فيها بحلاء آيات الحق ، وثالثها أن الآلهة تتحدث بنفسها مع الناس وهم نيام ، وعندما يدنو الموت — كما أسلفت من قبل — يسهل على الناس أن يميزوا شواهد المستقبل ، وتشهد بهذا تلك القصة التى رويتها عن « كالانوس » Callanus^(١) ويؤيده وصف « هومير » لهكتور الذى تنبأ عند موته بأن « آشيل » سيموت مبكراً .

الطبيعة البشيرة والهجس :

٣٠ — ومن البين أننا ما كنا لنستخدم فى حديثنا الجارى هذا الاستعمال المؤلف للهجس السابق بما سيقع ، إذا كانت القدرة على هذا الهجس لا وجود لها إطلاقاً . وفى البيت التالى المعروف الذى نظمته « بلاوتوس » Plautus^(٢) ما يوضح استعمال الهجس :

(هجست النفس عند ما بارحت الوطن منبئة بأن رحيلى عبث لا طائل

(١) انظر الفقرة الثامنة والعشرين من الكتاب الأول هنا . ثم قارن هذا باتجاه مفكرى الإيسلام فى كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإيسلام » .

(٢) الإلياذة ج ٢٢ ص ٣٥٨ (لويب) .

(٣) Aulular 11.21. (لويب) .

تحت (ويراد بالهجس ^(١) أن يوهب المزم إدراكا حسيًا حادًا ، ولهذا يطلق على بعض المسنات من النساء : الهاجسات ^(٢) ، إذ المفروض أنهن واسعات العلم بالأمور ، وأضيف الهجس للكلام كذلك ، وقيل للمرء الذى يعرف شيئاً قبل وقوعه ، إنه صاحب هجس بما يقع ، أى أنه يدرك بحسه المستقبل قبل انكشافه .

وإذن فى النفس الإنسانية ملكة ملازمة لها ، تمكنها من الهجس أو سبق النظر بالمستقبل ، وقد بطن الله النفس بهذه الملكة ، وجعلها بإرادته جزءاً مكوناً لها ، فإذا نمت هذه الملكة على غير قياس ، فإنها تسمى « مسا أو إلهاما إلهياً » يقع عندما تفارق النفس البدن ، متأثرة تأثراً قوياً بآبؤ واقع إلهية ، كما نرى فى المثال التالى ، إذ تقول « هكيوبا » ^(٣) إلى ابنتها كساندرا Cassandra (لم هذا الجنون ، وما سر هذه العيون الملتفة ، وأين ذهبت تلك الحشمة وذاك العقل الذى زانك إلى عهد قليل . ٩٠٠)

وقد أجابت كساندرا قائلة : (أى أمى يا أنبل النساء طرا ، إني مرسله لآلى نبوءات ، لأن أبولو يدفعنى رغماً عني ، ويجعلنى مجنونة لأنبيء عن المستقبل ، أيتها العذارى قرينات الشيبية إن رسالتى تشين أبى وهو خير الرجال ، أيتها الأم العزيزة ، إن الأسى والحزن يملأ قلبي من أجلك ، لقد أنجبت لبريام — سوى — خير الأبناء ، إنه ليؤمنى أن يكونوا نافعين ، وأنا ضارة ، مطيعين وأنا عاصية) .

(١) أهمل « ديماريه » ترجمة هذه الفقرة ، وأشار فى تعليقاته إلى أنها مجرد شرح لبعض المصطلحات اللاتينية واشتقاقاتها ، وأن من العسير نقلها إلى الفرنسية ، وأن إهمالها لا يؤثر لحسن الحظ فى سياق الحديث . ولكن مترجم جارييه قد نقلها إلى الفرنسية وكذلك فعل Falcouer فى طبعة (لويب) الإنجليزية .

(٢) كالساحرات (لويب) .

(٣) أنجبت « هكيوبا » من « بريام » ملك ترواده تسعة عشر طفلاً ، منهم « كساندرا » وقد فقدتهم جميعاً — على وجه التقريب — فى حرب « ترواده » وتقول الأسطورة إنها نسخت كلية ، وقد وضع « إيروبيدس » مأساة عن « هكيوبا » (باشليه وديزوبرى) .

ما أرق هذه القصيدة ، وأبلغ تأثيرها في العواطف ، واتفاقها مع أخلاق
ناظمها (١) . وإن كنت أسلم بأنها لا تتماشى مع موضوعنا ، ولكن الفكرة
التي أريد أن أؤكد لها — وهي أن النبوءات الصادقة تظهر في حال المس — تعبر
عنها الآيات التالية :

(لقد أقبل ، لقد أقبل هذا المشعال الغارق في الدم والنار (٢) ، بعد أن
اختفى عدة سنوات ، أيها المواطنون : النجدة النجدة لإطفائه) .
وليست « كساندرا » هي التي تتكلم بعدها ، ولكنه إله تمثل بشرا (فيني)
عن هجوم أسطول الإغريق ورجالهم على ترواده لاسترداد هيلينا) .

٣١ — إنني أعتمد في شرح فكرتي — فيما يلوح — على أساطير مستمدة
من شعراء المآسي ، ولكنك كنت المصدر الذي استقيت عنه مادة من نفس
النوع السالف الذكر ، ومع ذلك فإنها ليست خرافة ، ولكنها حادثة واقعية ،
ذلك أن « جايوس كوپونيوس Gaius Coponius » وهو رجل يمتاز بالكفاءة
والمعرفة الملحوظتين ، قد وفد عليك في « دايرخيوم : Dyrrachium » (٣) حينما
كان — كحاكم لروما — يتولى قيادة الأسطول الروماني ، وأنباك بتسكن رجل
من أهل رودس ، الذين كانوا يشتغلون في سفن التجديف ذات الصفوف
الخمسة التي يعلو أحدها الآخر ، وكانت النبوءة تقول إن بلاد الإغريق
ستغرق في بحر من الدماء في نحو ثلاثين يوما ، وأن « دايرخيوم » ستتهب ،
ويلوذ المدافعون عنها فرارا ، فإذا ولوا الإدبار رأوا خلفهم منظرا رهيبا

(١) هذا النص ، والنصان التاليان ربما كانت مستمدة من « هكيوبا » لأكيوس أو ربما
كانت مقتبسة عن « ألكسندرا » لأنيوس (لويب) .

(٢) الإشارة هنا إلى « باريس » الذي أبدوه في جبال « أيدا » بآسيا الصغرى ،
فعاث راعيا هناك (ولويب) وفي سفح هذه الجبال تقوم مدينة تروادة وعلى قمتها حوكم باريس
(باشليه وديزيرى) .

(٣) في أثناء الحرب الأهلية التي نشبت بين قيصر و « پومبي » وقيل معركة « فارسالوس »
(٩ أغسطس سنة ٤٨ ق . م) وانظر الفقرة الخامسة والخمسين من الكتاب الثاني .

لحريق مخيف ، بيد أن الأسطول الرومى سيعجل بالعودة إلى وطنه سليماً .
لم تثر هذه القصة قلقاً فى نفسك ، ولكنها أثارت إزعاجاً شديداً لـهذين الرجلين
المثقفين : « مار كوس قارو » ، M. Varro و « مار كوس كاتو » ، M. Cato اللذين
كانا فى « ديراخيوم » ، حينذاك . وبعد أيام قليلة وصل « لاينوس Labienus
إلى ديراخيوم فاراً من فارسالوس Pharsallus حاملاً نبأ فقدان الجيش ،
وسرعان ما تحققت بقية النبوءة ، فهبت مخازن الحبوب ، وتبعثرت محتوياتها
وانتشرت فى الشوارع والأزقة . وقد أبحرت فجأة مع رفاقك فى سفينة وقد
تولاكم روع مخيف ، فلما سرحتم البصر فى المدينة التى خلفتموها وراءكم ليلاً ،
راعىكم منظر اللهب ترسله السفن التجارية التى أشعل النار فيها الجنود الذين أبوا
اللاحاق بكم ، ثم تأكدت بأن النبوءة قد تحققت عند ما ترك الأسطول أعوانك .

صدر النبوءة - غم أخطائه :

لقد ناقشت موجزاً - ما استطعت إلى الإيجاز سيلاً - النبوءة بالغيب
عن طريق الرؤيا والمس ، وهما - كما أسلفت من قبل - لا يقومان على
الصناعة (١) وكلاهما يعتمد على الاستدلال الذى يستخدمه عادة صديقنا
كراتيپوس Cratippus (٢) حين يقول : إن النفس البشرية قد صدرت
وأخذت - عن مصدر خارجى عنها - وعلى هذا تقوم خارج النفس
الإنسانية نفس إلهية ، فاضت عنها النفس البشرية ، وفوق هذا فإن هذا الجزء
من النفس البشرية الذى وهب الحس والحركة والشهوات البهيمية ، لا يمكن .

(١) أنظر الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثانى (لويب) .

(٢) هو فيلسوف مشائى ، يتحدث عنه « شيشرون » على الدوام باحترام وتقدير . وقد
أقام مدرسة فى أثينا . وقد تبعه ابن شيشرون (أو اعتبر من أتباعه) فيما يظهر من مقدمة
De Officiis وبلوح لنا أن استدلاله المقتبسة من كتابه الذى وضعه عن النبوءة عن طريق
الأحلام ، غير منتجة ، ولم يجد شيشرون عناء فى إظهار ما تتطوى عليه هذه الاستدلالات
من ضعف . كما يبدو فى الفقرة الثالثة والثانية والخمسين - بوجه خاص - من الكتاب
الثانى (جارنييه) .

تجريده من علائق الجسم ، بينما نجد هذا الجزء الناطق الذى يفكر ، يشته نشاطه كلما ابتعد عن علائق البدن ، وهكذا كلما ساق « كراتيوس » المثل لنبوءات صادقة عن طريق الجنة والرؤيا اختتم أدلته فى العادة على النحو التالى : « رغم أن المرء لا يستطيع أن يؤدي وظيفة البصر بغير العيون ، ورغم أن العيون قد تعجز فى بعض الأحيان عن أداء وظيفتها المعينة — الإبصار — إلا أن المرء الذى يستخدم عينه ولو إمرة واحدة ، يرى فيها الأشياء على حقيقتها ، يعرف على وجه التحقيق ما هى الرؤية الصادقة ، وكذلك الحال فى التكهّن بالغيب ، فإن من المستحيل أن يقوم التنبؤ وتؤدّى وظيفته بغير ملكة التكهّن بالغيب . ، ورغم أن المرء الذى أوتى هذه الملكة قد يخطئ أحياناً فيصدر نبوءات باطلة ، إلا أن تنبؤ الكاهن تنبؤاً صادقاً ولو فى حالة واحدة ، كفى بأن يقر وجود التنبؤ بالغيب ، ويستبعد افتراض المصادقة فى تأويله ، ولكن التكهّن قد صدق فى الكثير من النبوءات ، وهذا يوجب التسليم بصحته .

تأثير التنبؤ الصنعى : مزيج وأساليب :

٣٢ — ولكن أساليب التكهّن الذى يعتمد على الحدس أو على الاستنباط من حوادث يقوم العرافون بملاحظتها وتسجيلها ، لا تعتبر طبيعية كما أسلفت القول (١) ، ولكنها صناعية . وهى تشمل النظر فى فحش الأحياء ، وفن العيافة وتعبير الرؤيا . وقد أبى المشاؤون التسليم بها ، وتولى الرواقيون الدفاع عنها ، وبعض هذه الطرق قائم على معلومات مسجلة ومتعاقبة ، كما تشهد بهذا الكتب التى وضعها أهل « أتورريا » عن التنبؤ بوساطة النظر فى الأحشاء والرعد والبرق ، وكما تبينه الكتب التى وضعها ديوان العيافة التى تشترك أنت فى عضويته .

أما بعض ضروب التكهّن الأخرى فإنه قائم على الحدس المفاجئ . والسريع ، ومثال هذا ما يرويه « هومير » عن كالكاس Calchas الذى تنبأ

(١) أنظر الفقرة السادسة من هذا الكتاب (لوب) .

بعدد السنوات التي تستغرقها حرب تروادة من عدد العصافير الدورية (١) .
وفي التاريخ الذي وضعه « سلا » Sulla نجد شرحاً آخر للتكن بالحدس ،
تمثله حادثة شهدتها بعينيك ، إذ بينما كان يقدم القرايين في ديوان عمله في إقليم
نولا (٢) برز له فجأة ثعبان كان تحت المذبح ، فتوسل العراف « جايوس
پوستوميوس Gaius Postumius إلى « سلا » أن يشرع في الزحف توا ،
فاتصح « سلا » بنصحه ، وغزا معسكر السمنيين Samnites الذي كان محصناً
تحصيناً قوياً ، — وهو يقوم أمام مدينة نولا —

ونجد مثالا آخر للتكن عن طريق الحدس ، في حادثة وقعت
لـ « ديونيسيوس » Dionysius قبيل توليه الحكم ، ذلك أنه قام برحلة في إقليم
ليونتائين وترك حصانه في نهر فيه تيار دائري ، فابتلع الحصان وأخفاه عن
الأنظار ، واستنفذ ديونيسيوس وسعه في إنقاذه ، ولكن محاولاته ذهبت
عبثاً ، فانصرف إلى حاله مضطرباً اضطراباً شديداً — فيما يقول « فيليستوس »
ولم يمس في طريقه إلا قليلاً حتى سمع صهيلاً ، فالتفت وراءه فوجد — والغبطة
تملأه — حصانه يتبعه في لطفة ، وقد اعتلى عرقة نخل يطن ، وقد تولى
« ديونيسيوس » الحكم عقب هذا النذير بأيام قلائل .

٢٣ — ثم كم من النذر تلقاها الاسبرطيون قبيل هزيمتهم الفادحة في معركة
« ليوكترا Leuctra (٣) فقد قعقع السلاح في معبد « هرقل » ، وتصيب تمثاله

(١) قارن إلياذة « هوميرو » ج ٢ ص ٣٠١ — ٣٢٩ ، ثم الأشعار التي اقتبست عن
« هوميرو » في الفقرة الثلاثين من الكتاب الثاني من هذا المؤلف (لويب) وفيها مناقشة
شيفرون لهذا المثال .

(٢) في « كباتيا » ولا يزال يحمل هذا الاسم . وقد كانت الحملة في الأعوام ٩١ — ٨٨
ق . م (لويب) ومناقشة شيفرون لهذا المثال في الفقرة الثلاثين من الكتاب الثاني .

(٣) مدينة صغيرة في يوتيا ، اشتهرت بالانتصار الذي أحرزه الطيبون سنة ٣٧١ ق . م
بقيادة « إبامينوداس » Epaminodas على الاسبرطيين في عهد الملك « كليبروت »
الذي قتل في المعركة (لويب وديماريه) .

عرقا ، وفي نفس الوقت كانت أبواب هذا المعبد في « طيبه » ، وكانت مغلقة بقضبان — فيما يقول « كاليستانس Callisthenes » فانفتحت فجأة من تلقاء نفسها ، ووجد السلاح الذي كان مثبتا على حوائط المعبد ، ملقى على أرضه ، وبينما كانوا يقدمون القرابين للآله « تروفونيوس Trophonius »^(١) في مدينة لباديا في بيوثيا ، أخذت الديكة المجاورة تصيح في نفس الوقت صياحا شديدا ، دون أن تكف عن الصياح ، وعندئذ أعلن عيافو « بيوثيا » أن الانتصار سيكون لحليف الطيبين ، لأن من عادة الديكة أن تلتزم الصمت عند الهزيمة ، وترفع بالصياح صوتها عند الانتصار .

وقد تلقى « الاسبرطيون » في هذا الوقت كثيرا من النذر الزاجرة التي تنبئهم بهزيمتهم الموشكة في « ايوكترا » . فمن ذلك ظهور تاج من الحشائش البرية ذات الشوك الكثير ، تبدى فجأة على رأس تمثال مقام في دلفي تكريما لأوسع الاسبرطيين شهرة ، وهو « ليزاندر Lysander » ثم إنهم أقاموا في معبد « كاستور » و « بولوكس Castor & Pollux » في دلفي بعض نجوم ذهبية احتفالا بالانتصار الباهر الذي أحرزه « ليزاندر » على الأثينيين^(٢) ، إذ قيل إن هذين الآلهين قد شوهدا في صحبة الأسطول الاسبرطي أثناء هذه المعركة ، ولكن هذه الرموز الالهية — أي النجوم الذهبية التي أسلفنا الإشارة إليها — قد سقطت قبيل معركة « ليوكترا » واختفت عن الأنظار فلم يرها أحد بعد . ولكن النذر الزاجرة التي تلقاها الاسبرطيون ، كان أكبرها خطرا هذا النذر :

(١) هو فيما تقول الأسطورة النحات الذي شيد معبد أبولو في دلفي — تحت الأرض — وأقام بيت مال الملك « هيرينس » في بيوثيا . وتذكر (لوبي) و (ديماريه) أن مهيظ وحى « زيوس تروفونيوس » كان مقاما في كهف في مدينة لباديا الصغيرة ، وأن الناس كثيرا ما كانوا يحجون إليه ، قارن : Athenaeus, 614 A, Aristoph. Nubes 503 .
وانظر رد شيشرون على مثال الديكة في الفقرة السادسة والعشرين من الكتاب الثاني .
(٢) في Aegospotami عام ٤٠٥ ق . م (لوبي) .

أرسلوا في استنباء وحى «چوپتر» في «دودونا» بصدد احتمالات الانتصار، وبعد أن أقام رسلهم الوعاء الذي يحوى الأنصبة^(١) في حينه بعثر الأنصبة قرد كان يحتفظ به ملك «مولوشيا» Molossia لتسليته، وأخل بكل شيء كان يستخدم في استنباء الوحي، وبعثه في كل الجهات. فقالت الكاهنة التي كانت منوطة بالوحى — فيما قيل لنا — ينبغي أن يفكر الاسبرطيون في التماس السلامة، لا في طلب الانتصار.

منغمة الاستخفاف بنثر الزهر :

٣٤ - ثم ألم يؤدّ استخفاف «جايوس فلامينيوس» G. Flaminius^(٢) بالشواهد الزاجرة — عندما كان قنصلاً للمرة الثانية — إلى نكبة فادحة أصابت الجمهورية في الحرب البونية الثانية... ؟ إذ بعد أن استعرض جيشه، نقل معسكره ومضى إلى «أريتيوم» Arietium ليلتقى بهانيبال، فكبا به حصانه فجأة أمام تمثال «چوپتر ستاتور» : Jupiter Stator^(٣) لغير ما سبب ظاهر، وقد اعتبر

(١) كانت الأجوبة في بطاقات توضع في جرة أو وعاء، ويقوم بسحبها أحد الأطفال. وكانت معدة بحيث تجيب على الأسئلة. وكان ملك «مولوشيا» هو «ليودولم» وهو أبو «أوليبياس» أم الاسكندر (ديماريه) ومناقشة شيشرون للأمثلة المذكورة في هذه الفقرة تراها في الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الثاني.

(٢) «جايوس فلامينيوس نبوس» G. Flaminius Nepos وقد هزمه هانيبال وذبحه عام ٢١٧ ق. م عند بحيرة ترازمين، بعد أن فقد «فلامينيوس» خمس عشرة ألف فرقة. قارن : Livy XXI, 57, 63 (لوبي). وانظر وصف هذه المعركة في كتابي «قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة»، طبعة أولى ص ١٢٥، ٢٦ وفي ص ١٢٨ صورة لبعض الهاربين من جيش «فلامينيوس» وترى مناقشة شيشرون لهذا المثال في الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الثاني.

(٣) هاجم السابين الرومان، فأعاد الرومان الكرة عليهم، ونذر «رميلوس» إلى «جوبتر» أن يقيم له معبداً في نفس المكان باسم «جوبتر ستاتور»، واستشعر الرومان بعد ذلك القوة. وبعد مضي أربعائة عام، نذر «م. أنيليوس رجيلوس» نذراً شبيهاً بهذا في معركة ضد «السمنيين» ليوقف الرومان الذين يلوذون فراراً. وقد أصاب توفيقاً مشابهاً (ديماريه). هذا المثال ونحوه لا يزال موضع اعتبار في نظر عامة المصريين الذين يعتقدون في الفأل والطيرة إلى يومنا الحاضر ١٠٠

العرافون هذا نذيراً إلهياً اجرا عن الاشتراك في المعركة، ولكن فلامينيوس لم يعبأ بما قالوا، ولما استنبأوا الفأل عن طريق الكتا كيت حين تطعم^(١) نصح وليّ الكتا كيت المقدسة بإرجاء المعركة، ولكن فلامينيوس قال له «هب أن الكتا كيت قد كفت عن الطعام، فيماذا تنصح في مثل هذه الحال؟» فأجابه قائلاً: «يجب أن تبقى في المعسكر» فقال «فلامينيوس» ما أجمله من قال أو زجر، ذلك الذي ينصح بالإقدام على العمل عند ما تكون حوصلة الكتا كيت فارغة، وبالكف عنه متى كانت ممتلئة... وأصدر أمره بأن تنشر الأعلام، وأن يتبعه الجنود. ولما أخفق حامل علم الفريق الأول^(٢) في حل علمه، تقدم لمعوته كثير من الجنود، ولكن على غير جدوى. ولما أنبأوا بذلك «فلامينيوس»، استخفّ بالأمر، جرياً على مألوف عناده، فكانت النتيجة أن تمزق جيشه إرباً إرباً في ثلاث ساعات، وذبح هو نفسه في المعركة.

ويضيف «كوليوس» Coelius حادثاً أوسع من هذا شهرة في نفس الوقت الذي كانت تثار فيه هذه المعركة المشهورة، وقعت في «ليجوريا» Liguria ببلاد الغال، وفي كثير من الجزر وفي سائر أجزاء إيطاليا، زلازل بلغت من الشدة والعنف حداً تصدع معه الكثير من المدن، وانخفضت بقاع في كثير من المناطق، وغارت الأرض، وعلت الأنهار فوق مجاريها، وفاضت على ما يجاورها، واقتحم البحر مجاريها.

٣٥ — «إن ضروب الخدس الموثوق بها في التنبؤ بالغيب، يحسنها الممتازون في التكهّن، ومن أمثلة ذلك أن «ميداس» Midas ملك «فريجيا» Phrygia الطائر الصيت، قد ملأت النمل فيه بحبوب الحنطة أثناء نومه وهو في عهد الطفولة، فتكهن العرافون استناداً إلى هذا الحدث، بأنه سيكون ثرياً عريض الثراء — وقد تحققت نبوءتهم.

(١) قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول، والرابعة والثلاثين من الكتاب الثاني (لويب).

(٢) قائد يتولى قيادة أربعمائة من المشاة (ديماريه).

وكان « أفلاطون » طفلاً مستغرقاً في نومه ، فاستقر النحل على شفثيه ، وأول السكبان هذا بأن الطفل سيوهب حلاوة في الكلام نادرة المثال ^(١) . تنهى ببلاغته أثناء طفولته .

ثم ماذا ترى في صديقك المحبوب الطريف « روسكيوس » Roscius ^(٢) ؟ هل كذب فيماروى عن نفسه ، أو هل كذب أهل « لانوفيوم » : Lanuvium . عند ما قالوا عنه إنه كان طفلاً في مهده ، ونشأ في « سولونيوم » Solonium . — وهو سهل في إقليم لانوفيوم — واستيقظت مريته أثناء الليل على غير انتظار ، لأنها رأت الطفل في ضوء المصباح مستغرقاً في نومه ، وقد التف حوله ثعبان ، فاحتواها الرعب من جراء هذا المنظر الرهيب ، ورفعت بالاستغاثة صوتها ، وأبلغ أبوه الحادثة إلى العرافين ، فقالوا إن الطفل سيصيب شهرة ومجداً منقطع النظير ، وقد تحقق ما قالوه ، فنقش « بازيتيلس » : Pasiteles هذا المنظر بالفضة ، وصورة صديقنا « أركياس » : Archias ^(٣) شعراً .

« ثم ماذا تنتظر ؟ أنتنظر أن يتحدث معنا الآلهة المخلدون في الأسواق العامة وعلى قارعات الطرق وداخل البيوت . . ؟ ومع أن من المحقق أنهم لا يظهرون أمام العين سافرين ، فإنهم ينشرون قوتهم في أرحب الآفاق ، وقد يرسلونها إلى مغاور الأرض حيناً ، ويمنحونها لبعض الكائنات البشرية حيناً

(١) يقول « أوليمبيودور » في كتابه « حياة أفلاطون » إن أبويه قد وضعاه . على جبل « هيديت » عقب ولادته مباشرة ، كأنهما أرادا أن يثرا في نفسه القدرة على الهجس وهي التي يتحدث عنها « شيشرون » ولم يكن أفلاطون هو الوحيد الذي وقعت له هذه الحادثة في طفولته (جاردنييه) وانظر مناقشة شيشرون لهذا المثال وللمثال السابق له في الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الثاني .

(٢) كان ممثلاً هزلياً بارعاً . وكان يضرب مثلاً للتفوق وإتقان العمل ، ولشيشرون خطاب في مواهبه « لوب » .

(٣) كان هذا الشاعر من أنطاكية . وقد أصاب في روما تقديراً عظيماً « ديماريه » وقد ولد سنة ١١٩ ق . م أو قبل ذلك بقليل . وكانت أنطاكية تلى الاسكندرية في مجال العلم والثقافة ، ويصفه شيشرون بأنه شاعر وعالم ممتاز (مقدمة : H.G. Nall عن أركياس طبعة سنة ١٩٣٠) .

آخر . وقد كانت كاهنة دلفي في أبولو ملهمة إلهاماً أرضياً (١) ، كما كانت كاهنة « سييايل » ملهمة إلهاماً طبيعياً . ولماذا يثير هذا العجب في نفسك ..؟ ألسنا نرى كيف تختلف تربة الأرض في نوعها . ؟ فان بعضها مهلك مبيد ، كهذا الذي يقوم حول بحيرة « امبسانكتوس » Ampsanctus (٢) في مملكة « هرييني » Hirpinii والذي نراه في (بلوتونيا) في آسيا وقد شاهدت كليهما ، بل إنا لنرى إلى جوارنا بعض مناطق الأرض نافعا للصحة وبعضها الآخر ضاراً بها ، وبعضها ينتج رجالاً وهبوا الذكاء والقاد وبعضها يلد رجالاً يتصفون بالغباء والحمق وهذه الآثار المختلفة كلها يسفر عنها الاختلاف في المناخ والتباين في أشجرة الأرض (٣) . وكثيراً ما تهتز النفس اهتزازاً عنيفاً إذا رأت شيئاً معيناً . أو تأثر بنغم عميق أو غناء ، وكثيراً ما يكون للقلق أو الخوف هذا الأثر ...

في تأثير النبؤ الطبيعي والصنعي

السرايم الشعراء والخطباء عند ديمقريطس وأفلاطون

٢٦ — ويشهد الإلهام الشعري بأن هناك قوة إلهية في باطن النفس الإنسانية ، يقول « ديمقريطس » ليس في وسع امرئ أن يكون شاعراً فحلاً دون أن تعتريه الجنة . ويرى أفلاطون نفس هذا الرأي (٤) . ولندع أفلاطون

(١) المقروض أن الإلهام الإلهي كان يتصل بشق عميق في جوف الأرض ، وكان يخرج منه بخار يزعمون أنه ينبيء عن الغيب . وكانت الكاهنة تجلس عند مدخل هذه الفتحة على مقعد ذي ثلاثة أرجل ، لتعلن نبوءاتها (ديماريه ولويب) .

(٢) كانت هذه البحيرة في « سامنيوم » واشتهرت بأنها كانت مدخلا لمناطق الجحيم قارن فرجيل : Aen VII. 563 (لويب) .

(٣) هذه ملاحظة طيبة تردد صداها عند ابن خلدون في المقدمة ص وهي تنفي الدعوة التي روج لها حديثاً أمثال رينان في التفرقة بين السامين والآريين .

(٤) يقول « كليمان الاسكندري » في (Stromates VI. 18) إن أفلاطون يرى أن الشاعر كائن رقيق مقدس ، وأنه لا يستطيع أن ينتج إلا إذا كان ملهماً إلهاماً إلهياً أو مصاباً بجنون . ويضيف « كليمان » هذا الرأي نفسه إلى « ديمقريطس » ويقول أفلاطون في محاوره فيدروس (٢٤٥ هـ) إن سقراط بعد أن تحدث عن المس الذي يصدر عنه النبؤ ، تناول الحديث عن الجنسة التي تلهم ربات الوحي ، وأعلن أن شعر المؤلف العليم بأسرار الفن ، والمقتنع بأن هذه المعرفة هي التي جعلت منه شاعراً يحسن ضبط عقله عند القرض ، مثل هذا الشاعر سيأفل نجمه ، وينطمس شعره على الدوام أمام أولئك الشعراء المصابين بجنون (جارييه) .

يسميه مساً أو جنة إذا شاء ، بشرط أن يثنى عليه كما أثنى عليه في محادثة « فيدروس » (١) .

ثم ماذا ترى . . ؟ أيمن أن يكون خطابكم أيها المحامون مثيراً للنفوس ، كبير الخطر عند مستمعيه ، طلقاً سلساً في نظرهم ، إذا لم تهتز نفوسكم اهتزازاً عميقاً . . (٢) ؟ أقسم أنى رأيت فيك مراراً وقدة الانفعال تبدى في نظراتك وتمثل في حركاتك ، حتى ظننت أن قوة ما ، قد انتزعت منك وعيك ، وسلبتك الشعور بما تفعل ، وإذا سقطت لك مثلاً آخر لهذه الوقدة ، فهذا هو صديقك « أيسبوس » Aesopus الذى رأيتها فيه ، وإن كانت عنده أقل اشتعالاً .

وكثيراً ما تظهر الأطياف نفسها وكأنها مجسمة في مادة ، وإن كانت في الواقع مفارقة لها ، ويشهد بهذا ما قيل إنه وقع له « برنوس » Brennus (٣) ولكتابه من أهل الغال ، بعد أن قام بحملته الأثيمة على معبد « أبولو » في دلفى ، فإن القصة تقول إن كاهنة المعبد قد قالت لبرنوس وهى تتحدث في مهبط الوحي . (سأحتاط مع العذراوتان اللبضاوتان لهذا الأمر (٤)) .

وكانت النتيجة أن شوهدت هاتان العذراوتان تقاتلان أهل الغال ، وقد غمر الجليد جيشهما . .

(١) ص ٢٤٤ | (لويب) وقد كان « كوتوس » أخو شيشرون شاعراً ممتازاً (ديماريه)

(٢) نلاحظ أن شيشرون في الفقرة الخامسة والعشرين من الكتاب الرابع من Tusculanes يقرر عكس هذا تماماً ، فيقول إن الخطيب كالممثل ، كلاهما يلعب بالعاطفة ، ويشير الغضب أو يبعث الألم وما يشبهه ولكنه لا يحسه ولا يشعر به (جارينيه) .

(٣) ليس هو « برنوس » الذى استولى على روما ، ولكنه غيره يحمل اسمه ، وعاش في عصر متأخر ، وقد فتح مقدونيا وقتل بها عام ٢٧٨ ق . م (لويب) .

(٤) « أتتا » و « أرتمس » (لويب) والأولى هى إلهة الحكمة والفنون والعلوم والحروب عند الرومان وهى تشبه « مينرقا » عند الاغريق . والثانية تحمل الاسم اليونانى الذى أطلق على ديانا . وكانوا في دلف وسيراكوص يقيمون لهذه الآلهة أعياداً تكرّماً لها . (باشليه وديزورى) .

تنبؤ المرضى عند أرسطو :

٣٧ — وقد ذهب « أرسطو »^(١) ، إلى القول بأن الذين يهذون من جراء المرض والمصابين بالسوداء ، تقوم في باطن نفوسهم قوة تمكنهم من سبق النظر والتنبؤ بالمستقبل ، أما أنا فإني أميل إلى الظن بأن مثل هذه القوة لا تعزى إلى المعدة المريضة ، ولا تنسب إلى المنخ المضطرب ، بل على العكس ، إنها النفس السليمة وليس الجسم المريض ، هي التي توحى القدرة على التنبؤ بالغيب^(٢) .

أول الروافية على قيام التكهن بالغيب :

والروافيون ، على سبيل المثال — يقيمون وجود التكهن بالغيب على عملية الاستدلال العقلي التالي :

« إذا استقام وجود الآلهة من غير أن يكشفوا للانسان عن المستقبل المحجب ، كان هذا دليلاً ينهض على أنهم لا يحبون بني البشر ، أو أنهم هم أنفسهم لا يعرفون ماذا يخفى المستقبل المغيب عنا ، أو أنهم يظنون أن ليس للانسان مصلحة في معرفة ما ينطوى عليه عالم الغيب ، أو أنهم يظنون أن هذه النذر التي يرسلونها إلى الانسان عن المستقبل ، أمر لا يتفق مع كرامة الآلهة ، أو أنهم — أخيراً — وإن كانوا آلهة فانهم لا يستطيعون أن يقدموا شواهد معقولة على الحوادث المقبلة ، ولكن ليس صحيحاً أن الآلهة لا تحبنا ، لأنهم أصدقاء الجنس البشري والمنعمون عليه ، وليس صحيحاً أنهم يجهلون ما أصدروا من أوامر وما رسموا من خطط — بشأن المستقبل — وليس صحيحاً أن ليس لنا مصلحة في معرفة ما ينتظر أن يقع لنا ، ما دام العلم يمكننا من اتخاذ الحيلة له ، وليس صحيحاً أن الآلهة يظنون أن الكشف عن النذر السابقه لما ينطوى عليه المستقبل ، أمر لا يتفق مع كرامتهم ، إذ ليس ثمة منجية أفضل من خدمة

(١) قارن أرسطو : Prob XXX من ٧٤١ « لويب » .

(٢) هذا يناقض — فيما نرى — ما أسلفه كوتتوس نفسه في الفقرة التاسعة والعشرين

من إثبات القدرة على التنبؤ للمصابين بمرض شديد مهلك .

الإنسانية ، وليس صحيحاً أنهم لم يؤتوا القدرة على معرفة المستقبل المغيّب ، وإذن فليس صحيحاً أن هناك آلهة ، ورغم وجودهم فإنهم لا يكشفون للإنسان عن شواهد تنبئ عن المستقبل . ولكن هناك آلهة ، فهم إذن يقدمون مثل هذه الشواهد ، وما داموا يقدمونها فليس صحيحاً أنهم يضمنون علينا بطرق فهمها ، وإلا كانت شواهدهم عديمة المنفعة ، وإذا هم أرشدونا إلى طرق فهمها ، فإن القول بعدم وجود التكهّن بالغيب لا يستقيم ، وإذن فالتكهّن بالغيب قائم فعلاً^(١) .

٣٨ - ومثل هذا الاستدلال يستند إليه « كريسيوس » ، و « ديوجانس » ، و « انتباتر » في البرهنة على التنبؤ بالغيب .

مبررات الاعتقاد في التكهّن مع غموضه أسبابه :

وإذن فأى مبرر للشك تراه فيما ينطوى عليه موقفي - إزاء التكهّن - من حق لا ريب فيه . ؟ . إنى أستند في هذا الموقف إلى منطق وحقائق وشعوب وأجناس ، وأعتمد على رأى الإغريق والبرابرة وأسلافنا من الرومان معا ، وتوידنى فيه تلك العقيدة الثابتة التى اعتنقتها الأجيال ، ويبرره عندى ما دان به أعظم الفلاسفة والشعراء ، وأحكم الناس وبناء المدن ومؤسسي الجمهوريات . ألا يكتفى لإقناعنا هذا الذى انعقد عنده إجماع الناس ، وهل تنتظر الحيوانات لتضيف شهادتها إلى الموضوع كذلك ؟ . فى الحق ليس ثمة أى دليل يمكن أن يقدم للكشف عن بطلان ما أسلفنا الحديث عنه من مختلف أنواع التكهّن بالغيب ، إلا أن يقال إن من العسير أن نقدم سبباً أو نكشف علة لكل ضرب من ضروب التكهّن . إنك تستفسر قائلاً : « لماذا يوقف العراف تنفيذ مشروع ويرجئه إلى يوم آخر ، عندما يجد شقا في رثة الضحية ، ولو كانت الأحشاء الرئيسية صحيحة . . ؟ » ولماذا يميل الكاهن إلى الظن بأن الفأل ميمون إذا طار غراب ميامنة أو غراب من نوع آخر مياسرة ؟ . ولماذا يعتبر المنجم اقتران

(١) ناقش شيبرون هذا الاستدلال فى الفقرات ٤٩ - ٥١ من الكتاب الثانى .

القمر بالكوكبين : جويتر وفينوس عند مولد طفل فألا ميمونا ، واتصاله
بزحل أو المريخ زجراً مشئوماً ؟ . ثم لماذا يزجرنا الإله ونحن نيام ، ويفوته
هذا الزجر ونحن أيقاظ . ؟ (١) وأخيراً لماذا تكشف « كساندرا » المعتوهة
عن الحوادث المقبلة قبل وقوعها ، ويعجز « بريام » بحكمته عما استطاعته بخيلها . ؟
إنك تسأل عن السبب الذى من أجله يحدث كل شيء . ؟ ولكم مطلق الحق
فى توجيه هذا السؤال ، ولكن ليس هذا هو موضوع بحثنا ، فإن المسألة هى :
هل تحدث هذه الأشياء فعلاً أو لا تحدث . ؟ وانقل على سبيل المثال أنى إذا
أقررت بأن المغناطيس قد جذب الحديد وسحبه نحوه ولم أستطع أن أكشف
لك عن سر هذا الجذب ، فانك تنكر كل الإنكار — فيما يخيل إلى — أن
فى المغناطيس مثل هذه القوة . هذا يمثل — على أقل تقدير — طريقتك التى
سلكتها بصدد قيام القدرة على التنبؤ بالغيب ، رغم أن هذا ما أثبتته تجاربنا ،
وأيدته خبرات غيرنا ، وأقره ما قرأناه فى مختلف الكتب ، وما انحدر إلينا
من تقاليد أجدادنا الأولين ، وهو أمر لم يرتق إليه الشك عند أوساط الناس
قبل فجر الفلسفة التى كشفها الإنسان حديثاً ، ومنذ شيوعها لم يعتنق فيلسوف
ما — أياً ما كانت شهرته — رأياً مخالفاً لما أسلفناه ، وقد أبنت لك عن رأى
« فيثاغورس » و « ديمقريطس » و « سقراط » ولم أستبعد من القدماء إلا
« اكسانوفان » ، وقد أضفت إليهم رأى أهل الأكاديمية القديمة والمشائين
والرواقين . أما الفيلسوف الوحيد الذى تمرد على هذا الرأى فهو « أبيقور » .
ولكن لماذا يثير هذا القول العجب فى نفسك . ؟ وهل الرأى الذى اعتنقه
« أبيقور » فى التنبؤ بالغيب ، أدعى إلى عدم الثقة من رأيه الذى يقول بأن
ليس ثمة فضيلة بريئة عن الهوى ... ؟ .

٣٩ — ولكن هل ثمة امرؤ لا تستميله تلك الشواهد البينة الصائبة التى

(١) فى وسع معتق الرأى أن يجيبوا على هذا السؤال قائلين إن الإله لم يفته زجر الناس
وهم أيقاظ ، ويستشهدون بالصوت الذى كان يزجر سقراط . ثم فى الأنبياء والرئين شاهد
على ذلك .

سجلتها يد الزمان . . ؟ فقد قرر « هومير » — على سبيل المثال — أن « كالكاس » كان خير أهل العياقة بين الإغريق ، وأنه تولى قيادة الأسطول الإغريق أمام تروادة ، وقد كانت قيادته للأسطول — فيما يلوح لى — ترجع إلى مهارته فى علم العياقة ، لا إلى براعته فى فن الملاحة ، وقد كان « أمفيلوكوس » : Amphilochoy و « موبسوس » Mopsus ملكين فى « أرجوس » Argos ولكنهما كانا من أهل الكهانة كذلك ، وقد قاما بتشديد مدن يونانية على شواطئ سيليسيا ، بل لقد ظهر قبلهما « أمفياروس » Amphiaraus و « تيرزياس » Tiresias^(١) اللذان لم يكونا من طعام الناس ولا كانا نكرة بينهم ، ولا صدقت فيهم تلك الكلمة التى وصف بها « أنيوس » أولئك :

[الذين يؤيدون باطل الآراء طمعاً فى خدمة مصالحهم الشخصية] ولكنهما كانا يتمتعان بشهرة واسعة النطاق ، ويعتبران من أنبل الناس ، وقد كانا يتكلمان بالمستقبل مستنبئين الطيور فى تغريدها وتحليقها فى الجو .

ويقول « هومير » عند الكلام على « تيرزياس » إنه كان وحده حكماً عندما كان يقيم فى المناطق الجهنمية ، أما من عداه فكانوا مجرد ظلال ضالة^(٢) . أما عن « أمفياروس » فقد أصاب فى بلاد الإغريق شهرة أدت إلى تكريمه كما يكرم الآلهة ، وكان الناس يلتمسون رد الوحي على أسئلتهم فى المكان الذى ثوى فيه .

ثم ألم يكن للملك الأسبوى « بريام » ابن اسمه « هلنوس » Helenus وابنة تسمى « كساندرا » قد اشتغلا بالنبوءات ، فكان أولهما عيافاً ، وكانت أخته

(١) هو أبو « أمفيلوك » وقد عرف أنه سيدع فى حصار الطيبين ، فاختنق فترة ما ، ولكن زوجته كشفت أمره ، فتبع « بولينيك » إلى طيبه حيث ذبح . أما الثانى تيرزياس فانه عثر فيما يقال على ثعبانين فى حالة اتصال جنسى (جماع) ، فقتل الأنثى ، فتحول من هذه اللحظة إلى امرأة ، ولكنه صادف بعد سبع سنين ثعبانين آخرين فى مثل الحال السالفة ، فقتل الأنثى كذلك ، وسرعان ما تحول رجلاً . ثم استدعى حكماً بين « جوبتر » و « جونون » ولما كان حكمه فى صالح الأول ، أفقدته « جونون » بصره ، فأراد جوبتر أن يعوضه عن فقد بصره خيراً ، فوهبه ملكة تمكنه من التكهن بالغيب — هكذا تقول الأساطير (ديماريه) .

(٢) قارن « هومير » فى الأوديسا ج ١ ص ٤٩٢ (لويب) .

تتمكن بالمستقبل عند ما يعثرها احتياج أو جذب ينبعث عن إلهام سماوى ،
وتدركها حال من يقظة النفس . ؟ وفى نفس هذا الصنف من الكهان — فيما
عرفنا من التاريخ الذى خلفه لنا آباؤنا الأولون — هؤلاء الأخوة ذرو الصيت
الذائع الذين انحدروا من أسرة « ماركوس » النبيلة^(١) .

وأليس يقول لنا « هومير » بأن « بوليدوس » Polyidus السكورثى^(٢) ،
لم يكشف للناس عن الكثير من النبوءات فحسب ، بل أنه تنبأ كذلك بموت
ابنه الذى اشترك فى حرب تروادة . . . ؟

ولقد كانت القاعدة عند القدامى أن الذين يتولون الحكم فى الدولة ،

(١) لم تنجب روما — ولا إيطاليا بوجه عام — نبيا ملهما ، وقد أخذت عبادة أبولو
تصبح شعبية فيما يقول بوشيه لوكليرك : Bouché—Leclercq ح ٤ ص ١٢ — فى القرن
الثالث ، وكانت هذه العبادة قد دخلت منذ زمن طويل عن طريق كتب « سيبال » ولما
كانت اضطرابات الحرب البونية قد ضاعفت من ميل الناس إلى الخرافات ، فقد عانت روما
لبان ذلك ضروب العلاج بالسحر ، وقاست من كثرة التنبؤات التى ذاعت فى مصنفات تولى
لشهرها الدجالون من الناس ، وفى سنة ٢١٣ ق . م قرر مجلس الشيوخ أن يضع يده على هذا
الأدب الرخيص : (Tite—Live, XXV, 1.) ولكن وجدت بين هذه الكتب التى صودرت
نبوءتان لكاهن شعبي قديم يدعى « ماركوس » وقد تحققتا فيما بعد ، أما النبوءة الأولى وهى
التي سرعان ما عرف الناس صحتها — فهى التى تنبأت بالهزيمة اللاحقة فى موقعة « كانى »
وقد تنبأ بها قبل وقوعها بثلاثة أعوام . وأما — الثانية فقد أشارت — لطرد القرطاجيين —
بأقامة ألعاب سنوية تكريما لأبولو (Tite—Live XXV, 12) ومال مجلس الشيوخ إلى قبول
هاتين النبوءتين اللتين عرفنا فى الوقت الملائم ، رغبة فى تقوية الروح المعنوية بين الرومان .
وإذا شئنا أن نعرف عنهما أكثر من هذا قلنا — واليقين فيما نقول ضئيل — أن مجلس
الشيوخ قد أمر بأن تحفظ هاتان النبوءتان إلى جانب كتب « سيبال » .

ولا يزال الشك القوي قائما بصدد هذا الرئي « ماركوس » فانا لا نعرف الوقت الذى
عاش فيه . ومحدثنا شيشرون عن أخوين وهما ملكة التنبؤ بالنفس ، ولا يعرف .
Tite—Live إلا واحداً هو « ماركوس » . ويذكر شيشرون فى الفقرة الحسنة رثيا آخر
مع ماركوس هو « بوبليكيوس » الذى لا نعرف عنه شيئا . ثم هل ثبت على وجه اليقين
أن ماركوس كان شخصية حقيقية . . . ؟ إن هذا موضع لظن (جارنييه) وقد أشار
مترجم لوبي فى تعليقاته إلى أن « سرفيوس » قد ذكر هؤلاء الأخوة فى : Aen. VI 70 .

and 72 باعتبار أنهم يستنبئون الوحي الذى حفظته لنا كتب الكاهنة « سيبال » .

(٢) قارن « هومير » فى الإلياذة ١٣ ص ٦٦٣ (لوبي وجارنييه وديماريه) .

يهمنون على شئون العياقة كذلك ، لأنهم كانوا يعتبرون التنبؤ بالغيب كالحكمة أمراً يتفق مع كرامة الملوك^(١) . وقد قدمت جمهوريتنا الشاهد العدل على صدق هذا ، فكان ملوكها من أهل العياقة . وأخيراً فقد تولى المواطنون الذين قلدوا وظائف الكهنوت — وهبوا نفس القدرة على التنبؤ بالغيب — حكم الجمهورية مستندين إلى سلطة الدين^(٢) .

٤٠ — وكذلك القبائل التي لم تصب من المدينة حظاً ، كانت لا تستخف بممارسة التكن بالغيب ، فكان في بلاد الغال مثلاً كهنة « الدروديين » Druids^(٣) وقد عرفت بنفسى واحداً منهم ، وهو « ديوفيا كوس » Divitiacus من قبائل « أيدوى » Aedui ضيفك ومقرظك ، وقد ادعى بأنه أوتى هذا الضرب من معرفة الطبيعة — ذلك الذي يسميه الإغريق « فسيولوجيا » ، وكان يلقي بتكهنات مستخدماً العياقة حيناً ، والحدس حيناً آخر .

وكان قسس الفرس هم أهل العياقة وأرباب التنبؤ بالغيب بينهم ، وكانوا يجتمعون بانتظام في معبد للعبادة والتشاور ، كما كنتم يجتمعون يا أهل الكهانة قديماً في أيام الـ Nones^(٤) . ومن المحقق أن ليس في وسع امرئ أن يتولى ملك الفرس ، إلا إذا عرف عمل هؤلاء الكهان نظرياً

(١) كان لليونان ملوك مدبرون على فن العياقة ، وقد ذكر كوتتوس أسماء بعضهم مثل Amphiaraüs وقد كانت وظائف الكهانة في ديوان العياقة بروما يتقلدها الملوك كما يظهر من كثير من نصوص هذا الكتاب (جازنييه) .

(٢) كانت الوظائف الكهنوتية التي يشغلها الملك يعارسها فيما بعد ملك مقدس : Rex. Sacrorum (لوب) .

(٣) الدروديون كانوا عند الكلت القدماء من أهل الغال وبريتانيا وألمانيا . وكانوا يتعبدون تحت أشجار السنديان .

(٤) كانت Ides في تقويم السنة عند الرومان القدامى هي اليوم الخامس عشر من شهر مارس ومايو ويولييه واکتوبر ، والثالث عشر من بقية شهور العام ، أما Nones فكانت في الخامس من يناير وفبراير وأبريل ويونيو وأغسطس وسبتمبر ونوفمبر وديسمبر واليوم السابع من بقية شهور السنة .

وعملياً^(١). وقد نجد أسراً وقبائل كاملة يقف أبناؤها حياتهم على مزاوله هذا الفن ، فمن ذلك أن مدينة « تلمسوس » Telmessus في « كاليا » Caria قد ذاع عن أهلها أن فن العرافة أصيل فيهم . وفي مدينة « أليس » Elis ، في « بلوبونيسوس » Peloponnessus توجد أسرتان قد تسامع الناس زماناً طويلاً بشهرتهما في هذا الفن ، هما : « الياميدون » Iamidai والكلوتيديون Clutidae وكاتتا تمتازان بالمهارة الفائقة في ممارسته .

وكان الكلدانيون في سوريا أقدر من عرفوا في علم الهيئة وحدة الذهن^(٢).

وكان أهل أتوريا كذلك يمتازون بالبراعة في ملاحظة الصواعق وتأويل معانيها ، ومعرفة المغزى الذي يحمله كل رمز ، وينطوى عليه كل نذير زاجر . وهذا هو السبب الذي من أجله كان مجلس الشيوخ حكماً عندما قرر وهو في أوج قوته أيام أجدادنا ، أن يسلم ستة^(٣) من أبناء البارزين من رجالنا إلى كل قبيلة من القبائل في أتوريا لدراسة التكهن بالغيب ، مخافة أن ينتهي الأمر بهذه المهنة الجليلة إلى أن تفقد جلالها الديني بمرور الزمان ، وتتحول إلى

(١) يتحدث سقراط في « القبياد » عن التعليم الذي يتلقاه ابن الملك الأكبر في فترة قيل فيها إن هذا الأمير إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره ، عهد به إلى أربعة معلمين يختارون من صفوة الناس . أولهم أعلم الناس ، والثاني أعد لهم والثالث خيرهم سلوكاً والرابع أشجعهم . والأول يعلم ابن الملك سحر زرادشت بن هروماز [القبياد ١٢١ هـ] (جارييه) .

(٢) قارن هيرودوت ج ٩ في الفصل الثالث والثلاثين (لوبي) ويقول مترجم جارييه إن هؤلاء ذكراً في « هيرودوت » (والألياذة ج ١١ ص ٣٠٢ والأوديسا ج ١٥ ص ٣٦٠) .

(٣) يقول « بوشيه لوكليك » Bouché-Lecbercq (ج ١ ص ٢٠٧) إن رواج علم أحكام النجوم ظهر في عالم البحر الأبيض المتوسط في اليوم الذي افتتح فيه الكاهن الكلداني « بيروس » Bérose الذي عاصر « أنتيوكس سوتر » و « بطلميوس » الفيلاذلفي الذي افتتح مدرسة في « كوس » وعلم فيها التعاليم السرية للتنبؤ عند أهل بابل (جارييه) .

(٤) يقول Val. Max : إنهم عشرة لا ستة ، ويختلف فيما إذا كان هؤلاء الشبان (الذين يسلمون) من أهل روما أو أهل أتوريا ، أنظر Moser De div.p. 106 هامش

و Missowa, relig. und Kult.p. 548 (لوبي) .

وسيلة للارتزاق (١) .

وقد كان «الفيريغيون» Phyrigians و«البيسيديون» Pisidians و«الكيليكيون» Cilicians و«العرب» يعتمدون من جهة أخرى اعتماداً كلياً على الشواهد التي يدل عليها انطلاق الطيور في فضاء السماء .
وكان «الأومبريون» Umbrians يحتذون هذا المثال — فيها هو متواتر .

الهيئة المحددة نوع التكهن

٤١ — وأنا من جانبي أعتقد بأن خلق الأمة هو الذي كان يحدد نوع التكهن الذي يعتنقه أهلها ، فالمصريون والبابليون الذين يقيمون في رحاب السهول الفسيحة التي لا تتخللها تلال تحجب عن عيونهم منظر السموات ، قد وقفوا انتباههم كله على أحكام النجوم .

أما أهل أتوريا فإن طبيعتهم تتميز بمزاج ديني حاد ، وكان من عاداتهم أن يكثرُوا من تقديم القرابين ، ولهذا وجهوا كل انتباههم إلى دراسة أحشاء الحيوانات . والملاحظ أن شواهد السماء كثيرة وشائعة بينهم ، ثم إن حالة الجو — فضلاً عن هذا — تؤدي إلى كثير من ظواهر الأرض والسماء ، وإلى

(٢) في الفقرة الثامنة والخمسين من الكتاب الأول ما يشير إلى أن روما قد حفلت — إلى جانب التكهن الرسمي — بكثير من الكهان والكاهنات الذين يمارسون هذا الفن توسلاً إلى اكتساب المال ، باستغلال ما جبل عليه الناس من سرعة التصديق ، وقد حاول الحكام ومجلس الشيوخ عدة مرات أن يضعوا حداً لهذه التجارة التي كانت موضع احتقار من الناس ومصدر خطر في بعض الأحيان . وفي عهد «كاتون لانسيان» Caton L'Ancien الذي دافع عن عبيده باستشارة الطيور والأحشاء والنجوم ، قرر مجلس الشيوخ نفي الكهان العرقيين ، وفي سنة ١٢٩ ق . م طرد الكاهن المتغرب «كورنيليوس هيسبالوس» Cornelius Hispallus الكلدانيين ، وطالبهم بأن يبرحوا إيطاليا في عشرة أيام . وإن كانت كل هذه الإجراءات لم تنته إلى نتيجة حاسمة في مقاومة هذه الأساليب . وفي الوقت الذي كان يضع فيه شيشرون هذا الكتاب كانت روما مكتظة بمدعى القدرة على التكهن من طغام الناس . وبعد بضع سنوات نفي «أجريبيا» Agrippa الذي كان منوطاً بالشرطة في روما أهل السحر والنجامة (Dion G. Cassius. XLIX,43) (جاربنيه) .

وقوع بعض الخوارق في الحمل والولادة عند الآدميين والماشية ، ولهذا أدت هذه الأسباب الى تفوق «الأتوريين» في تأويل النذر الزاجرة (١) . ونريد أن نلاحظ أن القوة الكامنة في مثل هذه الطرق التي تستخدم في التكهن ، توضيحها تمام التوضيح تلك الكلمات التي وضعها أجدادنا في دقة للدلالة عليها (٢) . أما العرب والفيريجيون والكلبيكيون فانهم انصرفوا إلى تربية المواشي ، ولهذا كانوا يتجولون على الدوام في السهول والجبال صيفاً وشتاء ، فمكنهم هذا من دراسة الطيور في تغريدها أو تحليقها في فضاء الجو ، ويصدق هذا على البيسيديين وعلى مواطنينا الأومبريين .

أما أهل «كاريا» — ولا سيما «التلسيين» منهم — وقد أسلفنا الإشارة اليهم ، فانهم يقيمون في بلاد تمتاز تربة أرضها بالغنى والخصوبة غير المألوفة ، ولهذا وجهوا اهتمامهم إلى دراسة الخوارق .

أثر التكهن في توجيه الحكومات والشعوب قديماً

٤٢ — ولكن من ذا الذي فاته أن يلاحظ أن استنباء الطيور ومساير أساليب التكهن بالغيب ، تزدهر أيما ازدهار في أعظم الأمم نظاماً ؟ وأي ملك أو شعب لم يستخدم التنبؤ في شئونه ؟ لست أقصر الحديث على عهود السلم ، بل أخص أوقات الحروب عند ما يشتد النزاع ويقوى الصراع ابتغاء الطمأنينة ، ولنغفل الحديث عن مواطنينا الذين لا يقدمون على عمل أثناء الحرب ، إلا إذا سبقوا إلى النظر في أحشاء الحيوانات ، ولا يحققون أمراً إلا بان السلم إلا إذا التمسوا الفأل والطيرة من سانخ الطيور وبارحها .

(١) قارن شيشرون في طبيعة الآلهة (N.D.ii, 3.7) فهذه الفقرة تكاد تكون تكراراً لها (لويب) .

(٢) يرد في النص بعد هذه الجملة الكلمات التي وضعها الرومان للدلالة على طرق التكهن ، ومن الممكن أن ننقل ترجمتها إلى العربية كما أهل ترجمتها (ديماريه) وإن ترجمتها مترجماً (جارجييه) و (لويب) .

ولمض إلى البلاد الأجنبية لنعرف كيف تزاوّل التنبؤ بالغيب :
فالآثينيون - على سبيل المثال لا يعتقدون اجتماعا عاما إلا حضره أهل
التنبؤ من الكهان الذين يعتبرون التسكهن جزءا من الدين ويسمونهم

Mantreis

وقد خصص الأسبرطيون رجلا من أهل العياقة ليتولى نصيح الملوك،
ويكون بمثابة المستشار القضائي لهم، وقرروا أن يحضر الجلسات التي يعقدها
مجلس الشيوخ - وهذا هو اسم مجلس الأعيان عندهم - وكانوا في المسائل
ذات الخطر ، لا يهملون استشارة « وحى دلفى » أو « جوبتر أمون »
Jupiter Hammon أو « دودونا » : Dodona وقد سن « ليكورجوس » :
Lycurgus - وهو الذى تولى حكم الأسبرطيين مرة - قوانينه بسلطة وحى
أبولو فى دلفى . ولما هم « ليزاندر » بنقضها منعه الشعب من ذلك ، تهييا من
السلطة التى أوحى بها . ثم إن حكام أسبرطة لم يقنعهم البصر بأمورهم إبان
اليقظة ، فكانوا ينامون فى معبد فى « باسيفاي Pasiphaë » ، أقيم فى معقل على
كثب من المدينة ، لتترامى لهم الأحلام وهم نيام ، لأنهم كانوا يعتقدون أن
الوحى يصدق إن تلقوه وهم نيام مستريحون .

وإن لأعود الآن إلى الأحداث التى وقعت فى بلادنا : كم من مرة أمر
مجلس الشيوخ الحكام العشرة ذوى الحكم المطلق ، أن يستوحوا كتب
الكاهنة فى دلفى ؟ وكم مرة أصاخ فيها لإجابات العرافين فى شئون لها
خطرها ؟ وإليك هذه الأمثلة .

عندما شاهد الناس شمسين مرة وثلاثة أقمار مرة أخرى ، وعندما تبدت
الشهب ، وعندما أشرقت الشمس مجلجلة ، وعندما لاحت السماء وكأنها تنشق
ملقية بكرات من النار^(١) كانت كامنة فى جوفها ، وعندما هوت الأرض فى

(١) أشار مترجم لويب إلى أن من المحتمل أن تكون كلمة : ignei قد سقطت من النص

اللاتينى الذى ينقل عنه . قارن : Gen Net. Quaesti 1.14 .

« بريشرونوم » Privernum وحمل النبأ إلى مجلس الشيوخ ، وعندما زلزلت « أبوليا » Apulia زلزالها العنيف ، وغارت الأرض إلى عمق لا يتصوره العقل — في كل هذه الأحداث المنذرة التي زجرت الشعب الروماني عن شر الحروب الفتاكة والثورات المملوكة الجارفة ، كانت إجابات العرافين على وفاق مع أشعار كاهنة دلني .

ثم ماذا ترى في هذه الأحداث الأخرى ؟ عندما تصيب عرقا تمثال « أبولو » في « كوماي » Cumae وتمثال الانتصار في « كايوا » . وعندما وقع هذا الخارق المنحوس ، وهو مولد الخنثى ^(٢) ، وعندما جرى نهر « أتراتوس » ، وعندما أمطرت السماء في فترات وجيزة الأمد — وإبلا من الحجارة حيناً والدم حيناً آخر ، والتراب تارة بل اللبن تارة أخرى ^(٣) . وأخيراً عندما أبرقت السماء على تمثال « سنتاور » Centaur المقام على تل « كابتولاين » ، Capitoline وسطعت على الأبواب ، وبهر ضوؤها بعض الناس في « أفنتاين » ، Aventine وفي معبدى « كاستور » Castor و« بوللو كس » Pollux في « توسكولوم » Tusculm وعلى معبد التقوى في روما — ألم يتكهن العرافون في كل هذه الأحداث بأمور تحققت بعد ... ١ وألم تتضمن الكتب التي خلقتها لنا الكاهنة « سيبايل » كل هذه النبوءات ؟

٤٣ ... وفي أثناء حرب المارسي ^(٤) التي وقعت في العصر الحديث ، لجأ

(١) لا شيء يعرف الآن عن هذا النهر فيما يقول مترجم لويب ولكن (ديماريه) يقول إنه كان على كلب من روما ولكنه كان صغيراً جداً حتى نسي اسمه بمرور الزمن ، ولا نعرف الآن عنه شيئاً .

(٢) يشير « يوليوس أوبسكونس » أكثر من مرة في كتابه « الخوارق » إلى مولد الأطفال الخنثين أو الذين يصعب تمييز جنسيتهم ، وكان النظر في الأحشاء يشير بقتل هذه المخلوقات الشاذة في أغلب الأحوال ، وذلك بإلقائها في الماء ... (جارنييه) .

(٣) تجد أيضاً من مثل هذه الأمثلة في كتاب « الخوارق » مؤلفه « يوليوس أوبسكونس » (جارنييه) وتجد مناقشة شيعرون لهذه الأمثلة في الفقرة السابعة والعشرين وغيرها من الكتاب الثاني .

(٤) خلال الأعوام ٩١ — ٨٩ ق م (لويب)

الناس إلى معبد « جونوسسيتا » Juno Suspita من جراء حلم رآته « كايكيليا » ،
Caecilia ابنة « كوتوس كايكيلوس متلوس » Q. Caecilius Metellus ، وهو نفس الحلم الذى عرض لمناقشته « سيسنا » : Sisenna باعتباره رؤيا
معجزة ، من حيث إن نبوءاتها قد تحققت بتفاصيلها . ومع ذلك فقد ناقض
نفسه في آخر الأمر — متأثرا من غير شك بأحد صغار الأبيقوريين — وقرر
في غير منطق بأن الأحلام لا تستحق أن تكون موضع ثقة من الناس ،
ولكن هذا الكاتب نفسه لا يجد ما يقوله طعنا في الخوارق ، وهو يروى على
التحقيق أن حرب المارسي عندما اشتعل أوارها ، تصببت تمائيل الآلهة عرقا ،
وجرت الأنهار بالدماء ، وانشقت السماء ، وسمع الناس أصواتا تدوى من
مصادر مجهولة منذرة بحرب ضروس ، ثم شوهدت أخيرا تلك الآية التي
يعتبرها العرافون أكثر الشواهد دلالة على الطيرة ، وهي قرص الجرذان
للأتراس في « لانييوم » .

ثم ماذا ترى في القصة التالية التي تجدها في حولياتنا ؟ إذ في أثناء الحرب
التي ثارت بينتاوين أهل « في » Veii^(١) فاضت بحيرة « البانوس » Albanus
وعلت المياه فوق شواطئها ، لجأ إلينا أحد أشرافهم ، وقال لنا إن النبوءات
التي تتضمنها كتبهم ، تقول إن مدينتهم لا يمكن أن تستسلم للأعداء والبحيرة في
فيضان ، وإذا أمكن أن تفيض مياهها وأن تتجه شطر البحر ، فإن نتيجة
الحرب تكون شؤما على الشعب الروماني ، أما إذا صرفت المياه بحيث لا تبلغ
البحر ، فإن نهاية الحرب تكون في صالحنا ، واستنادا إلى هذه الأنباء حفر
أجدادنا الأولون هذه القناة العظيمة لتصرف المياه من بحيرة « ألبانوس »^(٢)

(١) بعد حصار امتد عشرة أعوام من ٤٠٦ — ٣٩٦ ق . م سقطت « في » في يد

« كاميلوس » Camillus قارت : Plutarch Camil 4; Livy V. 15. (لويب)
ومناقشة المثال تراها في شيشرون في الفقرة الثانية والثلاثين من الكتاب الثاني .

(٢) قارت Plutarch, Camillus, ch. 3 ff. ترى وصفا يوضح كيف بدأ مشروع

الرى المشار إليه هنا (لويب) .

ولما ضاق أهل « في » بالحرب آخر الأمر ، وأرسلوا الرسل إلى مجلس الشيوخ في طلب السلام ، قيل إن أحدهم قد أعلن بأن الهارب — السالف الذكر — لم يجرؤ على أن يعلن بقية النبوة التي يتضمنها كتب أهل « في » لأنها — فيما يزعم — قد تكهنت كذلك بغزو الغالين لروما مبكرا . وقد وقع هذا — فيما نعلم — بعد سقوط مدينة « في » بستة أعوام (١) .

٤٤ — وقد ترامت إلينا الأنباء بأن الحيوانات الريفية ، حماة الرعاة — عند الرومان — ، كثيرا ما سمعت أصواتها أثناء المعارك ، وأن الناس كانوا أوقات الفتن يتلقون نبوءات صادقة من أما كن مجهولة — ولدى من هذا النوع مثل كثيرة ، حسبك منها مثالين رائيين :

« قبيل غزو الغالين لروما ، سمع صوت صادر من ممر « فستا Vesta المقدس ، الذى ينحدر من سفح تل « بلاتين » ماضياً إلى الطريق الجديد وقال هذا الصوت : يجب أن ترمم حوائط المدينة وتصلح أبوابها ، فاذا أهملتم أمرها ، سقطت المدينة في يد الأعداء (٢) . ولكن هذا النذير لم يصادف اهتماما ، رغم امكان الاستجابة إليه ، فكفروا عن هذا الإهمال بعد وقوع النكبة الكبرى ، بأن أهدوا إلى « أيوس » Aius المتكلم مذبحا ، نراه الآن محوطاً بسياج وملاصقاً للتمر — السالف الذكر —

وأما المثال الثانى فقد ساقه كثير من الكتاب ، فعند وقوع الزلزال ، سمع الناس صوتاً صادرا من معبد « جونو » المقام فوق القلعة ، وقد أوجب الصوت أن تقدم خنزيرة حبلى قربانا للتكفير . ومن هنا سميت الإلهة « جونو » بالناصحة ، فهل تجرو بعد هذا على أن تستخف بهذه النذر التي أرسلها الآلهة واعتبرها أسلافنا موضع ثقة وتقدير ؟

(١) يصور : Title—Live V, 15 هذه القصة في صورة تختلف عن هذه الصورة اختلافا

يسيراً (جارييه) .

(٢) قارن « ليفى » ج ٥ ص ٣٢ ، ٥٠ (لويب) .

الفأل والطيرة عند الفيشاغوريين وغيرهم :

وكذلك لم يخلع الفيشاغوريون اهتمامهم على صوت الآلهة وحدها ، بل أدركت عنايتهم أحاديث الناس التي يسمونها بالطيرة والفأل . وقد كان على هذا التقدير أسلافنا ، ولهذا فقد كان من عاداتهم أن يقولوا قبل البدء بتنفيذ عمل ما : « اللهم سدد خطانا في أعمالنا وهبنا السعادة والتوفيق ، وقد كانوا يبدءون الاحتفالات العامة بالشعائر الدينية قائلين : « الزموا الصمت ، وكان المؤلف في العيد اللاتيني أن يقال : « فليمسك الناس عن النزاع ، وليكفوا عن الشجار »^(١) ، وكذلك كان الحال في احتفال التطهير المقدس الذي كان يعقده من يشرع في تأسيس مستعمرة ، كما كان هذا حال القائد حين يستعرض جيشه والرقب حين يحصى الناس ، كانت العادة عند هؤلاء جميعا أن يتخيروا أناساً يحملون أسماء ميمونة ليقودوا الضحايا ، بل إن هذا هو نفس ما يفعله القناصل عند تعبئة الجيش ، إذ يلاحظون أن يحمل الجندي الأول اسماً ميموناً ، وقد فطنت أنت نفسك إلى اتخاذ أعظم حيلة عندما كنت قنصلاً وحينما توليت القيادة ، وقد اهتم أجدادنا كذلك بأن يكون الصندوق الأول فالأول ميموناً في انتخاب جدير بالثقة^(٢) .

هـ — والآن فلا أقدم لك أمثلة للطيرة والفأل ، قد أصابت من الشهرة حظاً موفوراً : « كان لوكيوس باولوس ، Lucius Paulus قنصلاً للمرة الثانية ، واختير ليشعل نار الحرب في وجه الملك « پيرزس Perses ولما عاد إلى بيته

(١) كانت أيام العيد أيام سلام ، فيها يتوقف الصراع من أجل الحياة ، وكانت طبقات الشعب على اختلافها — وطبقة المييد من بينها — تنسى الفوارق التي تفصل بينها — وكانت المدن التي يقاتل بعضها بعضاً تحتفل مشتركة في أيام هذه العطلة بتقديم القرابين . (جازنييه) .

(٢) قارن : Pro Murena 18.38 omen praerogativae وكان نظام التصويت يقوم على الفرعة ، وكان صوت أول من في جماعة المائة يؤخذ كفأل لصوت التالي — فيما يقول : Heitland (لويب) .

في مساء اليوم الذي عين فيه ، لاحظ حين قبل ابنته الصغرى « تيرتيا » ،
Tertia — وكانت لم ترل بعد طفلة صغيرة — أن الحزن كان يغلب عليها ،
فقال لها : « مابك يا عزيزتى » تيرتيا ، ... ؟ فيم هذا الحزن ؟ فأجابته قائلة :
واأسفاه يا أبتاه ، لقد مات « بيرزا » فضم « باولوس » طفلة إلى صدره في
حرارة وقوة وقال لها : سأعتبر هذا فألا يابنيتى — وقد كان « بيرزا » اسم كلب
صغير أدركته المنية .

وقد سمعت « لوكيوس فلاكوس » Lucius Flacius ^(١) الكاهن
الكبير لاله الحرب ، يروى القصة التالية : —

رغبت « كايكيليا » Caecilia ابنة « متلوس » Metellus في أن تهى زواجا
لابنة أختها ، فمضت إلى معبد صغير لتتلقى فألا — جريا على عادة القدامى —
ومرت فترة طويلة قبل أن تجلس الفتاة الشابة ، واستوت خالتها على أحد المقاعد
وقد ساد المكان الصمت ، وأخيرا ضاقت الفتاة بهذا الانتظار ، وقالت
لخالتها : « دعيني أجلس قليلا في مكانك » .

فقالت الخالة « من المؤكد يا طفلى أنك ستأخذين مكانى » وقد كان هذا
فألا ميمونا يبشر بما وقع بعد ذلك ، إذ ماتت « كايكيليا » بعد مدة وجيزة ،
وبنت الفتاة بزواج خالتها .

أنا أعلم يقينا أن ضروب الفأل السالفة قد تكون موضع استخفاف ، بل
قد تثير السخرية ، ولكن الاستخفاف بالشواهد التي ترسلها الآلهة للناس ،
ليس أقل من عدم الاعتقاد في وجود الآلهة .

تأييد في العبارة مع غموضه أسباب :

٤٦ — وما حاجتى إلى الكلام عن أهل العياقة ؟ إن هذا عملك ،
وأرى أن واجب الدفاع عن استنباء الطيور سانحة وبارحه معاق في عنقك ،

(١) ربما كان « ل . فاليريوس فلاكوس » حاكم روما عام ٦٣ ق . م وقد تولى
شيشرون « الدفاع » عنه في قضية اختلاس عام ٦٠ ق . م (لوبي) وقد ناقش شيشرون
القصة التي رواها في الفقرة الأربعين من الكتاب الثانى .

فقد أنبأك الكاهن « أيبوس كلوديوس » Appius Claudius عند ما كنت قنصلا ، بأن الطيور قد أنبأت إبان السلام ^(١) ، بأن حربا أهلية عنيفة ضروسا توشك أن تحدثم ، وقد اشتعلت هذه الحرب بعد ذلك بأشهر قليلة ، ولكنك أخدمتها في أيام قلائل . ولاني لائق في تكهنات هذا الرجل ثقة كبيرة ، إذ لم يقنع بترداد العبارات الترتيلية في فن العياقة ، فوضع وحده نظاما صحيحا للتكهن بالغيب ، مستعينا في ذلك بالشواهد التي خلفتها الأعوام الطوال ، وأنا أعلم أن زملاءك يستخفون به ويعتبرونه موضع سخيرة ويسمونهم « بيسيديا » Pisidian حيناً و « سوراويا » Soran ^(٢) حيناً آخر ، ويأبون أن يسلخوا بأن العياقة قوة تمكن من سبق النظر أو معرفة المستقبل معرفة صحيحة ، ويزعمون بأن العياقة مهنة خرافية ، وقد اخزعها أهلها بمهارة لخداع الجبهة والسذج ، ولكن الحقيقة على خلاف ما يزعمون ، فلا أولئك الرعاة الذين تولى « روميلوس » حكمهم ، ولا روميلوس نفسه ، قد أوتوا من الدهاء ما يكفي لاختراع المعجزات التي يضللون بها الناس . . . إنه العناء والعمل المرهق الذي يتعرض له طلاب هذا الفن (العياقة) في تعليمه تعلما صحيحا ، هو الذي أغرى المنكرين بهذا الاحتقار البليغ ، لأن الناس يؤثرون أن ينكروا في ذلاقة استنباء الطيور سائحة وبارحة ، على أن يتحملوا مشاق تعليمه .

والآن أي شيء أوضح في دلالة على الأصل الإلهي أو استنباء الطيور من قصيدتك التي نظمتهما عنه ، وجعلت عنوانها « ماريوس » Marius

(١) لعياقة السلام قارن : Dio Cass. XXXVII. P. 40, Tac. Annal. xii, 23 وكان يمكن إجراؤها في أوقات السلام وحدها . والظاهر أنها كانت تنبئ عن إمكان صلاحية الصلاة للدولة أو عدم صلاحيتها ، ويشار هنا إلى مؤامرة « كاتيلين » Catiline (لويب) .

(٢) أي كنفلك للبيسديين وأهل سورا والثانية مدينة صغيرة في « لاتيوم » في توسكانيا — أي أتورريا — أما اليبسديون فكانوا يقفون حياتهم على استنباء الطيور . قارت الفقرة الأولى في الكتاب الأول هنا ، أما أهل سورا فقد اشتهروا بالخرافات (لويب وديماريه) .

إنى بهذا أستشهد بك — على قدر استطاعتي — كمرجع لى فى تأييد الرأى الذى أعتنقه (١).

٤٧ — أما عن فن العياقة الذى يعزى إلى « روميلوس » والذى أسلفت الحديث عنه ، فإنه كان فنا ريفيا وليس مدنيا ، ولم يتدعه « روميلوس » لينخدع به الجبهة ، بل تلقاه عن رجال موثوق بهم ، وقد سلموه إلى ذرياتهم من بعدهم ، ولهذا فإن « انيوس » يروى القصة التالية عن « روميلوس » وأخيه « ريموس » وقد كان كلاهما عيانا [ذلك أن كليهما قد احتكم إلى الآلهة عند تأسيس مدينة روما ، ولكن الشواهد التى رآها « روميلوس » قد تغلبت على شواهد أخيه] (٢)

٤٨ — فلنعد إلى مناقشة الرأى الذى جنح بنا الجدل بعيدا عنه : هب أنى لا أستطيع أن أقدم سببا يبرر ما أسلفت ذكره من أحداث التكن بالغيب ، وأنى لا أقوى إلا على بيان أنها وقعت على وجه التحقيق ، فأليس هذا جوابا كافيا « لا يبقو » و « كاريادس » ، وماذا يهم إذا كان شرح التنبؤ الصنعى سهلا ميسورا ، وتأويل التكن الطبيعى عسيرا نوعا ما ، لأن النتائج التى انتهت إليها ضروب التكن الصنعى عن طريق النظر فى الأحشاء والبرق ونذر الزجر والتنجم ، قد أسفرت عنها ملاحظات استغرقت زمانا طويلا ، وهذا الوقت المديد الذى تستغرقه الملاحظات المتصلة ، يمدنا فى كل ميدان من ميادين البحث ، بثروة تتجاوز الحد فى مجال المعرفة التى يمكن اكتسابها دون تدخل الآلهة أو وساطة إلهامهم ، مادام تكرار المشاهدة يوضح المعلول الذى يتبع كل علة ، ويبين عن الشاهد الذى يسبق وقوع الحادثة .

(١) نظم شيشرون هذه القصيدة الصغيرة فى شبابه المبكر — فى أهل العياقة — وقرظ فيها « مارنوس » الذى ولد — كشيرون — فى « أربنيوم » قارن شيشرون De leg 1.1. وقد تكلم عنها فى الكتاب الأول من قوانينه (لويب وديماريه) وخلاصة الشعر الذى أغفلنا ترجمته ، أن نسرأ نشب أطفاره فى ثعبان وطار به ، وأخذ الثعبان يتلوى وينهش لحم النسر حتى يضطره إلى تركه — وهو شعر سخيى يردده شيشرون طمعا فى تخليد اسمه كشاعر ، (فيجمع بين الشعر والنثر والخطابة والفلسفة) .

(٢) أنظر كتابي « قصة الكفاح بين روما « وقرطاجنة » ص ٢٨ — ٢٩ طبعة أولى ٩ المترجم

تأييد النبؤ الطبيعي

أما الصنف الثاني من ضروب النبؤ بالغيب فهو التكهّن الطبيعي — كما قلت من قبل — (١) وهو — استنادا إلى التعاليم الدقيقة في الفيزيقا — يجب أن يعزى إلى الطبيعة الإلهية التي صدرت عنها نفوسنا وفاضت فيما يقرر أحكم الفلاسفة ، والكون تغمره النفس الأبدية والعقل الإلهي ، ولهذا وجب أن تكون النفوس متأثرة باتصالها بالنفوس الإلهية . ولكن القاعدة تقر بأن الناس عند ما يكونون أيقاظا تستبد بنفوسهم مطالب الحياة اليومية ، فتبتعد النفوس بهذا عن الاتصال بالآلهة ، لأنها تكون مقيدة بحاجات البدن ومطالبه .

استبعاد التبريل العقلي من مجال التكهّن .

ومع هذا فإن هناك فئة من الناس — وإن قل عديدهم — يجردون أنفسهم من علائق البدن وشهواته ، ويتولاهم ميل قوى إلى التأمل في الشئون الإلهية ، وبعض هؤلاء الناس يلقون نبوءات ليست نتيجة لإلهام سماوي مباشر ، ولكنها صدى استدلالهم العقلية ، فمن ذلك أنهم يتنبأون — استنادا إلى قانون الطبيعة — بحوادث بعينها ، كالفيضان أو ما ينتظر أن يقع من تخريب النار للسموات والأراضين .

أما أولئك الذين غمرتهم شئون الحياة العامة بفيض تياراتها — كسولون Solon الأثيني (٢) ، فيما يصفه التاريخ — فانهم يكشفون ظهور البغي والعدوان قبل وقوعه بزمان طويل ، وقد يطلق على هذا الصنف من الناس « الذين أوتوا سبق النظر في المستقبل ، أي القادرون على معرفة المستقبل قبل تكشفه » ، ولكننا لا نستطيع أن نسميهم « كهانا » كما أننا لا نستطيع أن نسمى « طاليس » ،

(١) في الفقرة السابعة عشرة والثامنة عشرة من الكتاب الأول « لوبي » وانظر مناقشة شيشرون للرؤيا في الفقرة الثامنة والحسين من الكتاب الثاني .

(٢) قارن : Val Mex V.3.3, Diog Laert 1.48 (لوبي) .

Thales الملطي كاهنا ، لأنه — فيما تقول القصة المتواترة — أراد أن يثير حيرة نقاده ، وأن يبرهن لهم على أن الفيلسوف قادر على جمع المال إن رأى ذلك مناسباً له ، فابتاع محصول الزيتون في إقليم ملطية قبل أن يزهر^(١) وربما تراءى له استناداً إلى بعض معلوماته حول الموضوع ، أن غلة المحصول ينتظر أن تكون وافرة . وتقول بهذه المناسبة إنهم يقولون عنه إنه كان أول من تنبأ بكسوف الشمس الذي وقع في حكم « استياجس » Astyages^(٢) .

٤٩ — وفي الكثير من الحالات يتنبأ الأطباء وأدلاء السفن والفلاحون بأمور تتكشف بعد ، ولكن لا أسمى تكهناتهم جميعاً تنبؤاً بالغيب ، ثم هذا الفيلسوف الطيبي « أناكسيماندر » Anaximander قد أُنذر الاسبرطيين بأن يارحوا مدينتهم ، ويتركوا بيوتهم ، ويناموا في الحقول مسلحين ، لأن زلزالاً يوشك أن يقع ، ووقع الزلزال بعدئذ ، وأصاب بالتخريب المدينة كلها وهدم جزءاً من جبل « تايجهتوس » Taygetus كما تحطم مؤخر سفينة وسط زوبعة عاصفة ، بل إن « فريكايديس » Pherecydes صاحب الصيت الطائر الذي علم

(١) قارن أرسطو Polit 1.11 و يروى « بلاني » هذه القصة نقلاً عن ديمقريطس . قارن Pliny Hist. Nat. 11. 28 « لويب » ويضيف مترجم جارييه أن « بلوتارك » يقول في كتابه « حياة سولون » إن هذا المشرع قد تنبأ بطغيان « يزاستراتوس » وأن « فانيروس مكسيبوس » يقول إن سولون كان الوحيد الذي جرؤ على أن يعلن ضرورة منعه بقوة السلاح من تنفيذ مشروعه ، وأن هذا يتفق مع ما يقوله « بلوتارك » ومع ما يرويه ديوجانس اللايرتي « ج ١ ص ٤٩ » — وأما فيما يتصل بالنظر العقلي الذي يضاف إلى « طاليس » الملطي فإن المؤلف الذي احتداه شيشرون ربما كان « أرسطو » في السياسة — كما أشرنا في تعليق مترجم لويب في مستهل هذا الهامس . إلا أنه لم يكن دقيقاً فيما نقل ، فإن « أرسطو » لم ير أن طاليس قد ابتاع محصول الزيتون كله ، بل أجره سلفاً بإعطائه عربوناً بسيطاً .

(٢) إن الكسوف الذي تنبأ به « طاليس » والذي يحتمل ألا يكون قد استخدم لمعرفة حساب العلماء ، بل اعتمد في اكتشائه على الخبرة والتجربة ، يبدو أنه هو ذاك الذي وقع عام ٨٥٠ ق . م . ويقول « هيرودوت » في الفصل الرابع والسبعين من الكتاب الأول إن طاليس قد تنبأ للأيونيين بالعام الذي يمكن أن تقع فيه هذه الظاهرة السماوية (جاريته) .

« فيثاغوراس » Pythagoras لا يعتبر نبيا ، بقدر ما يعتبر فيلسوفا طبيعيا ، لأنه تكهن بوقوع زلزال استنادا إلى ظهور مياه تنفجر من بئر لا تفيض (١) .

التفسير العقلي للتنبؤ بالمس (المحنة)

ومن المحقق أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تتكهن بالغيب تكهنا طبيعيا إلا إذا كانت من الحرية وعدم التقيد بحيث لا تتصل بالجسم إطلاقا ، كما يقع ذلك في حالة المس والأحلام . ولهذا قرر هذين النوعين من التكهن « ديكياركوس » Dicaearchus وكذلك صديقه كراتيپوس ، Cratippus فيما ذكرت من قبل . فلنسلم بأن هاتين الطريقتين أسمى ما عرف من ضروب التكهن بالغيب ، لأنهما تصدران عن الطبيعة رأسا ، بيد أن لا نسلم بأنهما كل ما عرف من ضروب التنبؤ . ولكن إذا كان « ديكياركوس » و « كراتيپوس » يعتقدان من جهة أخرى بأن التكهن القائم على الملاحظة لغو وعبث ، فانهما يقرران بذلك نظرية تهدم الأساس الذي يقوم عليه الكثير من شئون حياتنا اليومية . بيد أن هذين الرجلين يسلمان معنا بعض التسليم بالتكهن عن طريق المس والأحلام ، وليس هذا بالشئ الهين العسير ، ولهذا فاني لا أجد مبررا يحمل على إثارة المناقشة الحارة العنيفة في وجههما ، ولا سيما وأن هناك فلاسفة يأبون التسليم بكل ضروب التكهن بالغيب ، مهما يكن أمرها .

وإذن فهؤلاء الذين تتجرد نفوسهم من علائق أجسادهم ، يخلقون بأجنحتهم خارج أبدانهم ، وقد اضطربت نفوسهم واحتاجت بنوع من العاطفة ، أقول إن هؤلاء الناس يرون على وجه التحقيق الأشياء التي يتكهنون بها في نبوءاتهم ، مثل هذه النفوس لا تعلق بالأبدان ، وهي تضطرم بكثير من مختلف التأثيرات ، فمن ذلك أن بعضها تهيجه بعض الألحان ، كالأغاني التي يترنم بها أهل « فريجيا » ، والكثير منها تهيجه الغابات والأحراج ، وبعضها تهيجه الأنهار والبحار ، وأنا أعتقد بأن هناك أبخرة تكمن في باطن الأرض ، تلهم الناس الوحي ، وفي كل هذه الحالات ترى النفس التي اعترأها المس المستقبل

(١) دل مظهر المياه على الاضطراب الباطني . قارن بلايني في : Hist. Nat. 11.83 .

قبل تكشفه بزمان طويل، كما رأته « كساندرا »، في حادثة باريس وعودة هيلين (١).

في مثل هذه الحالة من سمو النفس، قيل الكثير من ضروب النبؤات ولم يتبدت في النثر وحده، ولكنه ظهر كذلك.

[شعرا كانت تغنيه قديما آلهة الرعاة وينشده السكهان] (٢).

ونلاحظ أيضا أن «ماركيوس» Marcius و«بوبليكيوس» Publicius (٣) قد أعلنوا نبوءاتهم شعرا — فيما تقول القصة المتواترة — وبنفس هذه الطريقة قد أعلنت نبوءات « أبولو » الخفية (٤).

التفسير العقلي للنبؤ عن طريق الرؤيا

٥. — « هذا هو التفسير النظري العقلي للنبؤ عن طريق المس، أما التنبؤ عن طريق الرؤيا فانه لا يختلف عنه كثيرا، لأن الوحي الذي ينزل بالرائين وهم أيقاظ، يهبط علينا ونحن نيام، فعندما تنام ويسجي الجسم كأنه جثة هامدة فارقتها الحياة، تكون النفس في أعظم حالاتها، لأنها تكون عندئذ قد تحررت من علائق الحواس البدنية، وتخلصت من الشئون الدنيوية التي تثقل كاهلها. ولما كانت النفس قديمة أزلية، وكان يعرض لها الحديث مع نفوس أخرى لا يحصيها العدد، فانها ترى كل ما يجري في الطبيعة، بشرط

(١) تتحدث « كساندرا » في أبيات قد أهملنا ترجمتها لستأقننها عن حكم « باريس » وعودة « هيلين ». وناظم الأبيات غير معروف (لوب) وانظر الفقرة الخامسة والخمسين من الكتاب الثاني.

(٢) من « أنيوس » في حولياته ج ٧ ص ٢ (لوب).

(٣) ذكر « بوبليكيوس » مرة أخرى في الكتاب الثاني في الفقرة الخامسة والخمسين ولا شيء يعرف عنه سوى هذا (لوب).

(٤) ربما كانت « نيمفس » Nymphes إلهة المياه والغابات هي مصدر الإلهام الرئيسي عند المجاذيب من الرئين والرائيات معا، وإلى جانبها « ديونيسبوس » رفيقها ورضيعها — إذا جاز أن نقول ذلك — وهو ابن زيوس والأرض (جارتيه) وأظن الفقرة الخامسة والخمسين من الكتاب الثاني.

أن يلتزم المرء الاعتدال وكبح شهواته في المأكل والمشرب، فإن النفس تكون عندئذ في حالة يقظة، بينما يعترى الجسم النوم — هذا هو تفسير التكهن عن طريق الرؤيا .

نظرية أنتيفون Antiphon

تعبير الرؤيا

ومن الملائم أن نذكر الآن نظرية « أنتيفون »^(١) الشائعة في تأويل الأحلام، وهو يرى أن التأويل يعتمد على المهارة الفنية ولا يستند إلى الإلهام . وكان يعتقد مثل هذا الرأي بصدد تأويل النبوءات التي يكشف عنها الوحي أو ينطق بها من اعترافهم المس، إذ لكل من هذه الصور مؤولون، كما أن للشعراء شراحاً .

مبررات تعبير الرؤيا : غموضها

ومن البين أن الطبيعة الإلهية لا تكون قد أدت عملاً مجدياً، إذا كانت قد اقتصرت على خلق الحديد والنحاس والفضة والذهب، دون أن تكشف لنا عن العروق التي تجثم فيها هذه المعادن، إن نعمة غلات الحقول وفاكة الحدائق، كانت تصبح عديمة النفع للبشر إذا لم تكن على علم بطريقة زراعتها، وكيفية إعدادها للطعام، ولا يفيد الناس شيئاً من مواد البناء (الخشبية)، إذا لم تحولها صناعة النجار إلى خشب مهيأ للاستعمال، وهكذا الحال مع كل شيء منحتة الآلهة لمصلحة الجنس البشري، فإنهم منحونا فناً أو صناعة تمكننا من استخدامه لصالحنا، ومثل هذا يقال في الأحلام والنبوءات والوحي، إذ أن الكثير منها يشوبه الغموض، ويعترينا الشك في أمره، ولهذا وجب أن نلجأ إلى مهارة المحترفين من المؤولين .

(١) قارن الفقرة العشرين من الكتاب الأول (لويب) وانظر هامش الفقرة السبعين من الكتاب الثاني عن أنتيفون .

العناية الأولية بأفراد الشعب :

وثمة مشكلة عويصة بصدد الطريقة التي بها يتمكن الأنبياء وأهل الرؤيا الصادقة من أن يروا الأشياء التي لا يكون لها في نفس الوقت وجود فعلي في مكان ما ، ولكن هذه المشكلة يسهل حلها متى استقصينا بعض المسائل التي تتطلب التبصر بآدى الأمر ، لأن النظرية التي تناولت فيها طبيعة الآلهة ، وأحسننا مناقشتها في الجزء الثانى من كتابك الذى وضعته عن هذا الموضوع ، تتضمن هذه المشكلة كلها ، فاذا قررنا هذه النظرية ، فإننا نقر نفس النقطة التي أحاول الآن علاجها ، وهى : « أن هناك آلهة ، وأنهم يهيمنون على الكون بما لهم من سبق النظر فى المستقبل ، وأنهم يدبرون شئون الناس ، ولا أعنى الناس جملة فحسب ، بل أقصد كل فرد منهم على حدة ، فاذا وفقنا فى تقرير هذا رأى - وهو رأى متمسك فيما أظن - أسفر هذا - على وجه التحقيق - عن الاعتقاد بأن الآلهة تقدم للناس شواهد تنبئ عن الحوادث المقبلة .

٥١ - ولكن من الضروري - فيما يلوح - أن نقرر الأساس الذى تستند إليه هذه الشواهد ، إذ أن الآلهة - فيما تقرر نظرية الرواقيين - لا يحملون مباشرة تبعة كل شق يجرى فى كل كبد ، أو كل أغنية يترنم بها طائر ، إذ أن من البين أن هذا أمر لا يليق بالإله ولا يتفق مع جلاله ، ثم إنه فوق هذا أمر مستحيل ، ولكن الكون قد خلق أول الأمر على هذا النحو ، حتى أن بعض النتائج ينبغى أن تسبقها شواهد بعينها ، تكشف عنها الأحشاء والطيور حينما ، ويبين عنها البرق ونذر الزجر وأحكام النجوم حينما آخر . وتوضحها الرياؤيا الصادقة تارة ، ونبوءات من تعترهم الجنة تارة أخرى ، وهذه الشواهد فى أغلب حالاتها لا تخدع الذين يلتزمون الدقة فى ملاحظتها ، فاذا تحقق كذب النبوءات التي تستند إلى استدلالات فاسدة ، وتأويلات باطلة ، فإن الخطأ فى هذا لا يعزى إلى الشواهد ، ولكنه يرجع إلى نقص فى مهارة المؤول .

موقف الآلهة من التكهن الصنعى :

فاذا اقترضنا صحة القضية التى تقرر وجود قوة إلهية تتغلغل فى حياة الناس ، فليس من العسير أن تتصور المبدأ الذى يهيمن على ما نلاحظ وقوعه من شواهد منذرة ، فقد تشرف على اختيار الضحية التى تقدم قربانا ، قوة عاقلة تشيع فى الكون كله ، أو ربما يقع فى اللحظة التى تقدم فيها الضحية تغييره يصيب أحشاءها ، وقد يضاف إليها أو ينزع منها شيء ما ، يشهد بهذا ما نلاحظه من وقوع مثل هذه التغيرات فى لحظة قصيرة ، وأعدل شاهد يمكن لهذه الحقيقة ويرفعها فوق كل شيء ، يبدو فى حوادث وقعت قبيل مصرع قيصر Caesar إذ كان يقدم القرايين فى اليوم الذى استوى فيه لأول مرة على عرش ذهبي ، وظهر فى بداية الأمر أمام الجمهور فى ثوب أرجوانى ، فلم يجدوا أثناء ذلك قلبا فى أحشاء الثور الذى تذروه^(١) ، فهل تظن أن من الممكن لآى حيوان يجرى الدم فى شرايينه أن يعيش بغير قلب ؟ ولكن قيصر لم تثره الحادثة ، بل لم يكثرث بنذير « سبورينا » Spurrina^(٢) الذى حذره لياخذ حيطته ، مخافة أن ينضب معين فكره ويغضب فيض حياته ، وكلاهما — فيما قال — يصدر عن القلب . وفى اليوم الثانى لم يجدوا لكبد الضحية رأسا ، وقد بعث الآلهة المخلدون بهذه النذر المشؤمة إلى « قيصر » ليرى مصرعه قبل وقوعه ، لا ليتمكن من انتقاء شره ، وعلى هذا فان هذه الأعضاء التى لا تستطيع أن تعيش الضحية بدونها ، إذا عزت وجودها فى الأحشاء ، وجب أن نفهم من هذا أن هذه الأعضاء قد اختفت فى نفس اللحظة التى يذبح فيها الحيوان قربانا .

٥٢ — إن الإرادة الإلهية تودى فى حالة الطيور إلى نتائج مماثلة للنتائج السالفة ، فتنهى بالطيور التى تكشف بطيرانها عن الفأل والطيرة ، إلى أن

(١) قارن « بلايني » Hist. Nat. XI. 71 وفاليروس ماكسيموس Plut., Val. Max

Caes 1.6.13 (لويب) .

(٢) كان العراف الذى أنذر قيصر أن يحذر منتصف شهر مارس . قارن : Suet. Iul.

Caes. 81 (لويب) .

تخلق في فضاء الجو هنا وهناك ، وتختفى في هذا المكان حيناً ، وفي ذاك حيناً آخر ، وهذه الإرادة نفسها هي التي تُفَضَّى بالطيور التي تكشف بصياحها عن الزجر^(١) ، إلى أن تغرد على اليسار حيناً ، وعلى اليمين حيناً آخر ، إذ لو كان كل طائر يتأمن في طيرانه أو يتياسر حسب إرادته ، أو يندفع إلى الأمام أو يتراجع إلى الوراء وفقاً لرغبته ، لكان يثني أعضائه وينحرف بها ، ويبسطها ويقبضها كيفابداً له ، ولكان يؤدي هذه الحركات المختلفة بطريقة تكاد تكون آلية ، ولكن ما أسهل أن يهيمن على هذه الحركات إله ، ينصاع لإرادته الإلهية كل شيء . وهذه الإرادة نفسها ترسل إلينا شواهد قد حفظ منها التاريخ كثيراً ، فمن هذا الذي سجله التاريخ تلك الأحداث :

خسف القمر قبيل طلوع الشمس عند برج الأسد ، فدل هذا على أن « داريوس » Darius والفرس سينهزمون في معركة أمام المقدونيين الذين يتولى إمرتهم الإسكندر^(٢) ، وأن داريوس سيلقى حتفه .

(١) الطيور التي تكشف الطالع بطيرانها (alites) كالنسر والصقر والباز الأصلع ونحوه أما التي تكشف الطالع بأصواتها (Oscines) فكالغراب واليوم ونحوه — قارن Festus ص ١٩٣ فيما يقول مترجم لوبيب ويضيف مترجم جاريثيه إلى هذا القول أن النظرية التي يعرضها « شيشرون » في هذه الفقرة تكاد تشبه نظرية سقراط التي يرويها اكسانوفون (Memorable, 1,1,3) حين يقول : إنها ليست الطيور نفسها هي التي تعرف وجه النفع ، وليست الأحداث العرضية هي التي تنطوي بنفسها على معرفة شيء ما ، ولكنها الآلهة ، تستخدم شواهد مختلفة ، وربما استخدمتها بلفظة ملائمة لتحذير الناس . ويتحدث « كلبان الأسكندري » (في Protrepition) عن الأشقياء الذين يعتقدون بأن الله يمكنهم من العلم بالأمور عن طريق طيور يعينها . ويقول : Contra Celsum IV, 360 إن القائلين بهذا ليسوا على اتفاق فيما بينهم ، إذ يعتقد البعض بأن آلهة أو شياطين تشرف على حركات الطيور بطريقة ما (وهذا هو رأي كوتوس) أو تضطرها إلى إخراج أصوات معينة بطريقة تمكن الناس من العلم بأمور يعينها . ويعتقد غير هؤلاء أن نفوس الحيوانات تنطوي على شيء إلهي يجعلها قادرة على المعرفة المفيدة ، ويضيف أوريجان Origène إلى هذا قائلاً إن هذه النظرية لا أساس لها من الحقيقة فيما يلوح .

(٢) تستطيع أن تربط ما يقوله « كوتوس » هنا بالفقرة التي ذكر فيها Quinte—Curce (في الكتاب الرابع في الفصل العاشر) أن الأسكندر قد توقف يومين على ضفة نهر النيجر ، ونصر خسوف القمر الرعب في جيشه ، فاستدعى الملك كهنسة مصريين يحسنون معرفة العلة الطبيعية لكل ظاهرة طبيعية ، ولكن المصريين أرادوا أن يطمئنوا المقدونيين فقالوا لهم : إن الشمس للأغريق ، والقمر للفرس ، وخسوف القمر يهدد الفرس بتكبة تحقيق بهم (جاريثيه) .

ومن هذه الأمثلة أن طفلة ولدت برأسين ، فكان هذا تنبؤاً بفتنة تثار بين الشعب ، وغواية وزنى يقع في بيتها .
ومن هذا أيضاً أن امرأة رأت في منامها أنها وضعت أسداً ، فكان تأويل هذا أن المملكة التي وقع فيها حلمها ستغزوها شعوب أجنبية عنها .
ومن أشباه هذا حادثة يرويها « هيرودوت »^(١) ، ذلك أن ابن « قارون » ، Croesus قد تكلم وهو لا يزال في المهد صبيّاً ، فكان تأويل هذا الخارق أن أباه سيفقد مملكته ، وأن أسرته ستقتوض .
وأى مؤرخ فاته أن يسجل تلك الحقيقة التي تقرر بأن « سرفيوس توليوس » : Servius Tullius عندما اعتراه النوم اشتعل رأسه ناراً . ؟ وكما أن الإنسان تكون أحلامه صادقة واضحة متى تهيأ للنوم وقد غدت الأفكار النبيلة عقله ، واتخذ كل حيلة تكفل راحته ، فكذلك يكون عند يقظته ، أكثر استعداداً لإجادة التأويل الصادق في تنبؤات الأحشاء والنجوم والطيور وسائر الشواهد متى كانت نفسه نقية غير مدنسة .

الوهمي الألهي عند سقراط يؤيد التكريم الطبيعي :

٥٣ — وليس من شك في أن هذا الصفاء الذي تمتاز به النفس ، هو الذي يفسر لنا هذه الكلمة المشهورة التي يعزوها التاريخ إلى « سقراط » ، والتي كثيراً ما يصوره تلامذته في كتبهم وهو يرددها مكرراً : « إن هناك شيئاً إلهياً — ذلك هو الذي أطيعه دوماً ، ورغم أنه لا يدفعني إلى عمل ما ، فانه كثيراً ما يمنعني من الإقدام على عمل ما » .
وقد كان سقراط نفسه — وأى مصدر أوثق منه نستطيع أن نقبس عنه — كان هو الذي استشاره « اكسانوفون » ، Xenophon^(٢) في أن يذهب في إثر « كايروس » Cyrus وبعد أن أشار سقراط بما بدا له خيراً ، قال له : ولكن

(١) هيرودوت ج ١ ص ٨٥ (لوب) .

(٢) قارن اكسانوفون في : Anab. III. 1.4 (لوب) .

رأى ليس إلا رأى بشر ، وإنى أنصح بأن يستشار وحي أبولو في الأمور التي تشير الشك وتدعو إلى الحيرة . وقد كان هذا الوحي كثيرا ما يستشيرهُ الأثينيون في شئونهم العامة الجديدة .

ويروى عن سقراط أنه رأى ذات يوم صديقه « أقريطون » ، Criton وقد عصب عينه برباط ، فقال له مستفسراً : « ماذا دهاك يا أقريطون ؟ » فأجابه هذا قائلاً :

« بينما كنت أتجول في الريف ، إذ بغصن شجرة مُسْنَحْن قد انطلق وأصاب عيني ، فقال سقراط : « هذا معقول ، لأنك أبيت طاعتي عند ما أرسلت في طلبك لتعود من حيث كنت ، استناداً إلى النذير الإلهي الذي اعتاد زجرى » . ويروى عن « سقراط » كذلك أنه فر في ركاب قائده بعد انتهاء المعركة المشهومة التي وقعت في « دليوم » ، Delium تحت إمرة « لاشز » ، Laches فلما بلغوا مفرق طرق ثلاث ، أبى سقراط أن يسلك الطريق التي اختارها الآخرون ، ولما سئل عن سبب رفضه أجاب قائلاً : « إن الله يزجرني عن ذلك » . أما الذين سلكوا الطريق الأخرى فقد وقعوا أسرى في يد فرسان العدو^(١) . وقد جمع « أنتيباتر » ، Antipater مجموعة من النذر المعروفة التي كان « سقراط » يتلقاها ، ولكني سأهمل ذكرها لأنك على علم بها ، وليس من المجدي أن أعيد روايتها . ولكن الكلمة التالية^(٢) التي أعلنها هذا الفيلسوف عند ما صدر الحكم الأثيم بموته ، تعتبر مثلاً نبيلاً ، أكاد اعتبره إلهياً ، إذ قال :

« إنى لمغتبط لهذا الموت كل الاغتياب ، إذ أن الله لم يعطني شارة عندما بارحت دارى ، ولا عند ما اعتليت هذه المنصة لأتولى الدفاع عن قضيتي ، ومن عادة الإله أن يعطيني هذه الشارة كلما هددني الشر » .

(١) يلاحظ أن بلوتارك في مؤلفه الوجيز الذي يتحدث فيه عن شيطان سقراط ، يسهب فيما يبرز فيه « شيسرون » هنا (لويب) .

(٢) قارن أدلاطون ، في الفقرة الحادية والثلاثين من محاوره الدفاع (لويب) .

هـ — ولهذا فاني أرى أن القدرة على التكهن بالغيب قائمة ، مع أن من المحقق أن هؤلاء الذين يعتمدون على الصنعة أو الحدس ، كثيراً ما يعترفهم الخطأ ، ولكنني أعتقد أن الناس كما يستهدفون للخطأ في شتى الحرف ، فكذلك حالهم إزاء التنبؤ بالغيب ، فقد يحدث أن يقبل الكاهن شاهداً مشكوكاً في أمره ، باعتباره شاهداً يقينياً ، ومن الممكن كذلك أن تفوت الكاهن ملاحظة الشاهد ، أو إهمال شاهد آخر يلغى الشاهد الذي كان قد لاحظته .

ولست محتاجاً إلى إقرار القضية التي أناقش في أمرها ، إلى كثير من المثل ، بل حسبي أن أجد القليل منها ، يصور نبوءات ونذرا كانت صدى لإلهام إلهي ، فاني إذا عثرت على مثال واحد من هذا النوع ، وكان الاتفاق بين التكهن والشئ المتنبأ به قوياً بحيث يستبعد معه كل احتمال للمصادفة أو الاتفاق العرضي ، فاني لا أنردد في أن أقول في مثل هذه الحال : إن التكهن بالغيب قائم لا محالة ، وأن من واجب كل امرئ أن يسلم بوجوده .

مصادر التكهن :

ولهذا فان من الضروري فيما يلوح — أن نقفدي بـ « بوسيدونيوس » ، Posidonius ، ونرد المبدأ الجوهري الذي يقوم عليه التكهن بالغيب إلى ثلاثة مصادر :

أولها : الإله ، وقد أسلفنا مافيه الكفاية في مناقشة علاقته بهذا الموضوع .
وثانيهما : القدر^(١) ، وثالثها : الطبيعة .

القضاء والقدر في مجال التكهن :

وإن العقل ليحملنا على التسليم بأن كافة الأشياء تحدث قضاء وقدرأ ، وأقصد بالقضاء ما يعتبره الإغريق : « تابعا منظما للعلل ، وارتباطاً يقوم بين كل علة

(١) والقدر كذلك ثلاث إلهات عند القدماء هن « كلوتو » و « لاشيزوس » و « أتروپوس » وهن اللاتي يحددن مولد الناس وحياتهم وموتهم .

وأخرى ، وتفضى كل منها في ذاتها إلى معلول ، وتلك حقيقة أبدية أزلية . وعلى هذا فان شيئاً لم يحدث إلا وكان وقوعه أمراً لا مناص منه ، ولن يقع في مقبل الأيام أمر ، دون أن تكون له في الطبيعة علة تكفى في تبرير وقوعه ، ونحن تعلم بالتالى أن القدر هو الذى تسميه لغة العلم — لا لغة الجهل — العلة الأزلية الأبدية في وقوع الأشياء . « فهى علة الأشياء في الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل » . ومن ثم فقد يتمكن المرء بالملاحظة من أن يعرف أن معلولا بعينه يتبع فى حالات كثيرة علة بعينها ، وإن لم تضح العلة فى بعض الحالات ، إذ أن من الإسراف القول بوضوح هذه العلة فى كل حالة ، ومن المحتمل أن يدرك الذين يعترهم المس أو تترامى لهم الأحلام وهم نيام ، تلك العلة عند ما تفضى إلى وقوع الأحداث المقبلة .

٥٥ — ثم مادامت جميع الأشياء تقع قضاء وقدرأ — كما سنبين فى مكان آخر (١) — فانه متى وجد إنسان تستطيع نفسه أن تميز الحلقات التى تربط العلة بعضها ببعض ، فان من المؤكد أنه لا يخطئ فى أى تكهن يحتمل أن يقوله ، لأن الذى يعرف العلة التى تفضى إلى الأحداث المقبلة ، يعرف بالضرورة ماذا تكون كل حادثة قادمة ، ولكن مثل هذه المعرفة لا تنهى لغير الله ، وما يتبقى للإنسان بعد هذا إنما هو الهجس بالمستقبل استناداً إلى شواهد خاصة ، تنبئ بما يتبعها من أحداث ، والأشياء التى لا مناص من وقوعها لا تظهر إلى الوجود على غير انتظار ، فتطور الزمان يشبه فك أسلاك التف ب بعضها حول بعض ، فان هذا التطور لا يخلق شيئاً جديداً ، ولكنه يربط كل حادث فى مكانه . « وهذه العلاقة القائمة بين العلة والمعلول ، واضحة لصنفين من مدركى الغيب ، لأولئك الذين وهبوا التكهن الطبيعى ، وأولئك الذين يعرفون مجرى

(١) حقيقة النص اللاتينى هنا مشكوك فى أمرها السبين : (١) أن فيما بقى لنا من كتاب (شيشرون) عن « القدر » نجد عكس ما يقال فى هذا النص السالف (٢) ولأن ألفاظ النص تدل على أن ماركوس شيشرون يتصور أنه هو نفسه المتكلم ، وينسب — مؤقتاً — أن المتكلم إنما هو كوتوس ، إلا أن المخطوطات تؤيد هذا النص (لوبيس) .

الأحداث بملاحظة شواهدا ، وقد لا يرون العلل نفسها ، ولكنهم يرون شواهدا ، ويتبينون آيات عللها ، والملاحظ أن الدراسة الدقيقة مع جميع هذه الشواهد ، والاستعانة بالأدلة التي خلقتها العصور القديمة ، قد أبانت عن هذا النوع من التكهّن المعروف بالصنعي ، وهو الذي يقوم على معرفة الغيب عن طريق النظر في الأحشاء والبرق والنذر الزاجرة والظواهر السماوية .

ولهذا فليس بدعا أن يهجن مدركو الغيب بأشياء لا وجود لها في العالم . المادى إطلاقا ، لأن جميع الأشياء موجودة ، وإن غابت عن الوجود في فترة معينة ، وكما أن البذر قد كُنت فيه نواة ما ينتجه من نبات ، فكذلك الحال في العلل ، قد كُنت فيها حوادث المستقبل التي يكشف العقل أو الحدس وقوعها قبل حدوثه ، أو تراه النفس متى أدركها الإلهام عن طريق المس ، أو عند ما تتحرر من قيودها إبان النوم ، والذين لاحظوا مرارا أن الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى في مستقر لها ، وعرفوا شروقها وغروبها ودورانها (١) ، يستطيعون أن يتنبأوا بموقع كل كوكب من هذه الكواكب في وقت محدد ، قبل أن يستقر الكوكب في موقعه بزمان طويل ، ومن الممكن أن يقال هذا نفسه عن أولئك الذين تناولوا جريان الحقائق وعلاقة الحوادث بالدراسة والملاحظة فترة طويلة من الزمان ، لأنهم يعرفون على الدوام كيف يكون المستقبل ، أو إذا كان هذا التعبير أقوى مما ينبغي ، فلنقل إنهم يعرفون ذلك في معظم الحالات ، فاذا لم تسلم بهذا التعبير أيضا ، فمن المؤكد أنهم يعرفون في بعض الأحيان على أى وجه سيكون المستقبل ، وقد أحدث وجود التكهّن بالغيب — مع حجج قليلة أخرى من نفس النوع — هذه الدلالة التي قامت على فكرة القدر .

طبيعة النفس الانسانية كصدر للشركن :

٥٦ — ثم إن التنبؤ بالغيب يجد سندا قويا آخر في الطبيعة ، التي تبين

(١) كان المعتقد عند صدور هذا الكتاب — في القرن الأول قبل الميلاد أن الأرض ثابتة لأنها مركز الكون ، وأن الشمس وسائر الكواكب تدور حولها .

عن مقدرتها على التمكن بالغيب عند ما تتجرد من علائق الجسد، وذلك ما نراه بوجه خاص إبان النوم، أو في الأوقات التي يعتري النفس فيها منس أو إلهام. وكما أن نفوس الآلهة يفهم بعضها بعضا، وتدرّك ما يفكر فيه كل منهما، دون الاستعانة بعين أو أذن أو لسان، إلى حد أن الناس لا يشكون في أن الآلهة تعلم أمرهم حتى عند ما يؤدون لها الصلوات الصامئة ويقدمون التذرع في غير جلبة، فكذلك الحال في نفوس البشر، فهي عند ما تتحرر بالنوم من علائق البدن، أو حينما يحركها الإلهام، وتتخلص من أهوائها، ترى الأشياء التي كانت لا تقوى على رؤيتها وهي مقيدة بروابط الجسد، وقد يتعذر علينا أن نطبق مبدأ الطبيعة هذا، في تفسير ذلك النوع من التمكن الموسوم بالصنعي، ولكن «بوزيدونيوس» الذي يتعمق في دراسة الموضوع ما استطاع إنسان إلى ذلك سيلا، يظن أن الطبيعة تقدم للإنسان شواهد معينة تفي عن حوادث المستقبل، ولهذا يروي «هراقليدس»، — من أهل بوتوس Hiraclides of Pontus — أن العادة قد جرت عند أهل «كويس» Coes بأن يلاحظوا — ملتزمين الدقة في ملاحظتهم — ظهور نجم الشعري مرة في كل عام، ويحدثون امتنادا إلى هذه المشاهدة بما إذا كانت السنة التالية ينتظر أن تدر على الناس صحة وعافية، أو تنزل بهم أمراضا مهلكة، إذ أن النجم إذ ظهر كدرا محوطا بالضباب، دل هذا على ما ينتظر من جو ثقيل كثيف يبعث أبخرة لا تلائم الصحة إطلاقا، فإذا ظهر النجم واضحا مضيئا، كان هذا شاهدا على أن الجو سيكون خفيفا ونقيا، وبالتالي سيكون مؤديا إلى الصحة الجيدة.

ويوضح «ديمقريطس»، — الذي عبّر عن رأيه بأن القدماء كانوا حكماء حين أقرروا النظر في أحشاء الضحايا — أن لون الأحشاء وحالتها العامة — فيما يظن «ديمقريطس»، — تنبئ بالصحة تارة وبالمرض تارة أخرى، وتكشف في بعض الأحيان عما إذا كانت الحقول سيصيبها المحل والإجداب، أو تدرّكها الخصوبة والإنتاج، ثم إذا كانت المشاهدة والتجربة تقرران بأن هذه الطرق

تنحدر في أصلها إلى الطبيعة ، فينبغي أن تكون المشاهدة التي استغرقت مدة طويلة ، والأدلة التي خلفها لنا الزمان المديد ، قد أضافت إلى معلوماتنا عن الموضوع شيئاً كثيراً ، ومن ثم يبدو أن هذا الفيلسوف الطبيعي الذي قدمه « باكوفوس » Pacuvius في روايته « كرايزس » Chryses كان يعوزه فهم قوانين الطبيعة فهما صحيحا عند ما قال :

« إن الذين يفهمون حديث الطيور ، ويعرفون من أكباد الحيوانات أكثر مما يعرفون من أكبادهم^(١) ، كانوا يحسنون صنعا — فيما يلوح — لو أنهم استمعوا لكل ما يقال في ذلك دون أن يعملوا به » .

ولست أدري لماذا يقول هذا الشاعر مثل هذا الكلام ، مع أنه يقول في وضوح تام بعد ذلك بأبيات قليلة :

« مهما تكن حقيقة هذه القوة^(٢) أو كنهها ، فانها تهب الحياة وتخلق وتشكل الأشياء ، وتزيدها وتغذيها ، وإليها مرجع كل شيء ، فهي أصل كل الأشياء جميعها منها يخرج كل شيء وإليها يعود كل شيء... » .

وقال كوتوس : « هذا هو كل ما ينبغي أن أقوله عن التكن بالغيب » .

سهرابمة الدماليين والمرترقة منه مدعى الكهانة :

٥٧ — ولكنني أعلن في نهاية حديثي أني لا أقر الذين يتكهنون بمحظوظ الناس ، ولا الذين يتنبأون طمعا في المال ، ولا الوسطاء ولا الذين يستدعون أرواح الموتى ويستفسرون منها عن الغيب^(٣) . وإن كان صديقك « أيوس » ،

(١) كثيراً ما يتحدث عنها كمرکز للانفعالات ، ولكنه يتحدث عنها هنا كمرکز للعقل (لويب) .

(٢) يشير هنا إلى الأرض ، ويخلع عليها شخصية إله العالم الأرضي . قارن « شيشرون » N.D. 11.26.68 (لويب) .

(٣) حفلت روما بأهل التنجيم والكهانة ممن كانوا يستغلون سرعة التصديق عند طغام الناس — ويرى « شيشرون » ألا يخلط بين أخيه « كوتوس » وأولئك الذين يخدعون بدجل المرتقة ومدعى الكهانة (جارنييه) .

Appius^(١) يستعين بهم ، لأن هؤلاء لا يعتبرون من مدركي الغيب لا بالمعرفة ولا بالمهارة^(٢) .

[لا قيمة عندى لعراف مارسي أو عياف قروي أو منجم يختلف إلى الملعب أو مفسر أزيبي أو معبر أحلام] لأن هؤلاء لا يتنبؤون عن علم أو صناعة [ولكنهم كهان خرافات ، وعرافون قد ذهب ماء وجوههم ، فهم كسالى أو مجانين أو أرباب عوز وحاجة ، إنهم لا يعرفون الطريق ، ولكنهم رغم هذا يرشدون إليه الناس ، يعدون الناس بالثراء ، ومع ذلك يسألونهم درهما ، فليأخذوا الدرهم من الثروة التي وعدوا ، وليردوا ما بقي منها بعد ذلك] .
ذلك هو نص ما يقوله « إنيوس » الذي يشرح قبل هذا بأبيات قليلة^(٣) الرأي الذي يقرر وجود الآلهة ، ومع ذلك يقول بأن الآلهة لاتعبأ بما يفعل البشر .
وأما من جهتي فاني أعتقد أن الآلهة تهتم بالإنسان لا بحالة ، وأنها تلقى إليه بالنصح والتحذير ، ولهذا فاني أعتقد بالتكهن الجدي الصادق ، ذلك الذي خلا من الزيف ، وبريء من الخداع والاحتيال .

فلما فرغ « كوتوس » من حديثه قلت له : [لك جئت يا عزيزي « كوتوس » معداً للكلام إعداداً طيباً باهراً .

(١) هو « أيوس كلوديوس » زميل « شيشرون » في ديوان العياقة . قارن الفقرة السادسة والأربعين في الكتاب الأول (لويب) وانظر كتاب قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٣٨ — ٤١ (طبعة أولى) .

(٢) ونظم « Giese » و « دايفز » و « موزر » هذه الكلمات شعراً في أربع أبيات ولكن « مولر » وضعها نثراً (لويب) وقد نقلها مترجماً لويب وجارنييه ، ونقلها ديماريه نثراً ، ولخصناها نحن نثراً .

(٣) قارن الفقرة الخمسين من الكتاب الثاني ، ثم الفقرة الثانية والثلاثين في الجزء الثالث من كتاب « طبيعة الآلهة » لشيشرون كذلك (لويب) .

الكتاب الثاني

ويتضمن رد شيشرون Cicero

أحد أتباع الأكاديمية الجديدة على أدلة كونتوس Quintus الرواق

في تفنيد الاعتقاد بفنون التكهن

مؤلفات سيثرونه الفلسفية :

١ - فكرت ملياً في تعرف الطريقة التي أودى بها الخير لا كبر عدد ممكن من المواطنين ، حتى لا تنقطع خدماتي للدولة ، فوجدت خير السبل في إرشاد مواطني إلى الطرق المؤدية إلى أنبل العلوم ، وأعتقد أني أديت هذا الواجب بما وضعت من عديد المؤلفات ، فمن ذلك أني تحررت في كتابي الذي جعلت عنوانه Hortensius (١) أن أدعو إلى دراسة الفلسفة ما استطعت إلى التبشير سبيلا . وفي كتابي Academics الذي يقع في أربعة أجزاء ، عرضت المنهج الفلسفي الذي ظننت أنه أقل المناهج صلفاً ، وأكبرها في نفس الوقت اتساقاً في التفكير وتهذيباً . ولما كانت الفلسفة تقوم على التمييز بين الخير والشر ، فقد استنفذت الجهد في معالجة هذا الموضوع في خمسة أجزاء (٢) ، بحيث نستطيع أن نتبين تطاحن الآراء التي ذهب إليها مختلف الفلاسفة . وبعد هذا أبنيت في خمسة أجزاء أخرى عن Tusculan Disputations الطرق التي لا تستقيم الحياة بدونها ، لأنني عالجتها في الجزء الأول الاستخفاف بالموت ، وتناولت في الثاني احتمال الألم ، وعرضت في الثالث إلى تخفيف الأحزان ، ودرست في الرابع سائر الاضطرابات النفسية ، وضمنت الخامس بحثاً يلقي أسطع ضوء على مجال الفلسفة كله ، لأنه يعلم المرء أن الفضيلة تكفي بذاتها لأن تسلم أصحابها إلى السعادة . ولما فرغت من نشر هذه المؤلفات السالفة الذكر ، وضعت كتاباً من ثلاثة أجزاء عن « طبيعة الآلهة » وناقشت في ثنائياتها كل مسألة تدخل في نطاق هذا العنوان ، ورغبة في تبسيط الموضوع الذي تناولته في الجزء الأخير وتوسيع آفاقه ، شرعت في كتابة الجزء الراهن عن التكهن بالغيب ، وفي نيتي

(١) قارن August Confess iii.4.7 (Hortensius) (لويب) .

(٢) عنوانه : De finibus bonorum et melorum (لويب) .

أن أضيف إليه كتاباً عن القدر ، فإذا نشرت هذا المؤلف ، فاني أكون قد استوفيت مناقشة هذا الفرع الخاص من الفلسفة في مختلف صورته .
وإلى هذا التثبيت من المؤلفات ينبغي أن نضيف الأجزاء الستة التي وضعها عند ما كنت أدير سياسة الدولة ، وجعلت عنوانها : حول الجمهورية De republica ، وهو موضوع له خطره ، ثم هو يلائم الجدل الفلسفي ، وقد استوفى علاجه « أفلاطون و « أرسطو » و « ثيوفراستوس » Theophrastus وأتباع مدرسة المشائين جميعاً . ولست في حاجة بعد هذا إلى أن أقول شيئاً عن رسالتي التي وضعتها عن السلوي ، فهي مصدر راحة عظمى لي ، وستكون — فيما يلوح — عوناً لغيري من القراء . وقد وضعت منذ عهد قريب كتاباً عن الشيخوخة ، بعثت به إلى صديقي « أتيكوس » Atticus . ولما كانت الفلسفة هي التي تجعل المرء على فضيلة وقوة ، كان كتابي « كاتو » Cato^(١) خليقاً بأن يجد مكاناً بين الكتب التي أسلفت بيانها .
وقد ربط « أرسطو » و « ثيوفراستوس » كذلك بين البيان والفلسفة ، وكلاهما معروف بمحبة الذكاء ، وطلاقة اللسان على وجه الخصوص ، ولهذا فانه يبدو من الصواب أن أضع كتيبي عن البلاغة في نفس هذا التثبيت ، وعلى هذا فانا نذكر في هذا الصدد الأجزاء الثلاثة التي وضعتها عن الخطابة والجزء الرابع الذي جعلت عنوانه : « بروتس » والجزء الخامس الذي أسميته : الخطيب .

مكانة الفلسفة عند شيشرون

اتهمال الفاسفة بترتيب النفوس :

٢ — أسلفت الآن ذكر المؤلفات الفلسفية التي وضعتها منذ زمن بعيد . وقد حدثني الرغبة الحارة لأن أتم الحلقات الباقية في هذه السلسلة ، ولولا ما جد من أسباب بالغة الخطورة^(٢) ، لشرحت اليوم كل ما فاتني شرحه ،

(١) Latus Catonis الذي فقد ، وقد كتب له « شيشرون » رداً . قارن Ad. Att.

XII, 40 (لويب) .

(٢) يشير « شيشرون » إلى الفوضى التي أصابت الشؤون العامة بعد مصرع قيصر (لويب) .

وأوضحته وجعلته سهل التناول في لغتنا اللاتينية ، إذ أى خدمة أستطيع أن أؤديها للصالح العام أعظم أو أنبل من أن أعلم الشباب وأهذب نفوسهم ، ولا سيما وأنهم قد ضلوا اليوم ضلالا مبينا ، من جراء هذا الانحلال الخلقى الراهن الذى يتطلب بذل أعظم الجهود حتى يرتدوا عن غيهم ، وينقادوا إلى سبيل الرشاد... ؟ ومن المحقق أنى لست على يقين من أنهم سيتجهون إلى هذه الدراسات الفلسفية جميعاً ، وليت القليلين منهم ينصرفون إلى دراستها ، فإن دارسها وإن قلّ عديدهم ، قد يكون نشاطهم بعيد الأثر في نفع الدولة ، ومن المحقق أنى أجنى ثمار ما غرست ، وأتلقى الجزاء حتى من رجال تقدمت بهم السن ، لأنهم يجدون في كتيب هزاء وسلوى ، وحماستهم للقراءة تضاعف من رغبتى في مواصلة العمل ، وإن عددهم ليربى — فيما عشت — على ما كنت أقدر ، وإنه لما يزيد في شهرة الرومان ، ويرفع من مجدهم ، أن يستقل كتابهم في دراسة الفلسفة عن مؤلفي الإغريق ، ومن المؤكد أنى سأبلغ هذه الغاية متى أتممت إنجاز مشروعاتى الراهنة .

أسباب استقاله بالفلسفة :

والسبب الذى أدى بى إلى عرض الفلسفة وشرحها ، يرجع إلى الاضطرابات التى أصابت الجمهورية إبان الحرب الأهلية ، عندما أدركنى العجز عن حماية الجمهورية على غير ما ألفت ، ولما وجدت أن من المستحيل أن ألبث على خمول ، لم أجد شيئاً جديراً بى ، أو ثره على دراسة الفلسفة لأقوم بعمله ، وإذن فليغفر لى أهل وطنى ، والآخرى أن يزجوا الشكر لى ، لأنى أبيت — حين استبدّ بأمر الدولة رجل واحد — أن أخفى نفسى ، أو أن أتخلى عن مكانى ، أو أذعن لليأس ، ولم أقبل أن أتمرد على الطاغية المستبد ، أو أثور على الزمن ، وفوق هذا فانى لم أتملق ثرياً ولم أعبطه على جاهه ، حتى أرثى لحظى في الحياة ، إذ أن خير ما تلقيت من « أفلاطون »^(١) والفلسفة شيء .

(١) Plats Rep. VIII.2. 545 (لوبيس) .

واحد، هو أن من الطبيعي أن تقوم الثورات في شئون الحكم، فيتولاها الملوك حيناً، والشعب حيناً آخر، والغاصبون حيناً ثالثاً، ولما نزل بالوطن القضاء الذي أسلفت ذكره، وكففت عن مواصلة نشاطى السابق، شرعت في أن أستأنف هذه الدراسات الفلسفية من جديد، فإن بها — لا بشيء سواها — أستطيع أن أخفف عن عقلى همومه، وأن أخدم في نفس الوقت أهل الوطن، كأحسن ما تكون الخدمة في هذه الظروف، وبناء على هذا سدت مؤلفاتى الفلسفية مسد خطبى السياسية والقضائية، لأنى ظننت أنى قد استبدلت الفلسفة بالسياسة إلى غير رجعة، ولكنهم قد عادوا مرة أخرى إلى استشارتى في الشئون العامة، ولهذا وجب أن يكرس وقتى لخدمة الدولة، أو ينبغى بالآخرى أن ينصرف إليها فكري واهتمامى اللذان لا يتجزأان، وأن أنفق في دراسة الفلسفة من الوقت ما لا يتطلبه أداء واجبى الذى أقوم به في سبيل الصالح العام، ولترجىء الإسهاب في بيان هذا إلى فرصة أخرى، ولنعد الآن إلى الموضوع الذى شرعنا في مناقشته من قبل :

منهجهج مبشرونه — أى الأطاريمية الجبريرة — في مباميه :

٣ — بعد أن أعلن أخى « كوتوس » Quintus آراءه عن التكن بالغيب، كما أبانها في الكتاب السالف، تمسينا طويلا حتى اتخذنا مجلسنا في المكتبة التى تقوم في « الليكيوم » Lyceum، وقلت له « من المحقق أنك يا عزيزى « كوتوس » قد أسلفت دفاعا دقيقا عن مذهب الرواقية، كما يدافع عنه أحد أتباعهم، ولكن الشيء الذى اغتبطت له كثيرا، هو أنك زودت مناقشتك بكثير من الأمثلة استمدتها من المصادر الرومانية، وهى أمثلة من نموذج ممتاز نبيل، ومن واجبى الآن أن أجيب على ما أسلفت بيانه، ولكن ينبغى أن ألزم الشك وعدم الثقة بالنفس في كل ما أقول، وألا أعلن أمرا على

سبيل اليقين ، وأن أستفسر عن كل شيء^(١) ، لأنى إذا زعمت أمراً وقلته على سبيل التأكيد ، كنت قد مثلت بهذا دور الكاهن الذى يتنبأ بالغيب ، مع أنى أقول أن ليس ثمة شيء اسمه تكهن بالغيب .. ١ .

التكهن لا يستقيم فى مجال العلم والفن والفلسفة :

إنى متأثر بوجاهة الأسئلة التى كان « كارنيادس » Carneades يبدأ بها مناقشاته : « ما هى الأشياء التى تدخل فى مجال التكهن بالغيب ؟ أهى أشياء تدرك عن طريق الحواس .. ؟ إن هذه مدركات تراها العين وتسمعها الأذن ويذوقها اللسان ويشمها الأنف وتلمسها اليد ، وإذن فهل ثمة فى هذه المدركات صفة معينة تجعل إدراكها بمعونة النبوءات ومساعدة الإلهام ، أسهل من إدراكها بمعونة الحواس وحدها^(٢) .. ؟ وهل ثمة كاهن على ظهر الأرض يستطيع إذا كان كفيف البصر - مثل تيرزياس - أن ينبئ عن الفرق بين الأبيض والأسود .. ؟ أو يستطيع إذا كان مصاباً بالصمم أن يميز بين مختلف الأصوات وشتى الأنغام .. ؟ ينبغى أن نسلم الآن بأن التنبؤ بالغيب لا يكون فى الحالات التى تكتسب فيها المعرفة عن طريق الحواس .

« وليس بنا من حاجة إلى التنبؤ بالغيب حتى فى الأمور التى تدخل فى ميدان العلم والفن ، لأن الناس إذا أدركتهم الأمراض ، لا يستدعون فيها جرت العادة نبياً أورثياً ، ولكنهم يلتمسون طبيباً يداوى أمراضهم ، وكذلك الحال مع أولئك الذين تجنح بهم الرغبة إلى تعلم العزف على العود أو الناي ، فأنهم لا يتلقون دروساً على يد عراف ، بل يتلقونها على يد موسيقار ، وتنطبق

(١) كانت هذه هى الخاصة التى تميز الاتجاه العقلى الذى عرف عن أنبئاع الأكاديمية الجديدة فى كل مباحثهم فيما يشير مترجم « لويب » . وقد أياض شيشرون منهجها فى آخر الفقرة الثانية والسيمين من الكتاب الثانى - وانظر هامش ٣ ص ١٤٤ .

(٢) لم يكتب « كارنيادس » شيئاً . و « شيشرون » نفسه لم يعرف نظريته إلا عن طريق « كليتوماك » ويمكن القول بأن رأى المشار اليه هنا يشبه رأى الذى يؤلف الجزء الأول من جورجياس (جارجييه) .

هذه القاعدة نفسها على مجال الآداب وسائر ميادين العلم ، إذ هل نعتقد حقاً أن الذين أوتوا القدرة على التكهن بالغيب ، يستطيعون استناداً إلى هذه القدرة أن يتنبأوا بأن الشمس أكبر من الأرض ، أو أنها تبلغ من الحجم النحو الذى تبدو لنا عليه .. ؟ أو بأن القمر مضىء بنفسه أو يستمد من الشمس ضوءه .. ؟ أو هل نظن أنهم يفهمون حركات الشمس والقمر والسكواكب الخمس الموسومة بالشهب .. ؟ إن كهانك المشهورين لا يدعون بأنهم يستطيعون الإجابة على إحدى هذه المسائل ، ولا هم يعترفون بأنهم يعرفون إذا كانت الإشكال الهندسية قد أحسن رسمها أو أسوأ ، لأن هذا من عمل الرياضيين وليس من عمل الرئين .

٤ - « فلنعرض الآن للحديث عن المسائل التى تدخل فى نطاق الفلسفة : إذا أردنا أن نتبين الصواب أو الخطأ فى مجال الأخلاق ، أو أن نعرف أن أمراً ما ، ليس بالخطأ ولا بالصواب ، هل جرت العادة بأن يكون الكهان هم الذين يزيلون شكوكنا بصدد هذه المسائل .. ؟ وهل نتجه فعلاً إلى استشارتهم فى مثل هذه الحال .. ؟ كلا على التحقيق ، لأن الحكم فى مثل هذه المسائل يتولاه الفلاسفة . وكذلك الحال فيما اتصل بواجباتنا ، منذ الذى يستشير عرافاً فيما ينبغى أن يكون عليه سلوكه إزاء والديه وإخوته ، أو حيال أصدقائه .. ؟ أو فى كيف ينبغى أن يتصرف فى ثروته ، وكيف يؤدى واجبات منصبه أو يستخدم قوته .. ؟ إن مثل هذه الأمور قد جرت العادة بأن يفصل فيها الحكماء لا الكهان .

« وهل من الممكن أن نحل بالتنبؤ بالغيب مسألة من مسائل الجدل أو الطبيعة .. ؟ فهل نستطيع مثلاً أن نعرف عن طريقه إذا كان فى الوجود عالم واحد أو مجموعة عوالم ، أو ما هى العناصر الأولية التى صدرت عنها الكائنات جميعاً .. ؟ إن مثل هذه المسائل يفصل فيها علم الطبيعة ، وهب كذلك أن أمراً

أراد أن يعرف الطريقة التي بها يكشف عن مغالطة الكاذب^(١) أو أن يعالج مغالطة الكومة^(٢) التي أطلق عليها الإغريق «Sorites» (وإذا احتجنا إلى ما يقابلها في اللاتينية فهو *acervalis*، وما نظن بنا من حاجة إلى ترجمتها إلى لغتنا، فإن لفظة الفلسفة وغيره من عديد الألفاظ يوناني الأصل، وقد جرت العادة باستعمالها كما نستعمل الألفاظ اللاتينية، وهكذا الحال في لفظ Sorites الذي تلقيناه عنهم) إن الكلمة في كلتا هاتين المغالطتين للناطق، وليست لأهل التكهن بالغيب.

ثم هب أنا نريد البحث في خير أنواع الحكومات، أو في أي القوانين أو العادات نافع لأهله أو ضار بهم... هل نستدعي العرافين من أتوريا أو نسلم بما يراه رجال نصطفئهم لخبرتهم بإدارة المدينة...؟^(٣) ولكن إذا لم يكن ثمة مجال للتكهن بالغيب في الأشياء التي تدرك عن طريق الحواس أو في

(١) أشيع الصيغ التي توضح هذه المغالطة قولهم: يقول إمينيدس *Epimenides* الكريتي: جميع أهل كريتي كذابون، وهو نفسه من أهل كريتي، فهل صدق فيما قرر أم كذب؟

قارن *Gellius XVIII. 2. 10, Cic. Acad. II, 29.95* (لوبي) وقد عرض الناطقة لبيان هذه المغالطة كثيراً، قارن مثلاً *Keynes: Formal Logic. p. 457* طبعة رابعة.

(٢) أشيع الصيغ التي توضح هذه المغالطة تبدأ بهذا السؤال: هل تسكني الحبة الواحدة لأن تنشيء كومة...؟ الجواب بالسلب، ولكن المعروف أننا إذا أضفنا حبة إلى حبة، وكررنا هذا وصلنا أخيراً إلى عدد (س) من الحبات، لو أضيفت إليه حبة لأصبح كومة وهذا يناقض الجواب الأول وهو أن الحبة لا تنشيء كومة قارن: *Reid's Acad. 11.16.49 note* (لوبي). وقد عرف هذا النوع من المغالطات أبوليدس *Eubulide* الملطي، حين عارض منطق أرسطو «وكان هذا خصماً لدوداً له» فن ذلك قوله: كم شعرة يجب أن تسقط من رأسك حتى يقال إنك أصلع؟ إلى آخر مغالطاته في الجمع والطرح، ومن أمثلة هذه المغالطات، ما ورد في مذهب المنفعة لجون ستورت مل *J. Stewart* Mill وقد أبان *Mackenzi* عن هذه المغالطات (قارن: *Welton & Monahan Intermediate Logic* ص ١٥٣ الطبعة الثالثة).

(٣) كانت إدارة المدينة عندهم تشمل شئون الحكم بأوسع معانيه، من سياسة وعلم وفن وأخلاق ونحو ذلك.

معرفة الأمور التي تدخل في نطاق الفنون أو في باب الفلسفة ، أو تتصل بشئون الحكم ، فإني لا أرى بنا من حاجة إطلاقاً إلى هذا التكهن في أى مجال آخر ، لأنه إما أن يكون مفيداً نافعا في كل حالة من هذه الحالات ، أو ينشأ على الأقل علم يمكن أن يستخدم فيه هذا التكهن ، ولكننا رأينا فيما أسلفته من وجوه الاستدلال ، أنه لا يصلح لكل حالة - من الحالات السالفة - وليس من الممكن كذلك أن ينشأ مجال أو مادة بحث يهيمن عليها التكهن بالغيب .

هـ - « ومن أجل هذا فإني أميل إلى الظن بأن ليس ثمة شيء اسمه تنبؤ بالغيب ، وهاك شعر آمن نظم اليونان كثيراً ما يقتبس للدلالة على هذا الذى أقوله : [إن خير من يتكهن ، بالغيب هو أقدر الناس على التخمين أو الحدس] ^(١)

وهل تظن أن نبيا يستطيع أن يحدس باقتراب هبوب العاصفة خيراً مما يحدس بذلك ربان السفينة .. ؟ أو يكون حدسه في تشخيص المرض أدق من حدس الطبيب .. ؟ أو مهارته في قيادة الحرب أعظم من مهارة القائد الحربى .. ؟ « ولكنى لاحظت - يا كونتوس Quintus - أنك كنت لبقاً حين استبعدت التكهن بالغيب من حالات الحدس التي تقوم على المهارة والخبرة بالشئون العامة ، ومن تلك التي تستمد من استخدام الحواس ، ومن هاتيك التي تصدر عن أهل الحرف » ^(٢) .

(١) عن « ليرويدس » وانتبسه بلوتارك De orac defect 432 e (لويب) .
(٢) قارن الفقرة الثامنة والأربعين في الكتاب الأول (لويب) وانظر تشابه هذا برأى جبهة مفكرى الإسلام في كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » .

تفنيد معنى المصادقة في التعريف

مناقشة تعريف التكهن عند كوتوس :

ولاحظت كذلك أنك تحذ التكن بالغيب بأنه المعرفة السابقة والتنبؤ بالأحداث التي تقع على سبيل المصادقة،^(١) وأول ما يلاحظ على هذا التعريف أنه يناقض ما سلمت به من قبل ، لأن المعرفة السابقة التي تنبأ للطبيب وربان السفينة والقائد الحربي ، تكون عن أمور تقع على سبيل المصادقة ، ثم هل يستطيع رجل من أهل العرافة أو العياقة أو النبوة أو الرؤيا الصادقة أن يحدس خيراً مما يحدس الطبيب بأن مريضاً سيبل من مرضه ، أو خيراً من ربان السفينة حين يحدس بأن سفينته ستلقى خطراً يهددها ، أو خيراً من القائد عند ما يحدس بأن جيشاً سيتجنب مكناً^(٢) ؟..

وذهبت إلى القول بأن هذه المعرفة السابقة بالزوابع والأمطار التي توشك أن تقع ، ليست تكهن بالغيب متى سبقتها شواهد معينة ، واقتبست بهذه المناسبة مجموعة أشعار من ترجمتي لـ « أراتوس » Aratus ، ولكن مثل هذه المصادقات تقع اتفاقاً ، لأن وقوعها وإن تكرر فاته لا يحدث دواما . فما هو إذن هذا الذي تسميه تكهن بالغيب ؟.. أي « ما تلك المعرفة السابقة بأحداث تقع على سبيل المصادقة ؟.. » وفيما يستخدمها أهلها ؟.. إنك تظن بأن « كل ما يمكن معرفته قبل وقوعه عن طريق العلم والعقل والتجربة والحدس ، تكون الكلمة فيه للخبراء والإخصائيين وليست للكهان ، وعلى هذا يكون التكهن بالأحداث التي تقع على سبيل المصادقة ، غير ممكن إلا فيما لا يمكن إدراكه

(١) قارن الفقرة الخامسة من الكتاب الأول (لويب) ويشير مترجم جارنييه إلى خلاف بين هذا التعريف وتعريف « كوتوس » الذي ورد في الفقرة الخامسة .

(٢) الرأي عندنا أن مثل هذه الأحداث لا تقع مصادفة ، لأن لها مقدمات تبرر وقوعها عند الطبيب وربان السفينة ومن اليهما ، فهي لا تعتبر في رأينا تنبؤاً بالغيب .

من قبل عن طريق المهارة والحكمة، ومن ثم إذا أعلن أمرؤ بأن «ماركوس مارسلوس» Marcus Marcellus^(١) صاحب الصيت الطائر الذى تولى القنصلية ثلاث مرات، سيلقى حتفه فى سفينة تتحطم فى عباب اليم، ووقع هذا التنبؤ قبل تحققه بعدة أعوام، فإن هذا وفقاً لتعريفك لا يكون تكهنًا بالغيب أبداً، إذ لم يكن من الممكن أن تعرف النكبة من قبل بالحكمة أو بمهارة من نوع آخر، وهذا هو السبب الذى من أجله تقول بأن التكن بالغيب هو المعرفة السابقة لمثل هذه الأحداث التى تعتمد على المصادقة^(٢).

٦ - وإذن فهل ثمة معرفة تسبق وقوع الأشياء ولا تستند إلى سبب يبررها؟.. إننا لا نطلق هذه الحدود: «مصادقة - حظ - طارىء - إلا على حادثة تقع ولم يكن من المحتمل أن تحدث أبداً، أو كان من الممكن أن تقع على نحو آخر، وإذن فكيف يكون من الممكن أن يتنبأ أمرؤ أو يتكهن بحادثة تقع عفواً، كنتيجة لمصادقة متغيرة أو لطارىء أعمى؟. إن استخدام العقل يمكن الطبيب من أن يعرف من قبل بأن المرض يوشك أن يستفحل، كما يتكهن القائد بما يعده عدوه من خطط، وكما يعرف ربان السفينة دنو العاصفة، ومع هذا فإن هؤلاء الذين يرتقون إلى نتائجهم على سلم الاستدلال العقلي الدقيق، كثيراً ما تعثرهم الأخطاء، فمن ذلك أن الفلاح إذا رأى شجرة

(١) ابن «ماركلوس» الذى غزا «سيراقرس» وابتلمه اليم فى بحر أفريقيا قبل الحرب البونية الثالثة بقليل (ديمارية).

(٢) يراد بهذه الفقرة أن الأحداث التى تقع على سبيل المصادقة يمكن معرفتها عن طريقين: (أ) الاستمانة بالخبرة الماضية والتفكير والذكاء ونحوه - أى الاعتماد على مقدمات تسلم إلى نتائج - وهذا هو مارجع جمهرة مفكرى الاسلام تسميته بالعرفاة ونحوها (ب) معرفة هذه الأحداث بشير مقدمات تبرر الوصول إليها - أى بالوحى والالهام - وقد تجل هذا عند مفكرى الاسلام فى النبوة والولاية والرؤيا ونحوها. وقد كان كوتتوس «يأبى أن يسلم بالتنبؤ الذى يصدر عن مهارة وخبرة بالشئون العامة» (فقرة ٩٩ من الكتاب الأول) فأغنى «شيسرون» بهذا عن مناقشته ودحضه وبقي على شيسرون أن يدحض غير هذا من أساليب التنبؤ، وسيبدأ بهذا فى الفقرة التالية (السادسة).

الزيتون قد بدأت تزهو ، توقع لها أن تنتج ثمرأ ، دون أن يكون هذا التوقع
بغير مبرر ، ولكن ظنه قد يخيب اتفاقا . فاذا كان هؤلاء الذين لا يرون رأيا
إلا أقاموه على حدس معقول ومحتمل ، ليسوا في عصمة من الخطأ ، فإذا تظن
بحدس هؤلاء الذين يتنبأون بالمستقبل اعتمادا على النظر في أحشاء حيوان أو
تخليق طير في الجو أو تغريده وصياحه ، أو نذير زاجر أو وحى أو رؤيا ؟
على أنى غير مستعد لأن أتناول التكهن بالغيب في شتى صورة واحدة بعد
أخرى ، وأبين أن الشق في كبد الضحية ، وصياح الغراب ، وطيوان النسر
وسقوط النجم ، ونبوءات الذين يعترهم المس ، والأنصبة والرؤيا ، ليس لها
قيمة في التنبؤ بالغيب ، بالغأ ما بلغ أمرها ، وسأناقش كلا منها في دوره ، أما
الآن فحسبى أن أناقش الموضوع جملة :

افتراسه المصادر في منع من تغفل الادراك الغيبى :

كيف يمكن أن يتنبأ امرؤ بحادثة ليس لها سبب يبرر وقوعها ، ولا
يميزها شاهد سابق ينبئ عنها ؟ لقد تنبأ قمر ون بكسوف الشمس وخسوف
القمر قبل وقوعهما بأعوام طويلة مستنديا إلى استخدام الرياضيات في
دراسة مسالك الأجرام السماوية ومعرفة حركاتها ، معتمدين على قوانين
الطبيعية الثابتة التي تساعد على تحقق نبوءاتهم ، فيعتمد علماء الهيئة على حساب
حركات القمر في نظامها الدقيق لمعرفة الوقت الذي يكون فيه القمر مقابلا
للشمس وفي ظل الأرض — الذي يكون مخروط الليل^(١) — واكتشاف
الوقت الذي يرى فيها بالضرورة ، وعلى هذا النحو يعرفون الوقت الذي يقع
فيه القمر بين الأرض والشمس تماما ، ومن ثم يخفى ضوء الشمس عن عيوننا ،
ويعرفون الشكل الذي يتخذه كل كوكب في وقت معين ، والوقت الذي
تظهر فيه أو تختفى كل مجموعة نجمية في كل يوم ، ومن هذا ترى طريق
الاستدلال الذي يتبع في الوصول إلى هذه التكهنات .

(١) قارن : Pliny, N. H. ii. 7 « لوب » .

٧ — ولكن أى منطق ذلك الذى يستند اليه الذين يتنبؤون بالعثور على كنز أو وراثة ضيعة .. ؟ وعلى أى قانون من قوانين الطبيعة تعتمد مثل هذه النبوءات .. ؟ ثم إذا كانت النبوءات السالفة وغيرها مما يدخل فى بابها ، يهيمن عليها قانون طبيعى ثابت ، كهذا الذى ينظم حركات النجوم ، هل فى وسعنا أن ندرك شيئاً يقع مصادفة أو عرضاً .. ؟ إذن من المحقق أن ليس ثمة شئ يخالف العقل ولا يسير اضطراد القاعدة كالمصادفة ، ولهذا فليس فى مقدور أحد ، حتى الله نفسه — فيما يبدو لى — أن يعرف حادثة قوشك أن تقع عرضاً أو مصادفة ، لأن الله إذا عرف ذلك ، كان من المؤكد وقوع الحادثة ، ولكن إذا كان من المؤكد وقوعها ، فإن المصادفة لا يكون لها وجود ، ومع ذلك فإن المصادفة قائمة لا محالة ، وإذن فليس ثمة معرفة تسبق الأحداث التى تقع على سبيل المصادفة .

وإن أنت أنكرت وجود المصادفة ، وزعمت بأن الطريق الى معرفة كل شئ حاضراً أو مقبلاً ، قد تحدد منذ الأزل تحديداً لا مناص منه ، للزم عن هذا أن تعدل حدك للتكهن ، الذى زعمت فيه أنه « المعرفة السابقة » للأحداث التى تقع على سبيل المصادفة ، لأنه إذا لم يكن فى الإمكان وقوع شئ أو حدوث أمر غير الذى تحددت منذ الأزل ضرورة وقوعه ، فكيف يمكن أن يكون للمصادفة وجود .. ؟ وإذا لم يكن للمصادفة وجود ، فأى مجال تراه لهذا التنبؤ^(١) الذى عرفته بأنه « المعرفة السابقة لأحداث تقع على سبيل المصادفة » .. ؟

(١) يستبعد مذهب القدر عند الرواقية كل ما يكون وقوعه ممكناً ، ولما كان « شيشرون » يحاول أن يقيم التكهن على أساس التعريف الذى وضعه له « كونتوس » ، فإنه يطبقه على أحداث تقع اتفاقاً ، بمعنى أن من المستحيل التنبؤ بها حتى ولو كان التنبؤ كائناً علماً بكل شئ ، وعلى هذا تكون نظرية الرواقين عقيمة ، لأنها تحمل على أحداث يستحيل معرفتها — فيما هو مفروض — ولكن كونتوس — شارح الرواقية — يتناول أحداثاً يعتقد المرء أنها تقع اتفاقاً ، وبهذا لا تكون نظرية الرواقية عقيمة . على أن فكرة هؤلاء فى القدر قد رفض التسليم بها مفكروا المسيحية والأفلاطونية الجديدة لأنها لا تتفق مع الدين ، لأنه بارادة الله — أو الآلهة ، يقع كل شئ ، لا بفضل هذا القدر الذى يعوزه العقل . (جارينيه) .

وقد ناقضت نفسك تناقضاً يَبِّناً عند ما زعمت بأن القدر^(١) يهيمن على كل شيء في الماضي والمستقبل معاً . ! فإن تحت القدر يندرج الشيء الكثير من الخرافة وخزعبلات المستنات من النساء ، ومع هذا فإن الرواقية قد أطلوا الحديث في قضائك هذا ، على أنى سأرجى مناقشة القدر إلى فرصة أخرى ، ما الآن فحسبى أن أتحدث عنه على قدر ما تدعو الضرورة :

افتراضه القدر يمنع من الاعتقاد بالتكهن :

٨ - ثم ما نفع التكهن بالغيب إذا كان القدر يتحكم في كل شيء ؟ .. وعلى هذا الفرض تكون تكهنات الكاهن لامناص من وقوعها ، ولهذا فلست أدري ما قيمة الزعم القائل بأن نسراً قد أعاد صديقنا الحميم « ديوتاروس » Deiotarus من رحلته ، فانه لو لم يعد منها ، لكان من المؤكد أنه سينام في الحجرة التي تداعت في الليلة التالية ، ويسحق بهذا في الانقراض ، ومع هذا فلو أن القدر أراد ذلك ، لما نجا صديقنا من هذه النكبة ، والعكس في هذا صحيح ، ولهذا فاني أكرر ما قلته : ما قيمة التكهن بالغيب ؟ .. أو ما هذا الشر الذي تحذرنى لاتقائه طرق التكهن من أنصبه أو أحشاء أو غيرها ؟ .. فإن إرادة القدر لو شاءت أن يتحطم الأسطولان الرومانيان في الحرب البونية الأولى ، فيروح أحدهما غرقاً وثانيهما دماراً على يد القرطاجيين ، لكان من المؤكد أن يتحطم ويلقى نفس المصير الذي لقيه ، حتى ولو طابت نبوءة الكتا كيت المقدسة في عهد القنصلين « لوكيوس جونيوس » Lucius Junius و « بوبليوس كلاديوس » Publius Cladius^(٢) وإذا كانت الاستجابة للطيور سائحة وبارحة ، تمكن الأسطولين من اتقاء الدمار ، لما تحطما استجابة لإرادة القدر ، مع أنك تقول في إصرار إن جميع الأشياء تقع قضاء وقدر ، وإذن

(١) قارن الفقرة الرابعة والخمسين من الكتاب الأول « لويب » .

(٢) قارن الفقرة الخامسة عشرة من الكتاب الأول « لويب » .

فليس ثمة شيء اسمه تكهن بالغيب . ثم إذا كانت إرادة القدر هي التي قضت بأن يهلك الجيش الروماني عند بحيرة « ترازمينوس » Trasminus في الحرب البونية الثانية ، أكان من الممكن اتقاء المصير إذا استجاب القنصل « فلامينوس » Flaminus للشواهد ، وأصاخ للطيور التي زجرته عن الاشتراك في القتال ..؟ كلا على التحقيق ، وإذن فإما أن يكون الجيش لم يهلك لأن إرادة القدر قد قضت بنجاته ، وإما أن يكون قد هلك بإرادة القدر — ومن المؤكد أنك كرواقى مضطر إلى التسليم بهذا — وتكون النتيجة لا مفر من وقوعها حتى ولو استجاب القنصل لنبوءات الطيور ، لأن قرارات القدر لا تقبل التغيير أبداً . وبعد ، فإذا تكون حقيقة هذا التكهّن الذي تفاخرون به أيها الرواقيون ..؟ فإن القدر إذا كان يتحكم في جميع الأشياء ، لما أدى لنا التكهّن بها خيراً بتحذيرنا منها ، لتتقّى شرها ، ما دامت الأحداث التي ستقع ، لا مناص من وقوعها ، أيأ ما كان موقفنا حيالها ، ثم إذا كان من الممكن تغيير وجه الأحداث التي ستقع ، لما كان هناك شيء اسمه قدر ، وبالتالي فليس ثمة شيء اسمه تنبؤ بالغيب ، مادام التكهّن ينصب على أحداث لا مفر من وقوعها ، ولكن ليس ثمة شيء يتحتم وقوعه ، ما دام هناك من الطرق ما يؤدي إلى تجنب حدوثه (١) .

مضار العلم بالغيب :

٩ — وفوق هذا فاني أظن أن معرفة الأحداث المقبلة لا فائدة من ورائها ، فانظر ماذا كانت تكون حياة « بريام » Priam ، لو أنه عرف منذ شبابه الأحداث المروعة التي تنتظره في كهولته ؟ ولكن فلتنخطّ عصر الأساطير ، ولتتكلم عن أحداث تتصل ببلادنا :

لقد جمعت في كتابي عن « السلوى » حوادث موت فاجع وقع لبعض

(١) Procuratis اصطلاح قى يراد به استخدام وسائل بتقديم القرابين أو نحوها لمنع

وقوع طيرة أو نذير زاجر « لوب » .

مشاهير الرجال في حكومتنا ، فلتخط رجال العهد القديم ، ولنتحدث عن «ماركوس كراسوس» M. Crassus : خبرني أى فائدة كان ينتظر أن يجنيها عند ما كان في أوج قوته وطائل ثروته ، لو أنه عرف أن القدر كان يقضى بموته موتاً ذليلاً فيما وراء نهر الفرات ، بعد أن يكون ابنه قد قضى تحبه وجيشه قد تحطم .. ؟ أو هل تظن أن «جنايوس بومبي» Gnaeus Pompey كان يمكن أن يستثمر اللذة في قنصاياته الثلاث وانتصاراته الثلاثة ، وإبان أعماله المجيدة التي حلقت شهرتها في كل مكان ، لو أنه كان يعرف بأنه سيذبح في مجاهل صحارى مصر ، بعد أن يفقد جيشه ، ويتبين أن مصر عنة ستعقبه تلك الأحداث المروعة التي لا أستطيع أن أتحدث عنها دون أن تذرف عيناى الدموع .. ؟

أو ماذا تظن بقيصر لو أنه عرف أن مصر عه سيكون بين أعضاء مجلس الشيوخ الذى يرجع إليه الفضل في انتخاب معظمهم وفي ردهة بومبي (١) .. ؟ أجل ، وأمام تمثال بومبي ، وعلى مرأى كثيرين من قادة المائة من أتباعه ، وأن مصر عه هذا سيكون على يد أنبل مواطنيه الذين كان بعضهم يدين له بكل ما أصابوا من مجد ، وأن الموقف سيكون من المهانة بحيث لا يقترب من جيشه صديق — لا بل ولا حتى عبد — فأى ألم نفسانى مرير كان قيصر يقضى به حياته ، لو أنه عرف هذه الأحداث قبل وقوعها . ؟

« وإذن فإن من المحقق أن الجهل بمتاعب المستقبل أجدى على الإنسان من معرفتها ، لأننا إذا زعمنا بأن الناس كانوا يعرفون المستقبل ، لما جاز في حكم العقل — وإن خالفنا الراوية في ذلك — أن يمتشق بومبي جسامة ، وأن يعبر «كراسوس» نهر الفرات ، أو أن يخوض قيصر غمار الحرب الأهلية . وإن صبح هذا فإن الموت الذى أصاب هؤلاء الرجال ، لم يكن — على هذا — استجابة لقدر محتوم ، ولكنك تقول بأن كل شيء يخضع لحكم القدر ، وبالتالي فإن معرفة المستقبل لم تكن لتؤدى خيراً لهؤلاء الناس ، بل إن من

(١) شيدها «بومبي» واستخدمت مكاناً لاجتماع مجلس الشيوخ (لوبي).

المحقق أنها كانت مجرد المرحلة الأولى في حياتهم من كل متعة ولذة ، إذ كيف كان من الممكن أن يستشعروا السعادة بتفكيرهم فيما سيقتهى إليه مصيرهم ؟ . . . وعلى هذا فهما أجهد الرواقية أنفسهم ، فإن كل حذقهم لابد أن ينتهى إلى غير نتيجة ، إذ لو أن شيئاً ينتظر وقوعه ، قد يقع على نحو ما ، بغير قاعدة تحدد طريقة وقوعه ، لكأنت المصادفة تلعب فى هذه الحالة دورها ، وإذا كان ماينتظر أن يقع لى بصدد أية مسألة ، وفى أى ظرف أمراً مؤكداً ، فكيف يعتبر تنبؤ العرافين بأنكد ضروب النحس التى تنتظرنى ، خدمة يقدمونها إلى ؟ . . .

١٠ — ويجيب الرواقيون على النقطة الأخيرة بأن « كل شر لا مناص من وقوعه ، تخفف وطأته الطقوس الدينية » ، ولكن إذا لم يقع شيء إلا إذا كان متفقاً مع أحكام القدر ، فليس من الممكن أن تخف وطأة الشر بهذه الطقوس . ويعان « هومير » تقديره لهذه الحقيقة عندما يصور « جوبتر » ، شاكياً من عجزه عن إنقاذ ابنه « ساريدون » Sarpedon من برائن الموت^(١) حينما قضى القدر بعجزه ، ويوضح هذه الفكرة البيتان التاليان المنقولان عن شاعر يونانى^(٢) :

[إن خوف نفسه وهو على كل شيء قدير ، لا يستطيع أن يمنع ما قضى به القدر المحتوم]^(٣) .

إن فكرة القدر فى أرحب آفاقها هى — فيما أظن — موضع سخرية ، حتى فى روايات « أتلا » Atella العابثة المأجنة^(٤) ، ولكن السخرية لا مكان

(١) الألياذة ج ١٦ ص ٤٣٣ « لوبي » .

(٢) لا يعرف الشاعر الذى نظمها ، وكثيراً ما ترد هذه الفكرة . قارن Aesch. Prom. 527 .

وهيرودوت ج ١ ص ٩١ ، أفلاطون فى « التواميس » : (De leg. V. 10) « لوبي » .

(٣) فكرة القدر الذى لا غر منه ، لها مكان كبير فى الأدب اليونانى ، ونراها كثيراً فى

أشعار هومير (جارئيه) .

(٤) نشأت خرافات « أتلا » فى مدينة « أتلا » وتقع بين كايوا ونابلى . وكثيراً ما تسمى

هذه القصص العابثة : osei Iundi . قارن : Livy vii. 2, x, 208 . وشيخروث :

Ad. fan. IX. 16. 7. « لوبي »

لها في مناقشة موضوع جدى كهذا الموضوع . وإذن فلنلخص أداتنا فيما يلي :
إذا كان من المستحيل أن نتنبأ بالأشياء التى تقع على سبيل المصادفة لأن وقوعها غير مؤكد ، فليس ثمة شيء اسمه تكهن بالغيب ، وإذا كان من الممكن على عكس هذا — أن نتنبأ بالأشياء ، لأن القدر قد سبق إلى تعيينها وتحديدتها ، فليس ثمة رغم هذا شيء اسمه تكهن بالغيب ^(١) . فان حدك للتكهن يجعله ينصب على « الأشياء التى تقع على سبيل المصادفة » ، ولكن هذا الجزء التمهيدى فى مناقشتى ، ليس إلا مناوشة تناولت هامش الموضوع ، فلا تفذ الآن إلى صميمه ، وسترى أن تحطيم حججك لا يعجزنى .

مرهاجئة أساليب التنبؤ — صناعية وطبيعية :

١١ — لقد فرغت التنبؤ بالغيب إلى ضربين : صناعى وطبعى ^(٢) ، وقلت إن الصناعى يقوم بعضه على الحدس ، ويستند بعضه الآخر إلى الملاحظة الطويلة المتصلة ، وجعلت التنبؤ الطبيعى هو الذى تحتويه النفس ، أو بالأحرى تكسبه عن مصدر خارجى عنها هو الله ، الذى صدرت عنه كل النفوس البشرية وفاضت ، ودرجت تحت التكهن الصناعى سائر التكهّنات التى تنشأ عن النظر فى الأجشاء وتستمد من البرق ونذر الزجر ، وتستعار من نبوءات أهل العياقة ، ومن يعتمدون على شواهد النذر الزاجرة اعتمادا ، تاما أو ضمته من ناحية عملية طريقة للتنبؤ يستخدم فيها الحدس .

أما التكهن الطبيعى فانه يكون — فيما تقول أنت — نتيجة إفراط فى التهيّج العقلى — الجذب — أو قدرة على التنبؤ تؤتاها النفس إبان النوم ، عندما تتجرد من حواس البدن ومشاغل الحياة الدنيا . ثم إنك استمددت كل ضروب التكهن

(١) « شيشرون » يغالط — فيما يلوح — لأن ماسبق القدر إلى تعيينه ، يعتبر وقوعه مصادفة بالقياس إلى كل من يجهل ما قضى به القدر ، فمعرفة قبل وقوعه تعتبر تكهنا يدخل فى تعريف « كوثنوس » للتنبؤ بالغيب .

(٢) قارن الفقرة السادسة والسابعة عشرة من الكتاب الأول « لوب »

بالغيب من مصادر ثلاثة : الله والقدر^(١) والطبيعة . ورغم أنك لم تستطع أن تقدم سبباً يبرر ضرباً من هذه الضروب ، إذ أنك — مع هذا — قد قدمت في دفاعك مجموعة من الأمثلة الخرافية التي تثير الدهشة^(٢) . وهذا هو الذي يدعوني إلى أنؤكد لك بأن ليس من الملائم لفيلسوف أن يسلم بدليل يتفق صدقه عفواً ، أو يكون باطل الدلالة أو صيغ من نسيج الخبث . وقد كان ينبغي أن تقدم أدلة وعللاً تبين بها صدق قضايك كلها ، وما كان ينبغي أن تلجأ إلى ما يسمونه أحداثاً ، ولا شك أني أقصد تلك التي لا تستحق أن تكون على التحقيق موضع اعتقاد .

١ — مناقشة أساليب التنبؤ الصنعي

أسباب العرافة :

١٢ — ولتناقش الآن شتى ضروب التكهن بالغيب ، كلا منها على حدة ، مبتدئين بالعرافة ، وقيامها — فيما انتهى إليه بحثي وتفكيري — تبرره دواعٍ سياسية ، وتدعو إليه الرغبة في أن يكون للحكومة دين تمكن له في نفوس الناس . ولكنا الآن على انفراد ، ولهذا فإن في وسعنا أن تناقش كل ما يقال في صدق العرافة ، دون أن يثير نقاشنا ضغينة أو حقداً في نفس أحد من الناس ، وفي وسعي أن ألزم هذا على وجه التحقيق ، لأن فلسفتي تعتمد على الشك في معظم الحالات^(٣) .

(١) فarn الفقرة الرابعة والخمسين من الكتاب الأول «لوبي» .

(٢) نرى مثلاً لهذا في الفقرة الحادية والعشرين وغيرها في الكتاب الأول .

(٣) كان « شيشرون » من حواربي الأكاديمية الجديدة . ولهذا فقد احتفظ لنفسه بحق التناقض في أية قضية دون اعتناقها . فarn الفقرة الرابعة من الكتاب الأول (لوبي) . انظر هامس ١ س ١٣١ . وينبغي أن نلاحظ بأن هذه الفقرة عظيمة الدلالة على حقيقة موقف شيشرون من العرافة .

١ — مناقشة التكهن بالنظر في الأحشاء

وإذن فلنتناول النظر في الأحشاء بالبحث أولا : أيمكنك أن تغرى أمراً بالاعتقاد بأن النبوءات التي قيل إنها نتيجة فحص أحشاء الضحايا ، قد اهتدى إليها العرافون ، بعد ملاحظات تكررت خلال زمان مديد ؟ خبرني ، كم من الزمن استغرقته هذه الملاحظات ؟ وكيف أمكن أن تستمر زمانا طويلا ؟ وكيف اتفق العرافون فيما بينهم على جزء الأحشاء الذي يعتبر بشير خير ، وجزئها الذي يعد نذير شر ؟ أو أى شق في الكبد يحمل دلالة الخطر ، وأية ينبيء عن خير مقبل ؟ وهل بين عرافى «أتروريا» و«إليس» و«مصر» و«قرطاجنة» اتفاق بصدد هذه المسائل . ؟ إن مثل هذا الاتفاق مستحيل على وجه التأكيد ، وفوق هذا فان من المستحيل أن يتصوره الإنسان . والملاحظ أن بعض الشعوب يفسر الأحشاء بطريقة ما ، وبعضها يلتزم فى تأويلها طريقة أخرى ، وإذن فليس ثم اطراد فى طريقة التأويل فيما بينهم .

، ومن المحقق أن الأحشاء إذا كانت تحمل دلالة على التنبؤ ، فان هذه الدلالة بالضرورة إما أن تكون على وفاق مع قوانين الطبيعة ، أو تكون إرادة الآلهة وقدرتهم قد صاغتها على نحو ما ، ولكن أية علاقة يمكن أن تقوم بين ما فى نظام الطبيعة الإلهى من قوانين مجيدة عظيمة ، تهيمن على كل مكان ، وتنظم كل حركة ، وبين الكبد والقلب والرئتين فى ثور يقدم قربانا للآلهة ، ولست أقول بين هذه القوانين وبين مرارة الكتاكيت التي يزعم البعض أن أحشاءها تبين عن المستقبل إبانة واضحة ، وأى صفة طبيعية تتوافر فى الأحشاء وتساعد على كشف المستقبل المحجب ؟

موقف ديمقريطس من النظر فى الأعضاء :

١٣ — ومع ذلك فان « ديمقريطس » يمزح — وصدور هذا المزاح أو تلك الدعابة عن فيلسوف طبيعى يجعلها طريقة — وليس ثمة أكثر تبجحا

من الفلاسفة الطبيعيين فيقول : [إن امرأ لا يرى الأشياء التي تقع عند قدميه ، ولكنه يرى في دقة عالم السماء] (١) .

ومع ذلك فإن « ديمقريطس » يسلم بالتكهن بالغيب عن طريق الأحشاء ، في حدود الاعتقاد بأن حالتها ولونها ينبئ بالكلاء والغلات ، من حيث مدى وفرتها أو مبلغ قلتها ، بل يذهب به الظن إلى أن الأحشاء تحمل الدلالة على الصحة أو المرض في مقلب الأيام . ياله من رجل سعيد لم تفته النكتة ! ، وهذا أمر مؤكد لا ريب فيه ، ولكن أكان « ديمقريطس » يتلهم بهذه السفاسف إلى حد أن فاتته أن يدرك أن نظريته لا تكون معقولة ، إلا إذا فرضنا أن أحشاء جميع المواشي كانت تتخذ لونا واحدا وحالة واحدة في وقت واحد ؟ ولكن إذا كان كبد ثور يبدو ناعما ومتفخا ، بينما يبدو كبد ثور آخر في نفس اللحظة خشنا ومتقلصا ، فأى استدلال يمكن الوصول إليه من « حالة الأحشاء ولونها ؟ »

ومن دواعي النسلية كذلك ، تلك القصة التي روايتها عن « فرسايدز » Pherecydes ذلك الذي تطلع إلى مياه أخرجت من بئر ، ثم تنبأ على أثر ذلك بوقوع زلزال (٢) . ولأنه لما يشير الدهشة — فيما يلوح — أن يحاول الفلاسفة الطبيعيون شرح سبب الزلزال بعد وقوعه . ولكن هل يستطيع هؤلاء العلماء أن يتنبؤوا اعتمادا على النظر إلى ماء عذب ، بأن زلزالا يوشك أن يقع ؟ مثل هذا الهذر كثير أما يتردد عنه العلماء ، ولكننا لسنا مطالبين بأن نعتقد الصدق في كل شيء . نسمعه . ومع التسليم بصحة الحماقات التي ذهب إليها « ديمقريطس » ، متى يمكن أن نستشير الأحشاء لنعرف منها شيئا عن الغلات أو الصحة ، ومتى نستمد العلم بهذه التفاصيل من عراف بعد أن يقوم بفحص الأحشاء ؟ إن العرافين يستندون إلى النار أو الفيضان حينما يندرون تنابا لمطار ، وقد يتنبئون بورائة مال حيناً ، وضياعه حيناً آخر ، إنهم يبحثون في الشق الذي يبشر

(١) النكتة المنسوبة هنا إلى ديمقريطس قديمة جداً فيما يشير مترجم جارنييه .

(٢) قارن الفقرة التاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب وجارنييه) .

بالخير أو ينذر بالشر ، إنهم يلتزمون الدقة البالغة عندما يفحصون رأس الكبد في مختلف نواحيه ، فإذا امتنع وجود هذا الرأس مصادقة ، كان هذا عندهم أعظم شاهد يمكن أن ينذر بالشر المقبل .

هذا التمكن لا يستند إلى قوانين طبيعية :

١٤ — ومن المحقق أن مثل هذه الشواهد ، لا يتضمنها — فيما أبنت من قبل — تصنيفك لضروب التمكن : « الذي يعتمد على المشاهدة » ، وإذن فاستعمالنا لها لا يرجع إلى ماضٍ سحيق ، ولكنها من مبتكرات الفن — إن جاز أن يكون في الأمور الخفية المجهولة فن — ولكن ما العلاقة التي تربط هذه الشواهد بقوانين الطبيعة ؟ وإذا افترضنا أن جميع ظواهر الطبيعة تنظم في كلٍّ متسق ، ويرتبط بعضها ببعض الآخر ارتباطاً قوياً — وهذا فيما أرى رأى الفلاسفة الطبيعيين ولا سيما أولئك^(١) الذين يقررون بأن الكون وحدة — فآية علاقة يمكن أن تقوم بين الكون واكتشاف كنز ؟ وإذا أنبأت الأحشاء بنمو في ثروتي ، واتفق هذا مع قانون من قوانين الطبيعة ، فإن هذا يشهد أولاً بوجود علاقة بينها وبين الكون ، ثم يدل ثانياً على أن رجحي المالى تهيمن عليه قوانين الطبيعة ، أليس يشعر الفلاسفة الطبيعيون بالحياء من إعلان مثل هذا الهذر ؟ ومع هذا فقد يسلم بوجود علاقة معينة تربط بين أجزاء الطبيعة المختلفة ، وأنا ممن يسلمون بهذا الرأي ، وقد جمع الرواقيون كثيراً من الأدلة ليبرهنوا بها على صحة هذه الحقيقة ، فمن ذلك أنهم يدعون بأن أكباد الجرذان تنمو في فصل الشتاء ، وأن الحب (الريحان) الجاف يزهر في نفس يوم الانقلاب الشتوي ، وأن قربان الحبوب في هذا الحب تمتلئ هواءً وتنفجر ، فتنتثر البذور التي بداخلها في شتى الجهات ، وأن بعض أوتار القيثارة قد يقرع أحياناً ، فيصيص غيرها من الأوتار ، وأن من عادة المحار وكافة الصدف أن يتمشى مع القمر

(١) بين الذين يقصدهم « شيشرون » ، أكسانوفان من أهل كولوفون . قارن شيشرون

في Acad 11.37.118 (لوبي) .

طردا في نموه وتناقصه، وأن قطع الشجر أيسر في فصل الشتاء وفي محاق القمر،
إذ يجف الشجر عندئذ من عصير النبات .

ليس بنا من حاجة للأسباب، ولا لذكر البحار والمضايق التي تهيم
حركات القمر على جزرها ومدّها، فإن من الممكن أن نقدم أمثلة من هذا
النوع لا يحصيها العد، للدلالة على وجود علاقة طبيعية تقوم بين الأشياء التي
يلوح أنها على غير اتصال، فلنسلم بأن هذه العلاقة قائمة، فإن التسليم بها
لا يتعارض مع الرأي الذي أقرره، في أن شقوق الكبد ليس فيها ما يحصل
الدلالة على ربح مال مقبل، إذ أي اتصال طبيعي، أو كما يقال أي إيقاع
موسيقى أو أبة مشاركة وجدانية — كما يقول الإغريق — يمكن أن تكون
قائمة بين شق في كبد، ومبلغ طفيف من المال يجده على كيس نقودي ؟ أو
أية علاقة بين اخفافي في إقتناء المال من جهة، وبين السماء والأرض وقوانين
الطبيعة من جهة أخرى ؟

دعهم الامتجاج بالارادة الالهية :

١٥ — ولكني سأسلم حتى بهذا إن شئت، ولو أن التسليم بوجود علاقة
بين الطبيعة وحالة الأحشاء، يضعف من قضيتي إلى حد كبير، ولكن هبني
سلت بذلك، فكيف نعلم بأن الانسان في بحثه عن شواهد تبشر بالخير، يجد
ضحية تحقق مطلبه وتلائم غرضه ؟ إن هذا أمر عسير المنال، ولكن أي
حل بديع ذلك الذي قدمته لتحقيقه ؟ إنني لا أجد معرة في موقفك فإن
ذاكرتك تثير الدهشة في نفسي، ولكنني أستشعر الخجل من موقف
« كريسبوس » Crysippus و « أنتباتر » Antipater و « بوسيدونيوس »
Posidonius الذين يقررون هذا الرأي الذي قلته أنت من قبل، وهو أن
« اختيار الذبيحة التي تقدم قربانا للآلهة، تشرف عليه القوة الإلهية المدركة
التي تهيم على الكون كله » .

« بل إن تصرّيحهم الذى سلمت أنت به ، كان أكثر من هذا تناقضا ، وهو أن تغيرا يطرأ على الأحشاء فى اللحظة التى تقدم فيها الضحية ، فتظهر أشياء كانت فى طى العدم ، ويختفى أخرى كانت فى عالم الوجود ، ذلك لأن كل شئ فى الكون يخضع للإرادة الإلهية . أقسم أن ليس فى الدنيا امرأة شمطاء بلغ من تسرعها فى التسليم بصحة الأمور ، أن تعتقد فى صدق هذا الأمر . . . وهل تظن أن الثور الصغير إذا تخيره أمرؤ كان كبده بغير رأس ، فإن تخيره غيره كان لكبده رأس ؟ وهل من المعقول أن يظهر رأس الكبدة فجأة ، وأن يختفى على غير انتظار ، حتى تتلامم الأحشاء مع مطلب الشخص الذى يقدم الضحية ؟ وهل فاتكم أيها الرواقيون أن تدركوا أن اختيار الضحية فى أغلب حالاته يكون كرمية الرد (محض اتفاق) ، ولا سيما وأن الحقائق تؤيد ذلك ؟ فأن أحشاء الضحية الأولى متى كانت بغير رأس — وذلك عندكم أكبر الشواهد إنذارا بالشر — فإن الذى يحدث بعد ذلك ، أن تحمل الذبيحة فى الضحية الثانية بشار الخير إجمالا ، فخيرنى ماذا يكون مصير نذر الشر فى أحشاء الضحية الأولى ؟ وكيف تهبأت نعمة الآلهة على هذا الوجه الكامل ، وعلى غير انتظار سابق ؟

السخرية من استشهادات الرواقيين :

١٦ — ولكنك تقول « إن قيصر كان ذات مرة يقدم ثورا قربانا للآلهة ، فلم يجد فى أحشائه قلبا ^(١) ، ولما كان من المستحيل للثور أن يعيش بغير قلب ، فلا بد أن يكون القلب قد اختفى فى اللحظة التى ذبح فيها ، فكيف ساغ عقلك القول بأن الثور ما كان ليعيش بغير قلب ، ولا تعرف أن القلب ما كان يمكن أن يختفى فجأة إلى حيث لا أدرى ؟ أما عن رأي فإن من المحتمل أن أكون على جهل بالوظيفة الحيوية التى يؤديها القلب ، ولو أنى عرفت ذلك لاشتبهت فى أن يكون قلب الثور قد أصابه الضنى وأدركه التقلص

(١) قارن الفقرة الحادية والحسين من الكتاب الأول (لوبيج) .

إثر مرض اعتراه حتى فقد تشابهه بالقلب . وإذا فرضنا أن القلب كان في الثور الذي يضحى قبيل ذبحه بالحنطة ، فلماذا تظن أنه اختفى فجأة في نفس اللحظة التي ذبح فيها ؟ أليس الأخرى أن نقول إن الثور قد فقد قلبه عندما رأى قيصر في ثوبه الأرجواني وقد فقد رأسه . . . (١).

« إني لأقسم أيها الرواقيون أنكم تسلبون حصن الفلسفة نفسه أثناء دفاعكم عن استحكاماتها الخارجية ! (تمسكون بالفروع وتتساقون في الأصول) لأنكم يا صراركم على صدق العرافة ، تدمون علم وظائف الأعضاء هدمًا كاملاً ، ففي الكبد رأس وفي الأحشاء قلب ، ولكن سرعان ما يختفيان ، فجأة وفي نفس اللحظة التي تنثر فيها عليهما الدقيق والنبيد ! أجل إن إلهًا ما ، قد اختطفهما بغتة ، إن قوة مّا غير مرئية ، ستحطمهما أو تلتهمهما فجأة ، وعلى هذا يكون كون الأشياء وفسادها جميعاً لا يرجع إلى نواميس الطبيعة ، فإن في الوجود أشياء تظهر من العدم ، أو تصبح بعد كونها عدماً ، فجأة وعلى غير انتظار ، فهل ذهب لي هذا الرأي فيلسوف طبيعي . . ؟ إنك تقول إن العرافين قد قالوا به ، فهل تظن أن العرافين أجدر بالثقة والتقدير من الفلاسفة الطبيعيين ؟

١٧ — ثم إذا قدمت الضحايا لأكثر من إله في آن واحد ، كيف يحدث أن يكون الفأل ميمونا في حالة وشثوما في أخرى ؟ أليس تقلبا غريبا من الآلهة أن يضمنوا أحشاء ضحية وعيدا بنقمة ، وأن يحملوا أخرى بشيرا بنعمة ؟ وهل يقوم بين الآلهة مثل هذا الخلاف — حتى بين الذين تربطهم أواصر القربى — إلى حد أن أحشاء الضحية التي تقدمها قربانا « لأبولو » تحمل أنباء الخير ، بينما تكشف الضحية التي تقدمها في نفس الوقت إلى «ديانا» عن شر مقبل ؟ وإذا كانت الضحية تربي عفوا وتنشأ صادقة ، فإن من البين الذي لا شك في أمره ، أن الشاهد الذي تلتقاه عن الأحشاء يقوم على ما يحتمل

(١) يستخدم « شيسرون » الجنس بالاستعمال الشائع لكلمة Cor بمعنى العقل . قارن ملاحظة قيصر في مناسبة شبيهة بتلك (Suet. Iul. Caesar 77) وقد أشار فيها إلى أنه لا يعتبر شيئا خارقا أن تعوزه القوة المدركة حيواناً متوحشا (لوبيس) .

أن تأتي به المصادفات . ولكن ربما قيل : « إن الله هو الذى يشرف على هذا الاختيار ، كما هو الحال فى أمر الأنصبة تماما ، فإن السحب تهيمن عليه الآلهة ، فلنتحدث الآن عن الأنصبة :

إيتار رأى الأيقوريين على رأى الروافيين :

إنك بمقارنة اختيار الضحية بالأنصبة لا تقوى قضية الأولى ، بينما تضعف قضية الأنصبة بهذه المقارنة ، فإنى إذا أوفدت عبداً إلى «ايكويمايليوم» ، Aquimaelium فى طلب حمل أضحية قربانا ، فأحضر إلى حملاذا أحشاء تناسب مطالب حالتى الخاصة ، فإن هذه لا تكون مصادفة فيما يلوح لى ، ولكن إلهاً هو الذى هدى العبد إلى هذا الحمل المعين ! فإذا قلت إن المصادفة فى هذه الحالة كذلك نوع من القرعة يتفق مع الإرادة الالهية ، فإنى أشعر بالأسف لأن أصدقاءنا « الروافيين » يهثون « للأيقوريين » بذلك فرصة عظيمة للسخرية ، لأنك تعلم مدى الاستهزاء الذى يدونه عند سماع مثل هذا الكلام .

وهم يستطيعون أن يسخروا فى تلفظ أكثر من هذا ، لأن « أيقور » قد أراد أن يهزأ بالآلهة ويحيطهم بالسخرية ، فشلمهم فى صورة شفاقة تهب الريح عليهم مخترقة إياهم ، وصّورهم مقيمين بين عالمين^(١) — كما كانوا بين غابتينا^(٢) — خشية الهلاك . ثم يمعن فى سخريته فيجعل للآلهة أطرافاً على نحو

(١) فكان الآلهة يهثون فى أمان إذا تمزق العالم لإربا إربا (لوب) .

(٢) كان المنخفض القائم بين قمتى التل الذى يقوم عليه الكابول ويسمى ملجأ أو ملاذاً . Inter Duos Lucos . وتقول الأسطورة إن فى هذا المكان أقام « رميلوس » ملجأه الذى كان يلوذ به المجرمون . وكانت الغابات تقوم أول الأمر على قنن الجبال . أنظر Platner, Topography & Monuments of Ancient Rome . ص ٣٠٥ (لوب) . وقد أراد « رميلوس » بعد أن شاد روما أن يغرى الناس بالاقامة فيها فجعلها ملاذاً للمجرمين والهاربين من عييد جيرانه إلى آخر ما تراه مفصلاً فى كتابى قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٢٩ وما بعدها طبعة أولى . ثم انظر فيما يتصل بموضوع آلهة أيقور الكتاب الأول من « طبيعة الآلهة » لشيرون ، ولا سيما الفقرات ١٦ — ١٩ حيث يعرض النظرية أحد أتباع الأيقورية : Velleius . وفى الفقرات ٢٦ وما بعدها حيث ينقد النظرية « كوتا » أحد أتباع الأكاديمية (الجديدة) (جارتنيه) .

ما لنا من أطراف ، ولكنهم لا يستخدمونها في عمل ما ، ومن ثم فإن « أبيقور » الذى يحطم الآلهة بهذه الطريقة الملتوية المعوجة ، لا يتردد في تحطيم التكن بالغيب من أخصر الطرق ، ومهما يكن من شيء فإن في تفكير « أبيقور » اتساقا منطقيا ، أما « الرواقيون » فليس في آرائهم انسجام ، لأن إله « أبيقور » الذى لا شأن له بنفسه ، ولا بأى إنسان آخر ، لا يسعه أن يخلع على الناس القدرة على التنبؤ بالغيب ، كما أن إله « الرواقيين » لا يستطيع أن يمنحهم هذه القدرة ، رغم أنه يتولى حكم الدنيا ، ويقوم بتدبير الخير لبنى الإنسان . فلماذا تورطون أنفسكم — أيها الرواقيون — في مثل هذه السفسطة التى لا تقوون على إيضاحها أبدا ؟ إن أتباع مدرستكم يتسرعون في إقامة هذا القياس :

« إذا ثبت وجود الآلهة ، استقام وجود التكن بالغيب ، ولكن وجود الآلهة ثابت ، وإذن فالتكن بالغيب قائم ، وأدنى إلى المنطق أن يكون القياس على هذا النحو :

« ليس ثمة تكن بالغيب ، وإذن فليس ثمة آلهة » .

ولاحظ كم تعجلوا ، وضلوا السيل عندما أعلنوا هذه القضية : « إذا لم يستقم وجود التكن بالغيب ، استعصى وجود الآلهة » ، أقول تعجلوا ، لأن من البين أن التكن قد تحطم كيانه ، ومع ذلك فإن لزاما علينا أن نسلم بوجود الآلهة .

ب — مهاجمة التنبؤ عن طريق البرق

١٨ — وبتحطيمنا للتنبؤ عن طريق الأحشاء ، نكون قد قضينا على فن العرافة قضاء مبرما ، لأن هذا المصير نفسه ينتظر التنبؤ بالغيب عن طريق البرق ونذر الزجر ، فأنك تقول إن المشاهدة التى تكرر أمداً مديداً تستخدم في حالة البرق ، وأن العقل والحس قد جرت العادة باستخدامهما في نذر الزجر ، ولكن ما هذا الذى انتهت إليه المشاهدات في حال البرق ؟ لقد قسم أهل « أتروريا » السماء إلى ستة عشر جزءا ، وكان من أيسر الأمور عليهم أن

يضاعفوا الأجزاء الأربعة التي قسمنا نحن — معاشر الرومان — السماء إليها ، ثم يكررون تضعيفه ، فينتهي إلى ستة عشر قسما ، ويخبرون بعد هذا بالقسم الذي هبطت منه الصاعقة . أى فائدة نجنيها من معرفة موضع سقوطها ، ثم ماذا ينبئ عنه هذا ثانيا ؟ إنه لمن الواضح كل الوضوح أن من الدهشة والخوف الذي يشهده البرق والصواعق في نفس الرجل البدائي ، قد نبعت عقيدته في أن هذه الظواهر أنشأها الإله « جوف » Jove القادر على كل شيء ، ولهذا تقول أساطيرنا في فن العرافة :

« إن جوف إذا رعد أو أ برق ، كان من الشطط إجراء الانتخابات ، وربما كانت الأسباب السياسية التي قضت بذلك ، لأن أسلافنا كانوا يلتمسون الأعذار لالغاء الانتخابات أحيانا ، فكان البرق في عرفهم نذير سوء في حالة الانتخابات وحدها ، أما في سائر الحالات الأخرى فقد اعتبر البرق عندهم طالعا (فالأ) ميمونا متى التمع يسارا^(١) . ولكني سأناقش القائل والطيرة في مكان آخر ، أما الآن فحسبي البرق موضوعا للحديث .

١٩ — وعلى هذا فليس ثمة كلام صدر عن فيلسوف طبيعي أقل قيمة من نبوءات يقولها كاهن على سبيل اليقين ، مستندا إلى شواهد ظنية لا تقوم على يقين ، وما أظن — على التحقيق — بأنك بلغت من سرعة التصديق حداً تعتقد معه أن صاعقة «جوف» قد أنزلها نوع من الشياطين^(٢) على جبل « أيتنا » إذ لو لم تكن لديه إلا صاعقة واحدة ، لكان إلقاؤها بين الحين والحين أمراً يشير الدهشة ، ثم إنه لا يستطيع أن يسدى إلى الناس بصواعقه كثيرا من النصائح ، لينبئهم بذلك إلى ما ينبغي فعله وما يجب الإمساك عن عمله ، ولكن « الرواقين » يصفون الصاعقة على هذا النحو :

(١) أنظر الفقرة السابعة من الكتاب الأول والناسعة والثلاثين من الكتاب الثاني .

(٢) Cyclopes جنس خرافي من الشياطين ، كانت صقلية مهددة الرئيسى ، ولكل شيطان عين تقع في منتصف جبهته ، وعدد هذه الشياطين كثير .

وصف الصواعق المنزرة عند الرواقية ومناقشة :

« عندما تتصاعد من الأرض أبخرتها الباردة وتشرع في الدوران ، تتحول إلى رياح ، فاذا اقتحمت هذه الرياح سحبها ما ، أخذت (الرياح) في التشتت ، وانتثر الدقيق من أجزائها ، فاذا تم هذا في سرعة بالغة وقوة عنيفة ، حدث الرعد ونشأ الرق . وعندما تتصادم السحب كذلك تنسحب حرارتها في عنف ، وتنشأ الصاعقة عن ذلك^(١). وعلى هذا فإنا إذا عرفنا أن هذه الظواهر ترجع إلى علل طبيعية وتقع بغير نظام مطرد ، وفي غير وقت معين ، فكيف ننظر إليها باعتبارها شواهد تنبئ عن مقبل الأحداث ؟ إنه لمن الغريب أن يزجروا « جوبتر » بالصواعق يرسلها في سماء لغير ما سبب ! فاذا يقصد مثلاً من إلقاتها في عباب البحار ؟ أو على قن الجبال السماء — كما يفعل في غالب الأحوال ؟ ثم خبرني لماذا يلقيها عبثاً في رحاب الصحارى المنعزلة عن كل نطاق معمور ؟ ولماذا يرمى بها على شواطئ شعوب لا تلتقي لها بالاً ؟

مناقشة استشهادات الرواقية والاصرار على تعليلها :

٢. — يا للعجب ! ولكنك تقول : إنهم عثروا على رأس التمثال في نهر التيسر^(٢) كما قال العرافون تماماً — كأنك افترضت أنني ذهبت إلى القول بأن عرافيك مجردون من كل فن^(٣) إن موضوع الخلاف بيننا هو أنني أنكر وجود التمكن بالغيب ، فان تقسيم السموات على النحو الذي أشرت إليه من قبل^(٤) ،

(١) يرى الرواقية فيما يروى ديوجانس اللايرتي وجود علاقة بين ظاهرة التبخر الذي ينتج عن حرارة الشمس وبين التيارات الهوائية ، والرياح عندما تسمى بأسماء مناطق السماء التي تهب منها ، والأصل هو فعل الشمس مع بخار الماء (جارنييه) .

(٢) قارن الفقرة العاشرة من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثاني « لويب » ويلوح أن شيصرون يريد أن يقول إن العيايين كانوا على شيء من الذكاء يمكنهم من معرفة الاتجاه الذي يجب التزامه في البحث عن الرأس ، وفي أي مكان سقط في النهر (جارنييه) .

(٤) قارن الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثاني (لويب) .

وملاحظة ما حدث في كل قسم منها ، يمكن العرافين من معرفة المكان الذي تهبط منه الصواعق أو تمضى إليه ، ولكن ليس في ذلك ما يحتمل أن يكشف لنا عن قيمة الصاعقة في مجال الغيب المحجب ، بيد أنك تسخر لمهاجتي أشعاراً نظمتها أنا من قبل (١) .

[وقف أبو الآلهة والبشر ذو الرعد السماوى على جبل أوليموس الذى يطاول النجم ، وأرسل شبهه ليدمر معابده وآثاره ، ورمى معبد الكايتول بنيرانه] .

وقد مضيت فى شعرى بعد هذا وقلت إن تمثال « ناتسا » Natta وصور الآلهة والقطعة الفنية التى تمثل « روميلوس » و « ريموس » مع الذئبة التى تعهدت تربيتهما (٢) ، قد نزلت بها صاعقة فهوت تلك الصور والتماثيل إلى الأرض جميعاً ، وقد تحققت النبوءات التى استتجها أهل العرافة من هذه الأحداث بحذافيرها ، وفوق هذا فإنك تستشهد بى كمصدر تستقى عنه هذه الحقيقة المعروفة ، وهى أنه فى نفس الوقت الذى قدم فيه لمجلس الشيوخ الدليل على المؤامرة ، كان تمثال جوبتر الذى تقررت إقامته قبل ذلك بعامين ، يشاد فى الكايتول .

وكنت تناقشنى قائلاً : هل تقنع نفسك بمهاجمة التكهن معلناً خصومتك لى ، رغم ما أسلفت من كتابات ، ورغم مهتك التى تشغلها ؟ « إنك أخى ولهذا فإنى أحجم عن اتهامك بنفس الإثم الذى تتهمنى به ، ولكن معذرة يا أخى ، ما الذى يثير فى نفسك الضيق من هذه المسألة ؟ ، أهى طبيعة الموضوع ؟ أم هو إصرارى على اكتشاف الحقيقة ؟ إنى أتخطئ شكواك

(١) يذكر هنا بعض الآيات التى سبق له أن ذكرها بعد الفقرة الحادية عشرة من الكتاب الأول وكنا قد أهملنا ترجمتها لقلة أهميتها كما أشرنا من قبل ، ولكنه ذكرها — فيما رجعنا — اعتزازاً بشعر نظمه ولم يجد من يقدره .

(٢) ترى قصة هذه الذئبة مع « روميلوس وريموس » فى الفصل الذى عقده عن « نشأة روما ونموها » — كما ترويه الأساطير — فى كتابى : قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٢٧ وما بعدها من الطبعة الأولى .

من تناقضى ، وأتس إليك إيضاحاً لموضوع العرافة كله ، ولكنك لجأت الى ملاذ غريب ، فقد تنبأت بأنى سأخرجك عند ما أطلب اليك إبداء العلة فى كل ضرب من ضروب التنبؤ بالغيب ، فوجدت فى ملاذك الكثير لنقوله بصدد هذه الحقيقة :

ما دمت أرى ما يقتهى إليه التكهّن بالغيب ، فإنى لا أستفسر عن السبب أو العلة التى أدت إلى ذلك ، والشئ الذى يعنينا من هذا هو : ماذا يسفر عنه التكهّن ؟ لا لماذا انتهى إلى ذلك . كأنى أسلم معك بأحد أمرين : أن التكهّن قد أدى إلى نتيجة ما ، أو أنه كان من الجائز لفيلسوف ألا يستفسر عن العلة فى حدوث شئ ما ١ ، وقد قدمت فى هذه المناسبة كتابى فى « النذر » (١) وبعض نماذج من حشيش « الأرسطولوجيا » و « المحمودة » ، قائلاً إنك استطعت أن تعرف فضلها وتبين نتيجة فملهما ، ولكنك أخفقت فى معرفة السبب فى ذلك (٢) .

٢١ — ولكن شرحك هذا ليس فى صميم الموضوع إطلاقاً ، فإن « ييثوس » الرواقى (٣) — وقد أسلفت الإشارة إليه — وصديقنا « بوسيدونيوس » قد تناول بالبحث الأسباب التى تؤدى إلى الظواهر الجوية ، ولو أنهم لم يكتشفوا هذه العلل ، فإن الظواهر نفسها يمكن أن تخضع للمشاهدة وتكون موضع دراسة ، أما فى حالة تمثال « ناتا » ولوحات القوانين النحاسية التى حطمها البرق ، فأية فرصة هناك تُمكن من المشاهدة التى تتكرر زماناً مديداً ؟ إنك تقول إن « ناتاس » من الأسرة « البينارية » — الرومانية — وأنها انحدرت عن أصل نبيل ، وعلى هذا كان من المتوقع أن يكون النبلاء مصدرأ لخطر داهم . ما أمهر « جوبتر » فى اختلاق الوسائل لجزرنا عن الخطر ! وقلت « إن تمثال الطفل « روميلوس » قد أدركته صاعقة ، فتكهّن العرافون

(١) قارن الفقرة الثامنة من الكتاب الأول (لوب) .

(٢) قارن الفقرة العاشرة من الكتاب الأول (لوب) .

(٣) قارن الفقرة الثامنة من الكتاب الأول .

استنادا إلى هذا الحدث ، بأن الخطر سيدهم المدينة التي شاهدها . ما أعقل جوبتر في استخدام الشواهد في حمل الأنبياء اليها ! وتقول كذلك : « إن تمثال « جوبتر » قد أقيم في نفس الوقت الذي كشفت فيه المؤامرة » وأنت تميل بغير شك إلى أن ترد هذا الاتفاق في وقوع الأحداث إلى العناية الإلهية ، أكثر مما تميل إلى إرجاعه إلى محض المصادفة ، وإنى أظن أن الرجل الذي عهد إلى « كوتا » و « توركواتوس » Torquatus في إقامة التمثال ، لم يرجح إتمام عمله لفتور في همته أو لعوز مادي ، ولكن يده لم تتحرك للعمل إلا في الساعة التي حددها الآلهة المخلدون !

اقرار المصادفة في مجال التكهن :

ليس بي من شك ميئس بصدد هذه النذر التي أرسلتها الآلهة حقا ، ولكنني أجعل وجودها ، وأود أن أعرف منك وجه الحق في أمرها . وعندما وقعت أحداث أخرى كتلك التي تكهن بها العرافون ، ولاحظت أنني أعزو اتفاق وقوعها إلى المصادفة ، أسهبت أنت في الحديث عن اتفاق المصادفات ، فمن ذلك أنك قلت : « إن رمية « فينوس » في زهرات الرد الأربع قد تعزى إلى المصادفة ، ولكن إذا أسفرت مائة رمية لفينوس ، فإن هذا لا يمكن أن يكون محض مصادفات »^(١) . وأنا لا أدري أولا لماذا يكون هذا مستحيلا ، ولكنني لا أصر على هذا الرأي ، لأن لديك من أمثلة هذا النوع كذا كبيرا ، ومن ذلك المثال الذي ضربته عن انتشار الألوان ، أو ذلك الذي سقته عن خرطوم الخنزير وغير ذلك من الأمثال كثير ، ثم إنك ذكرت عن « كارنيادس » تلك الأسطورة التي تدور حول رأس الإله « بان » ، كما لو كان التشابه لا يمكن أن تؤدي إليه المصادفات ! وكما لو كانت قطعة الرخام لا تنطوي بالضرورة على رؤوس تشبه الرؤوس التي يبدعها « برا كستيليس » Praxiteles^(٢) لأن

(١) قارن هذا وما يليه من أمثال في الفقرة الثانية عشرة من الكتاب الأول « لوبي » .

(٢) Praxiteles هو مثال يوناني ولد في أثينا حوالي عام ٣٩٠ ق . م وقد كانت تماثيله

التي نحتمل لفينوس ذاتة الشهرة في العصور القديمة .

الروائع الفنية التي أبدعها ، قد صنعها بنحته الرخام ، ولم يضاف إليها شيئا ما ، وبعد أن استنفد في النحت جهودا ، تكشف ملامح وجه ما ، ومن هذا يرى المرء أن العمل الفني الذي تم صقله وإعداده ، كان كامنا في ثنايا قطعة الرخام ، وعلى هذا فإن من الممكن أن تظهر الصورة التي وصفها «كارنيادس» من تلقاء نفسها في محاجر «شيان» Chian ، ثم قد تكون القصة — من جهة أخرى — من نسيج الخيال ، وهذا بالإضافة إلى إنك كثيرا ما لاحظت السحب وهي تأخذ شكل أسد أو صورة هيطر ، وإذن فمن الممكن أن تحاكي المصادفة الحقيقة ، وهذا هو الذي أنكرت التسليم به الآن^(١) .

ح — مهاجمة التكهن بنذر الزجر

٢٢ — قد استوفينا الآن مناقشة التكهن بالغيب عن طريق الأحشاء والبرق ، وبقي علينا أن تناقش نذر الزجر ، إذا كان لابد لنا من أن نعالج العرافة في مختلف صورها :

الجهل بالعدّة مثار الاعتقاد بالغيب :

لقد تحدثت عن بغلة تلد فلوا^(٢) ، مثل هذا الحادث يثير العجب لأن وقوعه نادر ، لو أن هذه الحادثة كانت مستحيلة لما وقعت ، وربما قيل بحمق في مهاجمة نذر الزجر ، إن الشيء المستحيل لا يقع أبدا ، والشيء الممكن لا يثير وقوعه في النفس دهشة ، فإذا وقعت حادثة جديدة كان الجهل بعلتها مثار دهشتنا ، بينما لا يثير هذا الجهل بالأشياء التي يتكرر وقوعها دهشة ما ، لأن المرء الذي يتعجب من ولادة البغلة ، لا يعرف كيف تلد الفرس ، بل يجهل الولادة عند مختلف الحيوانات بوجه عام ، إن ما يراه كثيرا لا يثير الدهشة في نفسه ، حتى ولو جهل كيفية وقوعه ، فإن وقع ذات مرة أمر لم يعهده من

(١) قارن الفقرة الثانية عشرة (في نهايتها) في الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن الفقرة السابعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) .

قبل بتاتا ، اعتبره نذير سوء . وإذن فأيهما يكون النذير الزاجر : حمل البغلة أو ولادتها ؟ ربما كان الحمل لا يتفق مع ما ألف الناس في الطبيعة ، ولكن الولادة تجمي . كنتيجة ضرورية للحمل .

نشأة علم العرافة ومناقشتها :

٢٣ — « لعل من نافلة القول أن نقول عن العرافة شيئا أكثر من هذا ، ومع ذلك فلنعرض للبحث في مصدرها ، وبهذا يسهل علينا أن نحدد قيمتها : يقول الآثار المتواتر إن فلاحا كان يحرق حقلا ذات يوم في إقليم « تاركويني » ، فغاص المحراث أعماق مما ألف أهل الحرث ، ثم ظهر شبح Tages^(١) وشرع يتحدث إلى الفلاح الذي كان يقوم بحراثة الأرض ، وتقول الأساطير عن أهل أتوريا ، إن هذا الشبح كان يبدو في صورة ولد ، ولكنه كان على حكمة نبي ، فأدركت الحيرة هذا الفلاح ، وأصابه الروع من جراء هذا المنظر المخيف ، فصاح يلتمس النجدة ، وأخذ الناس يتجمعون حوله ، حتى تكس أهل أتوريا في هذه البقعة في وقت وجيز ، وعندئذ شرع الشبح يتكلم في استفاضة إلى مستمعيه^(٢) الذين كثر عديدهم ، وكانوا يتلقون بلفظة كل ما كان يقوله واهتموا بتسجيله ، وكان خطابه منصبا على تغير علم العرافة ، ثم اهتدى الناس بعد ذلك إلى معلومات جديدة ، خبروا أمرها في ضوء القواعد التي عرفوها عنه ، فأضافوا هذه الحقائق الجديدة إلى ما توافر لديهم من حديثه عن العرافة .

تلك هي قصة العرافة كما انحدرت إلينا عن أهل أتوريا أنفسهم ، وكما دوتها أساطيرهم ، وهذا عندهم هو الأصل الذي نشأ عنه فنهم ، فهل ثمة من حاجة إلى « كاريادس » أو « أبيقور » ، ليدحض مثل هذا الهذر ؟ من في الدنيا

(١) Tages هو حفيد « جوبتر » ولكن بعض المؤرخين يرون أنه وليد قصير القامة ، نشأ عن كتلة طينية أخرجها محراث فلاح كما يلوح من النص ، وهو أول من علم أهل أتوريا علم التكهن بالغيب والعرافة .

(٢) قارن : Ovid, Met. XV.553 (لوبيس) .

بلغت به الغباوة إلى حد أن يعتقد أن حرث الأرض يكشف عن إله أو إنسان، لست أدري ماذا أقول؟ فإن كان إلها فلماذا أخفى نفسه في جوف الأرض على غير ما تقضى به طبيعته، حتى يكشف عنه ويظهره للناس محراث؟ أما كان يمكن لهذا الإله المزعوم أن يعلن هذا الفتى للبشر من مكان أكثر من هذا سموا؟ ولكن أرجو أن تنبتي، إن كان هذا الشبح رجلا، فكيف أمكن أن يعيش مغطى بالتراب؟ وأخيراً أين تعلم هو نفسه تلك المعلومات التي أفشى بها اللاغيار؟ ولكن من المحقق أنى حين استنفد هذا الوقت الطويل في دحض هذا الذى يبدو هنراً، أكون أكثر (سخفاً) تمرداً على منطق العقل من أولئك الذين آمنوا بهذه الأسطورة.

٢٤ — وفي الحق لقد كانت ملاحظة بدية قيمة تلك التى لاحظها وكاتو، منذ سنين طويلة عندما قال: «إني لأعجب من عراف لا يضحك إذا رأى عرافاً آخر، إذ كم من النبوءات التى تكهن بها العرافون قد تحققت فعلاً؟ وإذا كان بعض هذه النبوءات يصدق، فأى سبب يمكن الاستناد إليه فى التدليل على أن الاتفاق الذى كان بين الحادثة والنبوءة لا يرجع إلى محض المصادفات؟

عند ما كان «هانيبال» فى منفاه فى بلاط الملك «بروزياس» أشار على الملك بأن يشعل نار الحرب، ولكن الملك أجابه قائلاً: «إني لا أملك الإقدام على ذلك، لأن الأحشاء قد زجرتنى عنه» فقال له «هانيبال»: «أنتق فى قطع من لحم الثور أكثر مما تثق فى قائد خنكته التجارب»^(١) وكذلك الحال عندما حذر عراف طائر الصيد قيصر نفسه ألا يعبر أفريقيا قبل بدء الشتاء، ألم يعبرها قيصر؟ ولو أنه أحجم عن ذلك، لمسكن قوات العدو من أن تتجمع للقاءه فى مكان واحد.

ماذا أقول عن العرافة أكثر من هذا؟ إن من المحقق أنى أستطيع أن

(١) عقدت فى كتابى « قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة » فصلاً عن « هانيبال قائداً وشريداً » ترى فيه موقف بروزياس — ملك بئينيا — من هانيبال . أنظر ص ٢٠١ وما بعدها من الطبعة الأولى .

أقدم من الأمثلة ما لا يحصيه العد ، لكي أدلل به على أن نبوءات العرافين كانت لا تنتهى إلى نتيجة ، أو أن النتيجة فيها كانت على عكس ما تقول النبوءة . كم من مرة — أيها الآلهة — أخطأ العرافون فى الحرب الأهلية الأخيرة . ؟ أية نبوءة هبط بها الوحي وبعث بها أهل العرافة من روما إلينا — نحن أعضاء حزب بومبي — وأرسلوها إلى بلاد الإغريق . ؟ وكم من التأكيدات قدموها إلى بومبي . ؟ فقد كان « بومبي » يسرف فى الاعتماد على نبوءات الأحشاء ونذر الزجر ، لست أريد أن أعيد إلى الذهن هذه الأحداث ، فليس وراء ذلك جدوى ، ولا سيما وأنت على علم يقين بأمرها^(١) ، ومع هذا فأنت تعلم أن النتيجة كانت على وجه التقريب عكس النبوءة دواما ، ولكن حسبنا الآن عن هذا ما أسلفناه ، ولتحدث عن نذر الزجر :

٢٥ — « لقد سقت كثيرا من الأمثلة اقتبستها من أشعار نظمها وأنا قنصل ، وأوردت كثيرا غيرها لأحداث وقعت قبل الحرب المارسي^(٢) ، وكان « سيسنا » قد جمعها من قبل . وذكرت كما كبيرا رواه « كالستانس » لأحداث وقعت قبل معركة الأسبرطيين المنكودة عند « ليوكترا »^(٣) ومن المحقق أنى سأتناول هذه الأمثلة مفرقة ، كلا على حدة بحسب ما تدعو الضرورة إلى ذلك ، ولكن فلأعرض الآن لمناقشة نذر الزجر إجمالا :

الاعتقاد فى النذر لا يستقيم مع المنطق :

ما طبيعة هذه الدلالات الخفية ، أو هذه الأنباء السابقة التى يلقيها إلينا الآلهة لكي ينبئونا عن مقبل النكبات ؟ ولماذا — قبل كل شيء — يرى الآلهة المخلدون أن من الخير زجرنا بنذر لا نستطيع فهمها ، دون أن نستعين بمؤولين ؟ ولماذا — من جهة أخرى — يحذرنا الآلهة من أحداث لا نملك

(١) نلاحظ أن كوتوس قد رد مقما على هذا فى الفقرة الثالثة عشرة من الكتاب الأول .

(٢) قارن الفقرة الثالثة والأربعين من الكتاب الأول (لوب) .

(٣) قارن الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الأول (لوب) .

اتقاء شرها . ؟ إن الانسان نفسه — وهو كائن فان غير مخلد — متى أوتي الإحساس بالواجب ، يكف عن تحذير أصدقائه من المصائب التي توشك أن تقع ، إن كان من المستحيل الهرب من مواجهتها ، فمن ذلك أن الأطباء يعرفون في كثير من الحالات أن مرضاهم يشرفون على الموت من جراء مرضهم ، ولكنهم لا ينبئون هؤلاء المرضى بذلك أبدا ، لأن التحذير السابق من شر مقبل ، لا مبرر له ، إلا إذا اقترن ببيان الطريق الذي يؤدي إلى اتقاء هذا الشر ، وإذن فكيف أفاد الإسبرطيون من نذر الزجر ومؤوليا منذ زمان طويل . ؟ وكيف انتفع بها أصدقاؤنا أتباع «بومبي» بعد هذا الزمان . ؟ إذا كان لابد من اعتبار هذه الشواهد التي تحدث عنها كنذر أوحى بها الآلهة ، فلماذا شاها الغموض على هذا النحو ؟ فلو كان من حقنا أن نعرف الأحداث التي توشك أن تقع ، لوجب أن يسدوا لنا ذلك في وضوح وجلاء ، أو إذا كان الآلهة لا يريدون أن يمتكنونا من معرفة ذلك ، لما أخبرونا به ، لا جليا ولا خفيا . كما في أحجية والغاز .

٢٦ — وكل ضرب من ضروب الحدس — والتكهن (عن طريق نذر الزجر) إنما يعتمد على الحدس — يستخدم الناس في أكثر الحالات ذكاهم في ممارسته ومزاولته ، وتختلف طرقهم في ذلك ، بل وتتناقض ، وكما أننا نرى المدعى في الدعاوى القضائية يستنبط استدلالا ، ويستنبط المحامي للمدعى عليه استدلالا آخر ، وكلا الاستدلالين مستنبط من مجموعة واحدة من الوقائع ، ومع هذا فقد يكون لكل من الاستدلالين وجاهته ، فكذلك الحال في كل بحث يستند عادة إلى الحدس ، إذ نلاحظ أن الإبهام يشوبه . وفوق هذا فانا نجد في حالة الأحداث التي تقع على سبيل المصادفة حيننا ، وبالطريق المألوف الطبيعي حيننا آخر — وقد تنشأ أخطاء بالغة الكثرة من الظواهر الخداعة الباطلة — أن من الطيش البالغ أن نعتبر الآلهة علة مباشرة ، ولا نستفسر عن أسباب مثل هذه الأحداث .

التفسير المنطقي لاستشهادات الرواقيين كقيل بدمعصرها :

إنك تعتقد أن شعراء « ييوتيا » في « لباديا » قد تنبؤوا بانتصار الطيبين ،
استناداً إلى الديكة ، لأن الديكة — فيما تقول — من عادتها أن تلزم الصمت
إذا أدركتها الهزيمة ، وتنزع إلى الصباح متى كانت منتصرة^(١). فهل تعتقد حقاً
أن « جوبتر » كان يستخدم الكتاكيت في حمل مثل هذه الرسالة إلى دولة
عظيمة كهذه الدولة ؟ وهل صحيح أن هذا الطير لم يعود الصباح إلا إذا
كان منتصراً ؟ ولكن الديكة قد صاحت في هذه المرة دون أن تكون منتصرة
إذ ذاك ، ولكنك تقول : « إن هذا كان نذيراً زاجراً ، إنه نذير بديع حقاً .
إنك تتكلم كما لو كان الصائح سمكة وليس ديكاً من عادته أن يصيح .
ولكن خبرني ، هل ثمة وقت ما — في ليل أو نهار — لا تكون فيها الديكة
عرضة للصياح ؟ وإذا كان الإحساس السار — أو سمّه المرح إن شئت —
ذلك الذي ينشأ عن الانتصار ، هو الذي يحملها على الصياح ، فإن من الممكن
على هذا أن يكون للريح الذي ينشأ عن مصدر آخر نفس هذا الأثر .
ونقول عرضاً إن « ديمقريطس » يقدم شرحاً طيباً قيماً يكشف فيه عن
السبب الذي يدفع الديكة إلى الصياح قبل مطلع النهار ، فيقول : « إن طعامها
متى هضم ، خرج من الحوصلة ووزع على الجسم كله ، وفي الوقت الذي تتم فيه
هذه العملية ، تكون الديكة قد استوفت حظها من النوم ، فتشرع في الصياح ،
وإذن فهي حتى سكون الليل — كما يقول « أنيوس » — تنطلق حناجرها الشقراء
بالصياح ، وترفرف بأجنحتها غير المرئية ، وعلى هذا فإن هذا الطير نزاع إلى
الصياح بمحض إرادته ، ولهذا فمن المحتمل أن يدفع إلى الصياح تحت تأثير
طبيعته أو على سبيل المصادفة . فكيف قال « كاليستانس » ، إن الآلهة تنقل
النبوءات إلى الناس عن طريق الصياح الذي يصدر عن الديكة ؟

٢٧ — إنك تقول إن البعض قد رفع إلى مجلس الشيوخ أنباء بوجود

(١) قارن الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الأول (لوبي) .

مطرة من الدم ، وأن نهر « أتراتوس » قد فاض بالفعل دماً ، وأن تمائيل الآلهة قد تصببت عرقاً^(١) . فهل يمكن أن تتصور أن « طاليس » أو « أنكساجوراس » أو أى فيلسوف طبيعي آخر ، كان من الممكن أن يعتقد في صحة مثل هذه الأنباء ؟ إن الدم والعرق لا يصدران على وجه التحقيق إلا عن أجسام حية ، وقد يسفر امتزاج الماء ببعض أنواع التراب عن شيء بالغ الشبه في لونه بالدم ، والملاحظ أن الندى الذى يتكون على ظاهر الأشياء — على نحو ما نرى فوق حوائطنا الطينية عند مهب الرياح الجنوبية — يبدو شبيهاً بالعرق ، ومثل هذه الأحداث التى تبدو للخائف الوجل أيام الحرب مألوفة صحيحة إلى أقصى الحدود ، قلما تلاحظ أيام السلام . ثم إن القصص التى تروى عن نذر الزجر ليست سهلة الاعتقاد فى الفترات التى يشيع فيها الخوف ويفشو الخطر فحسب ، بل إنها كثيراً ما تخلق فى جو كله أمن وطمأنينة . ولكن هل بلغت بك السذاجة وعدم التبصر إلى حد أن تظن أن قرض الجرذان لشيء ، يعتبر نذيراً زاجراً .. ؟ مع أن الجرذان لا عمل لها فى الحياة إلا قرض ما يصادفها من أشياء ... وتقول : « ولكن العرافين قد أعلنوا كنذر مروع للزجر ، أن الجرذان قد قرضت التروس فى « الأنوفيوم » قبل حرب المارسي^(٢) ، كما لو كان هناك فارق ما ، بين قرض الجرذان للتروس أو للغرايل — وهى التى لا تكف عن القرض ليلاً ونهاراً ... »

وقد وقع هذا النذر نفسه لى ، إذ قرضت الفيران فى بيتى كتابى « جمهورية أفلاطون » منذ عهد قريب ، فيجب أن أمتلىء روعاً من أجل الجمهورية الرومانية .. أو إذا كانت هذه الفيران قد قرضت كتابى الذى وضعه « أبيقور » عن اللذة ، لكان يجب أن أتوقع ارتفاعاً فى أسعار الطعام^(٣) .

(١) قارن الفقرة الثانية والأربعين من الكتاب الأول (لوب) .

(٢) قارن الفقرة الثالثة والأربعين من الكتاب الأول (لوب) .

(٣) من عادة شيسرون أن يشير إلى « أبيقور » باعتباره داعية الذات الحسية ، ولكنه هنا يداعبه فيفرض أن كتابه عن الذات ينطوى على الرغبة فى إكثار عدد النهمين —

ومعهم النذرة كتنذير زاجر:

٢٨ — « وهل نرتاع من قصص تلك النذر التي يتكشف عنها مولد حيوان أو إنسان ؟ وحسبنا أن نقول في إيجاز إن كافة نذر الزجر لها تأويل واحد لا ثاني له ، وهو : أن كل ما تكشف عنه الوجود أياً ما كان نوعه ، يجب أن نلتبس سببه في رحاب الطبيعة ، وليس من الممكن أن يكون على خلاف مع الطبيعة حتى ولو لم يتفق مع تجاربنا في الحياة ، وإذن فاكشف — إن استطعت — علة كل حدث يثير دهشتك ، فاذا عزّ الاهتداء إلى معرفة العلة ، فسكن على يقين بأن ليس ثمة شيء رغم ذلك يمكن أن يقع دون علة تبرر وقوعه . واستخدم مبادئ الفلسفة الطبيعية في إبعاد الخوف الذي قد يساورك من شيء نادر لم تألف ظهوره من قبل ، وبهذا قلن يثير روعك وقوع زلزال ؛ ولا انشقاق سماء ، ولا قطرات من الحجارة أو الدماء ، ولا سقوط الكواكب أو النجوم ذوات الذنب .

وإذا كان لا بد لي من أن أستفسر من « كريستوس » عن العلة في كافة الظواهر التي أسلفت ذكرها ، لما قال — هذا الكاتب الممتاز الذي كتب في التكهن بالغيب — إن هذه الأحداث قد وقعت على سبيل المصادفة ، ولكنه كان يجد في قوانين الطبيعة تفسيراً لكل منها ، إذ كان يقول :

« لا معلول بغير علة ، وما لا يمكن حدوثه ، لا يحدث بالفعل ، وإذا حدث شيء كان من الممكن أن يحدث ، لما اعتبر نذيراً زاجراً ، وعلى هذا فليس ثمة شيء اسمه نذير زاجر ، ولكن إذا كان ثمة شيء يعتبر نذير سوء لأنه نادر الظهور ، لكان ينبغي أن يكون الرجل الحكيم نذير سوء ، لأن المرات التي تله

في الطعام ، وكلما ازداد عدد هؤلاء الأكلين — سواء أكانوا ناساً أم جرذاناً — ارتفعت أسعار الطعام فيما يقول مترجم لويب . والعلاقة في المثالين واضحة ، ففي المثال الأول تظهر العلاقة بين جمهورية أفلاطون والجمهورية الرومانية ، وفي الثاني يقول إن كثرة أكل الجرذان التي تطعم ، سيؤدي إلى نقص المواد الغذائية ، فينتهي هذا إلى ارتفاع في أسعارها (لويب) .

فيها البغلة فلوا ، أكثر — فيما أظن — من تلك التي تنتج فيها الطبيعة حكيمها .. ١١ .
ويقدم « كريسيبوس » في هذا الموضوع القياس التالي : إن الشيء الذي
لم يكن في الإمكان حدوثه ، لا يمكن أن يكون قد وقع ، والشيء الذي كان
يمكن وقوعه ، لا يعتبر نذيراً زاجراً ، وإذن فليس هناك شيء اسمه نذير زاجر
بأي وجه من الوجوه . وهذا تفسره الإجابة الموقفة التي أجابها أحد الكهان
ومؤولي نذير الزجر ، فقد طلب إليه رجل أن يفسر له قصة ثعبان باعتبارها
نذير سوء ، وقال له إن هذا الثعبان قد ظهر في بيته ، وقد التف حول اسطوانة
خشبية . فقال الكاهن : « ليس هذا نذير سوء ، وقد كان من الممكن أن يكون
نذير سوء لو وجدت الاسطوانة الخشبية ملتفة حول الثعبان .. ١٠ فكشفت
هذه الإجابة في وضوح مقنع عن « أن ما يمكن وقوعه لا يعتبر نذير سوء أبدا » .

٢٩ — إنك تشير إلى خطاب كتبه « جايوس جرا كوس » إلى « مار كوس
بومبونيوس » ونص فيه على أن « تباريوس جرا كوس » أبا « جايوس » قد
أمسك ثعبانين في بيته ، وأنه جمع العرافين^(١) ، ولست أدري لماذا يكون التشاور
في أمر الثعبانين ولا يكون في أمر الجراذين أو الفيران . ؟ إنك تعلق على هذا
قائلاً : « لانا نرى الجراذين والفيران كل يوم ، وأما الثعبانين فانا لا نراها
دواماً ، كما لو كان مدى تكرار الشيء الذي نعلم إمكان وقوعه ، يؤدي إلى فرق
في هذا الصدد . ومع هذا فإن الشيء الذي يثير دهشتي هو هذا : إذا كان إطلاق
أنثى الثعبان يؤدي إلى هلاك « تباريوس جرا كوس » وإطلاق الذكر ينتهي
بموت « كورنليا » ، فاني لأدهش لماذا أطلق صراح أحدهما ولم يُبق عليهما معاً ؟
لأن « جرا كوس » لم ينص في خطابه على أن العرافين قد قرروا ماذا تكون
النتيجة إذا أبقى الثعبانين ولم يطلق صراح أحدهما . ثم إنك تقول : ولنفرض
الامر كذلك ، وأن « جرا كوس » قد اختطفه الموت ، هذا أمر مسلم به ،
ولكن موته قد نشأ عن مرض بالغ الخطورة ، ولم ينشأ عن إطلاقه صراح

(١) قارن الفقرة السابعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) .

الثعبان — هذا وليس العرافون من فكّد الطالع بحيث لا تصدق نبوءاتهم أبداً — حتى على سبيل المصادقات... ١

٣٠ — « وسأعجب لا محالة بهذه القصة المعروفة التي اقتبستها عن هوميرو ، والتي تدور حول « كافكاس » الذي تذبّأ بعدد السنين التي يستغرقها حصار ترواده ، من عدد العصافير — إن صح ذلك^(١) — وقد ترجمت في فترة فراغ ما يقوله « أجائمنون » في إلياذة « هوميرو »^(٢) عن هذه النبوءة ، ولكن أرجو أن تفتني ، بأي قاعدة من قواعد العياقة تستنتج من عدد العصافير أعوام لا شهور ولا أيام ؟ ثم لماذا يقيم العراف نبوءاته على عصافير صغيرة وهي لا تعتبر من المناظر الشاذة غير المألوفة ، ويهمل ما يدعيه الناس من أن إبليس قد تحول إلى حجر — وإن كان هذا مستحيل الوقوع — ؟ ثم ما حقيقة الأمر في تلك العصافير التي توحى بعدد السنين ؟

وإني لأذكر ملاحظتين بمناسبة القصة التي رويتها عن الثعبان الذي ظهر أمام « سلا » عندما كان يقدم ضحاياه^(٣) : أولها أن « سلا » عندما قدم القرايين وهو يتأهب للمسير للقاء عدوه ، ظهر له ثعبان كان تحت المذبح . وثاني الملحوظتين أن الانتصار الباهر الذي ظفر به « سلا » في هذا اليوم ، لا يرجع إلى فن العراف ، ولكنه يعزى إلى مهارة القائد .

٣١ — ليس فيما يزعمونه في نذر الزجر التي تدخل في هذا النوع الذي أسلفناه الآن شيء خليق بالذكر ، ولكن بعض المؤولين قد نقلوا الأحداث بعد وقوعها إلى مجال النبوءة ، فمن ذلك قصتك التي رويتها عن حبوب القمح التي تكدست في قم « ميداس »^(٤) عندما كان طفلاً ، وعن النحل الذي

(١) قارن الفقرة الثانية والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) إنه « عوليسس » Ulysses وليس أجائمنون — قارن إلياذة ج ٢ ص ٢٩٩

(لويب وديماريه) .

(٣) قارن الفقرة الثانية والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٤) قارن الفقرة الخامسة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

استقر على شفتي « أفلاطون »^(١) وهو لا يزال في المهد صيا ، إن المعروف أنها تخمينات أكثر منها نبوءات حقيقية ، وهذا بالإضافة إلى أن هاتين القصتين ربما كانتا من نسيج الخيال ، فاذا لم تكونا كذلك ، فإن تحقق النبوءة كان أمرا عرضيا .

أما عن حادثة « روسكيوس » ، فربما كان اختلافا ما يقال من أن ثعبانا قد لف نفسه حوله ، ولكن ليس من الغريب أن يوجد في مهد ثعبان ، ولا سيما في « سولونيوم » ، حيث تتوافر في البيوت الأماكن المعدة للنار ، فيجذب الدفء كثيرا من الثعابين .

أما عن رأيك في أن العرافين قد تذبذبوا لـ « روسكيوس » ، بمستقبل في المجد لا يجارى ، فانه ليدو غريبا على أن يتنبأ الآلهة المخلدون بمجد لمثل (هزلى) ، ولا يقتنبون بذلك للأفريقي « سيبو » !

وقد جمعت قصصا عن نذر الزجر التي تتصل بفلاينيوس^(٢) . وقلت « إن حصانه قد كبا وسقط الى الأرض » . هذا أمر غريب ، أليس كذلك ؟ وقلت « إن علم الفرقة الأولى قد استعصى اقتلاعه » ، فربما كان حامل العلم قد مكن له حين غرسه ، فلما حاول اقتلاعه جذبته في رفق ، ثم أية غرابة في أن « فرس ديونييسيوس » قد نجا من الغرق ، أو أن نجلا كان على عرفه ؟ ومع هذا فقد اعتبر العرافون هذه الحادثة نذير سوء ، لأن « ديونييسيوس » قد تولى الحكم بعد ذلك بزمان وجيز ، الأمر الذى كان محض مصادفة .

وتقول : « إن الأسلحة قد صارت في معبد هرقل في اسبرطة ، وأن الأبواب في معبد هذا الإله في طيبة ، انفتحت من تلقاء نفسها ، رغم أنها كانت محكمة الغلق بقضبان ، وأن التروس المعلقة على حوائط هذا المعبد قد هوت إلى الأرض »^(٣) . وإذا لم يكن في الإمكان أن يحدث شيء من هذا بغير قوة

(١) قارن الفقرة الخامسة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن الفقرة الرابعة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن في هذا وفي المثاليين التاليين الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب)

خارجية ، فلماذا تزعم أنها وقعت بتأثير فعل إلهي ، لا على سبيل المصادفة . ؟
٣٢ — « إنك تذكر ظهور تاج من الحشيش البري على تمثال « ليزاندر »
في دلفي — وقد كان ظهوره فجائياً — فهل حقاً ما يقولونه في ذلك .. ؟ وهل
تظن أن تاجاً من الحشيش يظهر إلى الوجود قبل أن تتكون بذوره . ؟ إلى
أعتقد — فوق هذا — أن هذا الحشيش قد نبت من بذور حملتها الطيور
ولم تغرسها يد بشرية ، ثم إن الخيال يصور للإنسان كل ما يعلو الرأس في
صورة تاج . وتقول : « إن النجوم الذهبية في الوقت نفسه قد هوت في معبد
« كاستر » و « بولوكس » في دلفي ، واختفت حتى لم يعثر عليها أحد ، يخیل إلى
أن الأحرى أن نقول إن هذا عمل لصوص وليس عمل آلهة .. ! وإنه لما يثير
دهشتي أن أرى مؤرخي الإغريق يسجلون ما قام به قرد « دودونا » من ألعاب
مشثومة ، إذ أي شيء أقل غرابة ، من أن يقلب هذا الحيوان القبيح وعاء
الأنصبة وييعثر ما يحويه . ؟ ومع هذا فإن المؤرخين يعلنون أن ليس ثمة نذير
وقع للأسبرطيين وكان أكثر من هذا إثارة للربح . ؟

« ولقد تحدثت كذلك عن النبوة التي أعلنها رجل من أهل « في »^(١) وقال
فيها : « إذا فاضت بحيرة « ألبانوس » ، وصبت في البحر مياهها سقطت روما ،
فإن عاقبا عن ذلك عائق سقطت في » — حسن ، فقد حدث أن انسحب
ماء البحيرة ، ولكن خنادق الري هي التي سحبت ، ولم يكن هذا لإنقاذ
« الكايتول » ، أو تأمين روما ، بل كان لصالح الأرض المزروعة . وتعقب على
هذا قائلاً : « وبعد وقوع ذلك بأمد غير طويل ، سمع الناس صوتاً يحذرهم
ليأخذوا حيطتهم حتى لا تسقط روما في يد الغاليين ، ولهذا أقاموا مذبحاً على
الطريق الجديد ، تقديرًا لصاحب الصوت « آيوس المتكلم » ، ولكن لماذا
هذا .. ؟ هل نطق هذا « الآيوس المتكلم » ، وتحدث قبل أن يعرف امرؤ من
هو ، فخلع الناس عليه اسم « المتكلم » ، من أجل ذلك . ؟ ثم هل أدركه الصمت

(١) قارن الفقرة الثالثة والأربعين من الكتاب الأول (لوب) .

وأصابه الخرس بعد أن ظفر بنفوذ وأقيم له مذبح وأصاب شهرة بين الناس ؟
ويمكن أن يقال هذا نفسه عن « جونو » الناصحة (١) إذ أية نبوءة أعلنتها لنا
إذا استثنينا نبوءة الخنزيرة الحبل ٢٠

د — مهاجمة التكهّن باستنباء الطيور

٢٣ — حسبنا هذا عن نذر الزجر ، ولتحدث عن الفأل والطيرة والأنصبة ،
وأقصد بالأنصبة تلك التي يجري سحها ، لا التي يعطها الرمون ، والأصح أن
نسميها « وحيا » ، وسأعرض للحديث عن الوحي إذا انتهيت إلى التكهّن الطبيعي
بالغيب ، ثم ينبغي مع هذا أن أناقش الكلدانيين ، ولكن فلنشرع في الحديث
عن استنباء الطيور :

استخفاف شيسرون بالعبادة مع الاستغفال بها :

تقول « إن مهاجمة التكهّن باستنباء الطيور شيء عسير على رجل من أهل
العبادة ، أجل ربما صح هذا عن عياف مارسي ، ولكنه أمر سهل ميسور
لعياف روماني ، لاتنا معشر الكهان من الرومان ، لسنا من أولئك الذين
ينبشون بالمستقبل بملاحظة الطيور وهي تحلق في الجو ، ونحو ذلك من شواهد ،
ومع هذا فإني أسلم بأن « روميلوس » الذي شاد روما مسترشدا بهذي الطيور ،
كان يعتقد بأن العبادة فن مفيد في معرفة الأشياء التي تقع ، لأن القدماء كانوا
يعتقدون كثيرا من الآراء الخاطئة حيال كثير من الموضوعات ، ولكن فن
العبادة قد طرأ عليه الكثير من التطورات بفضل ما اهتدينا إليه من تجارب ،
وما بلغناه في ميادين العلم ، أو بمضى هذا الزمان المديد ، ولكننا — تمشيام
رأى الجماهير وحرصا على صالح الجمهورية — قد عملنا على تقوية تقاليد العبادة
ونظمها وشعائرها الدينية وقوانينها ، كما رفعنا من شأن ديوان العبادة (٢) .

(١) قارن الفقرة الرابعة والأربعين من الكتاب الأول (لوي) .

(٢) كان شيسرون من أهل السياسة المتنازين في عصره ، ومن شأن السياسة أن تطغى
على ما لا يحجبها من آراء خاصة ، فهو لا يعتقد في وجود التكهّن بالغيب في مختلف صورته ،
ولكنه كان يتظاهر بالاعتقاد في صحته ، ويستغله في تحقيق غايات كما يلوح من هذا النص .
وقد أشرنا إلى هذا في المقدمة وقارن الفقرة الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين من
الكتاب الثاني أيضا .

أما القنصلان « بوبليوس كلوديوس » و « لوكيوس جونيوس » اللذان أبحرا على كره من زجر البارح من الطيور ، فقد كانا — فيما أرى — خليقين بما أصابهما من عقاب صارم ، إذ كان عليهما أن يحترما الديانة المرعية ، وما كان ينبغي أن يقفا من تقاليد أجدادهم هذا الموقف الذى يقوم على احتقار لا حياة فيه ، وإذن فقد كان عقاباً عادلاً أن يقرر الشعب إدانة الأول ، وأن يجهز الثانى على حياته .

وتقول : « إن « فلانيوس » قد أبى أن يستجيب لما قضت به الطيور ، فلقى حتفه مع جيشه » . ولكننا نعلم أن « باولوس » قد أصاخ للطير بعد ذلك بعام واحد ، فهل استطاع أن يحتفظ بجيشه أو يبقى على حياته فى معركة « كانى » ؟ فلنسلم بوجود السانح والبارح فى الفأل والطيرة — وذلك ما لا وجود له — فإن من المؤكد أن هذا الذى نستخدمه الآن — سواء أسخرنا فيه الكتاكيت أم اعتمدنا فيه على ملاحظة السموات — لا يعتبر فالاً وزجراً بأى معنى من المعانى ، ولكنه مجرد طيف لها^(١) .

إجراءات الحكام فى معرفة الطالع

٣٤ — « إنى ألتس معوتك فى معرفة الطالع يا كوتتوس فايوس . فيجيب المساعد قائلاً : « ها أنذا مستعد لمعوتك » ، كان الحكم فى عهد أجدادنا يستدعون فى مثل هذه المناسبات كاهناً بارعاً فى معرفة الطالع ، أما فى هذه الأيام فإن أى امرئ يصلح لهذا العمل ، مع أن من الضرورى أن يكون المرء بارعاً ماهراً حتى يعرف ما يلائم إجراء التنبؤ ، ونحن نقصد بهذا « خلو الظروف من كل ما يعرقل التنبؤ بالغيب » ، وتوقف معرفة ذلك على خير بفن العيافة ، فإذا قال الحاكم الذى يشرف على الطالع إلى مساعده :

(١) سيبدأ الآن شيشرون بشرح رأيه ، فيذكر تلك الصيغ الباطلة التى يستخدمها الحكماء فى معرفة الطالع ميمونا كان أو شثوما — وهو يصور نفسه فى صورة الحاكم الذى يشرف على الطالع ، ويخاطب مساعده من أهل العيافة باسم « كوتتوس فايوس » وهو ليس اسماً على مسمى معين معروف ، (وشبهه بهذا أن نسيه زبداً أو بكراً) (لوب) .

« نبتى متى يبدو أمامك الجو ملائماً ، أجاب مساعده فى سرعة دون بحث أو تردد أو تلفت : « يلوح أنه ملائم ، فيقول الحاكم : « نبتى متى تشرع الكتاكيت فى أن تطعم ، فيجيب هذا قائلاً : « إنها تطعم الآن » .

ولكن ما هذه الطيور التى يتبادلان الحديث عنها ، وأين توجد ... ؟
يقال : « إنها دجاج ، وأنها توجد فى قفص ، وأن الشخص الذى أحضرها سعى بالدجاجى نسبة إلى عمله » .

أولئك إذن هم رسل « جوف » . . . فأى فرق هناك بين أن تطعم هذه الطيور أو تمسك عن الطعام ؟ لا علاقة لشيء من هذا بالطالع إطلاقاً ، ولكن الدجاج عند ما تطعم لا بد من أن تتساقط من فمها قطع من الطعام لا محالة ، فإذا سقطت ضربت بالأرض ، وإذن فعند ما تسقط كسرة صغيرة من الطعام من فم فرخة ، يعلن العياف للحاكم المشرف على الطالع ، أن كسرة الطعام قد مست الأرض (١) .

الضميمون العيافة :

٣٥ — ثم كيف يمكن أن يكون إلهيا ذلك الطالع المصطنع ؟ إن مثل هذه العادة التى لم يعرف أمرها بين عيافى العصور القديمة ، قد أيدتها سنة قديمة فى كليتنا (ديواننا) ، مؤداها « أن الطائر قد يكشف عن طالع حين تسقط من فم كسرة الطعام عفواً ، فإن من الممكن أن يوجد الطالع متى كان الطائر حراً فى أن يبين عن نفسه خارج قفصه ، فى مثل هذه الحال يمكن أن يسمى الطائر ترجمان « جوف » ، وتابعه (٢) أما الآن ، وهو داخل قفص مغلق يؤذيه الجوع ، فإنه إن أمسك شريحاً بقطعة صغيرة من فضلات الطعام ، وسقط منها جزء من فمه ، اعتبروا هذا طالماً ميموناً . . . وهل تظن أن هذه الطريقة هى

(١) قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) وقد عرض المؤلف بعد هذا تطور اللفظ فى اللاتينية .

(٢) قارن هومير فى الأوديسا ج ١٥ ص ٢٥٠ (لويب) .

التي كان « روميلوس » يكشف الطالع عن طريقها ؟ وألست تظن أن المشرفين على الطالع كانوا قديماً يكشفون عن الطالع بملاحظة السموات ؟ أما الآن فانهم يستمدون أنباءه من دجاجي يتكفل بالإجابة على ما يطلبون^(١) !. إننا نقول إن البرق متى التمع يسرة كان فالأ ميمونا في كل حالة — إذا استثنينا حالة الانتخاب — ومن المحقق أن هذا الاستثناء كانت تبرره مناسبات سياسية، هي تمكين حكام الدولة من الإشراف على نظام التصويت ، سواء أكان هذا لإصدار أحكام في قضايا جنائية أو لسنّ قوانين أو لانتخاب حكام .

ونقول إن القنصلين « فيجلوس » Figulus و « سيبو » Scipio قد تنحيا عن وظيفتهما عند ما استند أهل العيافة إلى خطاب كتبه « تباريوس جراكوس » ، وقرروا أن هذين القنصلين لم يعينا تبعا لقانون العيافة^(٢) . فنذا الذي ينكر أن العيافة فن ؟ إن ما أنكره هو قيام التكهن بالغيب^(٣) ولكنك تقول : « إن العرافين في وسعهم أن يكشفوا عن الغيب المحجب ، وتروى هذه الحادثة التي تقول بأن رئيس المائة الأولى في الانتخاب كان يحمل نتيجة تصويت أعضائها إلى رئيس المجلس ، فمات فجأة وهو يحمل هذه الأصوات ، فاستند « تباريوس جراكوس » إلى هذا الحادث ، وقدم العرافين إلى مجلس الشيوخ ، فأعلنوا بأن الرئيس قد خالف قانون العيافة^(٤) ولسنا نفهم من هذا — أولا — أن العرافين قد قصدوا بالرئيس رئيس المائة الأولى ،

(١) من الواضح أن شيشرون يسخر هنا من فكرة الدجاجي لا من المشرف على معرفة الطالع (لويب) .

(٢) قارن الفقرة السادسة عشرة في الكتاب الأول (جارنييه) .

(٣) يراد بهذا فيما يلوح أن العيافة فن له قواعده ومبادئه ، ولكن هذا لا يمنع من إنكار صدق العيافة وغيرها من طرق التكهن .

(٤) وردت هذه الحادثة مسبهة في شيشرون : « طبيعة الآلهة » ج ٢ في الفصل الرابع ويراد بـ Prerogative Century فريق المائة الذي كان له حق التصويت في الانتخاب أولا ، وقد كان له رئيس يقوم بجمع أصواته ، وكان يتألف المجلس من المنتخبين الذين حصلوا على أصوات الفرق المثوية ، وكان له رئيس أعلى جرت العادة بأن يكون القنصل الذي كان يتلقى تقارير رؤساء المئات التابعين له (لويب) .

إذ كانت المنية قد أدركت هذا الرئيس ، ولقد كان في وسعهم — ثانياً — أن يهتدوا إلى ذلك بالحدس دون الاستعانة بالتنبؤ بالغيب ، أو ربما قالوا هذا على سبيل المثال — وليس من الحكمة أن نغفل عن أهمية الاتفاق في مثل هذه الأحداث — إذ ما الذى يمكن العرافون من أهل أتوريا أن يهتدوا إلى معرفته — سواء ما اتصل بإقامة خيمة العرافة في مكانها اللائق بها ، أم بملاحظة الترتيبات التى تتعلق بتخوم المدينة . . ؟ وأنا من جانبي أميل إلى الاتفاق مع « جايوس مارسيلوس » فى رأيه ، ولا أميل إلى تأييد الرأى الذى ذهب إليه « أيوس كلوديوس » ، فأظن أن قانون العيافة وإن كان قد قام فى أول أمره على عقيدة فى التكهن بالغيب ، فإن الدوافع التى أدت إلى حفظه وصيائمه بعد ذلك ، إنما ترجع إلى اعتبارات سياسية .

مهاجمة العيافة عند غير الرومان :

٣٦ — ولكننا سنتناول النقطة الأخيرة بالإسهاب فى أبحاث أخرى ، فلنغفل الآن الحديث عنها ، ولنمض إلى البحث فى فن العيافة كما تمارسه الأمم الأجنبية ، التى تستخدم طرقاً تغلب فيها الخرافة جانب الفن ، إنهم يستخدمون كافة أنواع الطيور على وجه التقريب ، أما نحن معاشر الرومان ، فإنا لا نستخدم إلا القليل منها ، والميمون من الشواهد عندهم قد لا يكون ميمونا فى عرفنا ، وقد كان الملك « ديوتاروس » كثيراً ما يستفسر منى عن النظام الذى تتبعه — نحن الرومان — فى فن العيافة ، وقد كنت أستفسر منه بدورى عن النظام الذى تتبعه أمته بصدد هذا الفن ، أيها الآلهة . اكم تباين طرق العيافة بين شعب وشعب . ؟ إنها لتختلف اختلافاً بيناً حتى ليحمل الشاهد عند شعب عكس المعنى الذى يحمله عند شعب آخر ، إنه كان على الدوام يستنبئ الطيور ليعرف السانح والبارح منها ، أما نحن فلا نستخدمها أبداً إلا حين تقضى إرادة الشعب باستخدامها ، وقد كان أسلافنا لا يقدمون على تنفيذ مشروع حرنى دون أن يستنبؤوا الطيور ليعرفوا فألها وزجرها ، أما

الآن فإن حروبنا يتولاها منذ ستين عديدة مساعدو القناصل ومساعدو الحكام الذين يلون القناصل في المرتبة، وليس من حق هؤلاء أن يستنبثوا طيرا، بل ليس لديهم طائر يستخرونه في معرفة الفأل، وهم يعبرون الأنهار دون أن يعرفوا الطالع فيما هم مقبلون عليه، فإذا آل إليه التنبؤ بالغيب عن طريق الطيور؟ إن الذين تولوا حروبنا لا يستخدمونه لأنهم لا يملكون الحق في استنباء الطيور لمعرفة فألها وزجرها، وماداموا قد كفوا عن استخدامها في أمر الحروب، فاني أظن أنهم يحتفظون به لاستخدامه في شئون المدينة وحدها..

التكهن بأدوات القتال :

أما عن التكهن بأدوات القتال^(١) وهو ما كان في الشئون الحربية إجمالا، فقد كان هـ ماركوس مارسيلوس، يجهل أمره جهلا قاطعا، وهو الذي شغل القنصلية خمس مرات، وكان فوق هذا قائداً أعلى للجيش، كما كان عرافاً دقيقاً. وكثيرا ما كان يقول إنه إذا شاء القيام بحركات عسكرية يخشى زجر الطيور في أمرها، رحل في حفرة مغلقة^(٢). إن طريقته تتفق مع ما تنصح به نحن معاصر العياقين، حين نأمر برفع النير عن الحيواناتن اللذين يجران المحراث لمنع الفأل المشتموم^(٣). . . فإذا بقي للاله هـ جوف، ليزجر به محذرا، اللهم إلا أن يمنع من وقوع الطالع، أو يحول بين رؤياه إن وقع؟

(١) كان المقروض أن يكون هذا النوع من التكهن قائما على الوميض الكهربائي الذي يبدو من رؤوس الحراب والسيوف والمزاريق. قارن Seneca. Q.N.i.1, Pliny. H. N. 37, Cic. N.D: ii. 3.9, Livy, XXii.1 Xliii.13 (لوبي).

(٢) حتى لا يرى شاهداً زاجرا لا يتفق مع مقصده (لوبي).

(٣) كان هذا يقع عندما يوضع النير على عنق زوج من الماشية، فيزبلان في وقت واحد (لوبي).

مناقشة استشرادات الرواقية :

٣٧ — « إن قصتك التي رويتها عن « ديوتاروس » ، ^(١) تبدو على تناقض
يُتَن : « إنه لم يأسف على طالعه الذي تكشف له وهو يهيم بالحاق ببومبي ،
ولقد أدى به هذا الطالع إلى أن يواصل طاعة الشعب الروماني وبني بصدافته ،
ويؤدي واجبه نحوه ، لأنه كان يحرص على سمعته وشرفه ، أكثر مما يحرص على
حيازة الملك واقتناص الغنى ، وإنى لأقول إن هذا لا يتصل بفأل الطيور وزجرها
في كثير أو قليل ، لأن الغراب لم ينبئ « ديوتاروس » ، بأنه كان على حق في توكلي
الدفاع عن حرية الشعب الروماني ، وقد كان ينبغي أن يعرف هذا بنفسه ،
وفي الحق لقد اهتدى إلى معرفته ، فإن الطيور تنبئ بأن العاقبة ينتظر أن تكون
ميمونة أو مشومة ، أما عن رأيي في هذا الصدد ، فهو أن « ديوتاروس » قد
استنبأ طالع الفضيلة — لا طالع الطيور في فآلها وزجرها — والفضيلة إنما
تقضى بالألا تسعى إلى اقتناء الثروة إلا بعد أن تستكمل أداء الواجب ، وإذا
كانت الطيور قد تكشفت لديوتاروس عن فآل ميمون ، فإنها تكون على وجه
التأكيد قد خدعته ، فقد لاذ من المعركة مع « بومبي » فراراً — وهذا موقف
له خطره ..! وانفصل عن « بومبي » — وهذا موقف يشير الأسف ، وسرعان
ما رأى قيصر ، عدوه وضييفه معا — أى شيء أكثر من هذا ماثراً للحزن ، وقد
اغتصب منه قيصر وظيفته كحاكم على « تروكومورى » ، وخلعها على رجل خامل
الذكر من أذنا به من أهل « برجاموس » ، وانتزع منه أرمينيا — وكانت هبة من
مجلس الشيوخ — وتقبل من مضييفه أعظم إكرام ، ثم جرده من كل ما يملك ..!
ولكنى بعدت عن الموضوع كثيراً ، وينبغي أن أعود إلى النقطة التي كنا على
خلاف في أمرها : إذا بحثنا هذا الموضوع من ناحية نتائجه — وهذا هو

(١) قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول (لوب) .

الموضوع الذى تستشار الطيور فى أمره — وجدنا أن العاقبة لم تكن ميمونة لديوتاروس بأى معنى من المعانى ، وإن بحثنا فيه من ناحية الواجب ، لاحظنا أنه كان يلمس فى هذا الشأن أبناء تتصل بضميره ، ولا علاقة لها بفأل الطيور وزجرها .

٣٨ — دع الحديث عن عصا « روميلوس » Romulus فى فن العيافة (١) ، تلك التى تقول عنها إن النار فى أشد أوارها ، لم تقوَ على إحراقها ، ولا تهتم بمسن « آتيوس نافيس » ، إلا قليلا ، فإن الأساطير لا ينبغى أن يكون لها مكان فى مجال الفلسفة ، والأنسب لك كفيلسوف أن تبدأ بالبحث فى طبيعة التنبؤ بالغيب بوجه عام ، ثم تعقب على هذا بالبحث فى أصله ، ثم تنتهى بالكلام فيما فيه من توافق وعدم تناقض ، فما هى إذن طبيعة فن يستمد نبوءاته من طيور تتجول على غير هدى هنا وهناك ، ويجعل إقدام الناس على عمل أو إمساكهم عنه ، رهنا بتغريد الطيور أو سبجها فى فضاء الجو . . ؟ ولماذا وهبت بعض الطيور قدرة تمكنها من إعطاء الفأل الميمون إذا طارت يسرة ، بينما يعطى غيرها هذا الفأل إن تيامن فى طيرانه . . ؟ ثم كيف ، ومتى ، وإلى من نستطيع أن نعزو ابتكار هذا النظام . ؟ من الحق أن نقول إن أهل أتوريا يرون أن واضع نظامهم هو ذلك الصبي الذى كشف عنه حرث الأرض ، ولكن من الذى وضع هذا النظام عندنا — نحن معاشر الرومان . . ؟ — أهو « أنوس نافيس » ، . . ؟ ولكن رميلوس وريموس — فيما تقول الأسطورة — كان كلاهما من أهل العيافة ، وقد عاشا قبل ذلك بأعوام طوال ، فهل نستطيع أن نقول إن البيسديين والكيليكين أو أهل فريجيا هم أصحاب الفضل فى ابتكاره . ؟ إذن فهو أنت الذى رأيت أن أولئك الذين تجردوا

(١) قارن فى هذا وفى المقال التالى الفقرة السادسة عشرة من الكتاب الأول ، وقد ناقش شيشرون الأمثال التى استعارها كوتوس من الأمم الأجنبية فى الفقرتين السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين ، وسيشرع الآن فى مناقشة الأحداث الرومانية التى استشهد بها « كوتوس » (لويب) .

عن كل علم إنسانى ، هم الذين قاموا بوضع علم إلهى^(١) .

٣٩ — وتقول : « ولكن جميع الملوك وكافة الناس وسائر الشعوب يستنبثون الطيور لمعرفة الفأل والطيرة ، كأنك لا تعرف أن ليس ثمة شيء أكثر عند الناس شيوعاً من حاجتهم إلى التفكير ، أو كما لو كنت — أنت نفسك — عند ما ترى فى موضوع رأيا ، تقبل فى ذلك رأى طغام الناس ! كم من رجل تراه يقول بأن اللذة ليست خيراً . ؟ وسواد الناس يراها « الخير الأسمى بالفعل » ، فهل يتخلى الرواقيون عن رأيهم فى اللذة لأن الجمهور لا يدين به . ؟ أو تظن أن الجمهور ينقاد للرواقين فى كثير جداً من الأمور . ؟ فأى عجب إذن إن سلم ضعاف العقول فى استنباء الطيور وفى سائر ضروب التكهن بالعادات الخرافية التى أسلفت ذكرها ، وأى بدع إذا أعوزتهم القدرة على تمييز وجه الحق فيها . ؟ ثم إنا لا نجد بين أهل العياقة توافقاً فى الرأى ولا اتفاقاً فى كل الحالات ، وقد قال « أنيوس » مشيراً إلى نظام الرومان فى فن العياقة [إن رعد جوف يلقى بالفأل الميمون يسرة من سماء صافية الأديم]^(٢) . ولكن « أجاكس »^(٣) قد أصاب عندما شكنا فى « هومير » ، إلى « أشيل » من بعض الأعمال الوحشية التى قام بها أهل ترواده ، فقال على هذا النحو : [إن جوف يرعد يمنة منبثاً بتجاحهم] .

ولهذا فإننا نعتبر الشواهد التى تقع يسرة ميمونة ، أما الإغريق والبرابرة فإنهم يعتبرون ما يقع منها يمنة ، ومع هذا فإنى أعلم أننا نطلق على الشواهد الميمونة : الشواهد اليسرى أو شواهد اليد اليسرى ، حتى ولو جرت على

(١) فى النص اللاتينى يستخدم شيشرون divinalas مكان divinatis ليصور التبان بين humanitas وليقوى أثر التهكم فى نفس القارىء (لوبيج) .

(٢) مقتبسة من : Annales, II, 5. (لوبيج) وانظر الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثانى هنا .

(٣) قارن الألياذة ج ٩ ص ٢٣٦ ، وقد خدعت شيشرون ذاكرته مرة أخرى ، فان الإشارة هنا لابد أن تكون لفوليسس لا لأجاكس (لوبيج وديماريه) .

جانبتنا الأيمن (١). وما من شك في أن أسلافنا قد تأثروا في اختيارهم للجانب الأيسر، كما تأثرت الشعوب الأجنبية في اختيارها للجانب الأيمن، بتجاربههم ودلائلها على أي الجانبين كان أكثر يميناً في معظم الحالات. ولكن ما هذا الجدل. إن النظر في الخلافات القائمة بين الشعوب في إجاباتها، والطريقة التي تجري بها مشاهداتها، وضروب الطيور التي تسخرها، والشواهد التي يستخدمها كل منها، لا يجعلني في حاجة إلى أن أؤكد بأن التكهن بالغيب، ليس إلا مزيجاً من قليل من الأخطاء والخرافات، يقترن بكثير جداً من وجوه الخداع.

٤. — وقد عزوت الطيرة والفأل بالفعل إلى هذه الأساطير، فمن ذلك أنك قلت: «إن، أيميليا، قد أنبأت، باولوس، بأن «بيرزاس، قد أدركتها المنية، وأن أباهما قد اعتبر هذا زجراً» (٢). وذكرت أن «كيسكيليا، قالت إنها تخلت عن مقعدها لابنة أختها، ومضيت في الحديث عن الجو الملائم للتنبؤ» (٣)، وتكلمت عن المائة الأولى أو طيرة الانتخاب. في الحق أني أجد في هذا براعة وفصاحة تجاوزت الحد حتى انقلبت ضد صاحبها، إذ هل تستطيع وأنت منصرف إلى وحيك هذا أن تكون من الحرية وطمأنينة العقل، بحيث تسير بهدى منطقك، ولا تستمد الرشاد من الخرافات...؟ ثم إذا نطق امرؤ بكلمة يبدو لك أنها على اتصال طفيف بما تقوم بعمله أو بما يجري على لسانك، فهل تعتقد حقاً أن مثل هذه الحادثة تثير في نفسك خوفاً أو مرحاً؟

(١) كان عيافو الرومان إذا أرادوا استنباء الطيور ولوا وجوههم شطر الجنوب، أما الأغريق فقد كانوا يولون وجوههم شطر الشمال، وعلى هذا فقد كان يسار الرقيب الروماني هو يمين اليوناني، ولكن بعض شواهد اليد اليمنى كان ميمونا عند الرومان، ومن أمثلة هذا نبيق الغراب (لوبي) وانظر آخر الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثاني.

(٢) قارن الفقرة الخامسة والأربعين من الكتاب الأول (لوبي) ويلاحظ أن اسمها كان في تلك الفقرة «تيرتيا».

(٣) قارن في هذا وفي المثال التالي الفقرة الخامسة والأربعين من الكتاب الأول (لوبي).

عند ما كان «ماركوس كرا كوس» يودع جيشه في «برنديزيوم»^(١)، صاح في الميناء بائع تين مكرراً صياحه باسم نوع من التين يتذر بالشر رنين اسمه^(٢)... ١... لتعتبر هذه إن شئت نذيراً زاجراً يحذر كرا كوس قائلاً : « حذار من الذهاب ، وأنه لو أطاع هذا النذير الزاجر ما هلك ، ولكن إذا سلطنا بالالفاظ التي تجري على ألسنة الناس عفواً واتفاقاً باعتبارها طيرة وزجراً ، لكان الأدنى إلى الصواب أن نعطي بالنالما يصينا حين نكبو أو نقطع رباط حداثنا أو عند ما نعطس !... »

هـ — مهاجمة التكهن بالأنصبة

٤١ — بقي علينا أن نقاش الأنصبة ونجامة أهل الكلدان ، قبل أن نصل إلى نبوءات الجنة والأحلام ، وهل تظن أنا محتاجون إلى الكلام عن الأنصبة ؟ إنها قريبة الشبه بلعب الترد أو عظام مفصل الأصابع ، فإن الغلبة تكون للجاذفة والحظ ، أكثر مما تكون للروية والحكم السديد ، فنهاج التكهن عن طريق الأنصبة منهاج زائف ، قد ابتدعه أهله لغير ما غاية ، إلا مجرد التكبس والارتزاق ، أو ليكون أداة لتشجيع الخرافة وشيوع الأخطاء ، ولكن من الخير لنا أن نلتزم الطريقة التي اتبعناها في مناقشة العرافة ، فنبحث في الأصل الذي جرى الناس منذ القدم على أن يردوا إليه أمر هذه الأنصبة التي ذاعت ذيوهاً واسع المدى .

(١) عندما تم بالرحيل في تجريدته العسكرية المشثومة التي أرسلها لقتال البارثيين (لوبي)
(٢) مثل : "Cannian figs" ولكن من الممكن أن نسميها الأذن كأنها : *Cavene eas* : أي حذار أن تذهب — وقد كانت هذه الوحدة بين الكلمة وصلها موضوع مناقشة شائعة في علم الأصوات اللاتيني . قارن : Moser, Div. ad loc. (لوبي) وقد ترجها ديماريه في لسته الفرنسية *à vendre* أي للبيع ووجه الشبه فيا أشار في تعليقاته يكون مع *à attendre* أي ينبغي الانتظار ، وترجمتها طبعة جارييه كما هي وقد فطن بعض مفكري الاسلام إلى ما فطن اليه شيفرون (انظر في كتابنا التنبؤ بالغيب عند مفكري الاسلام ص ١١٤ — ١١٥ و ١٥٩ — ١٦٠ طبعة أولى) .

نشأة الروعتقاد في الأنصبة :

نرى في حوليات « برينسته » Praeneste أن « نوميريوس سوفستيروس » Numerius Soffustius — وقد كان رجلاً ممتازاً انحدر عن أصل شريف — قد نهته النذر في أحلام تكرر وقوعها ، واصطحبت آخر الأمر بالوعيد ابتغاء أن يشق صخرة من الصوان كانت ملقاة في مكان بعينه ، وقد أدركه الروح من نذر هذه الرؤى ووعيدها ، فاستجاب لها ومضى إلى تحقيق ما بها على مرأى من مواطنيه الذين كانوا يسخرون منه ، فلما حطم الصخرة ترامت له الأنصبة منقوشة على سندان بحروف قديمة ، ولا يزال المكان الذي وجدت فيه الصخرة باقياً يتولى الناس حراسته إلى يومنا الحاضر ، متأثرين بشعورهم الديني نحوه ، وهو لا يبعد كثيراً عن تمثال الطفل « جوبتر » الذي يتمثل جالساً مع « جونو » في حضانة إلهة الحظ^(١) مقرباً من ثديها ، ويولى الآلهات هذا المكان أبلغ احترام .

وثمة أثر متواتر يقول إن في نفس الوقت الذي وجدت فيه الأنصبة ، وفي المكان الذي يقوم الآن فيه تمثال إلهة الحظ ، قد فاض العسل من شجرة زيتون ، فأمر العرافون — الذين تنبؤوا بما ينتظر هذه الأنصبة من ذبوع الصيت الذي لن يجارى — بأن يصنع من الشجرة صندوق توضع فيه الأنصبة ، وفي الوقت الحاضر تسحب الأنصبة من وعائها إذا هيمنت إلهة

(١) La Fortune إلهة عند الرومان واليونان ، تتعدد صفاتها كإلهة يونانية ، وتمثل القدر بدقة في يدها ، وتقف على عجلة تمثل المصادفة ، وفي يمينها قرن الخيرات ، وعندئذ تكون رمزا لليسر والرخاء ، وأما عند الرومان فقد كانت تمثل صلحاء من الخلف ، وعماه وذات أجنحة ، وتضع إحدى رجلها على عجلة تتحرك ، وكانوا يحتفلون بتكريمها في اليوم الرابع والعشرين من يونيو ، فيتوج البحارة سفنهم بالأزهار ، وكان لها ستة وعشرون معبداً في روما — أما عند اليونان فكان لها ثمانية معابد — فيما يقول معجم باسيلييه وديزوري وهي عند شيشرون أم أو مرضعة جوبتر وجونو ، ويقول البعض إنها ابنة جوبتر الكبرى إلى آخر ما يرويه مترجم جارانبيه كذلك .

الحظ^(١) ، فنجبرني كيف يمكن أن تثق في هذه الأنصبة التي تقوم بمزجها وسحبها يد طفل عند انحناءة من تمثال إلهة الحظ ١ وكيف عثروا على هذه الصخرة . ؟ ومن الذي قام بقطع شجرة السنديان . ؟ ومن صاغ هذه الأنصبة ونقشها بالحروف ؟ يا للعجب ١ إن بعض الناس (الرواقين) يقولون : « إن الله على كل شيء قدير ، فإذا كان الأمر كذلك ، فاني أتمنى لو أن الله قد وهب الرواقين حكمة تبرى . تفكيرهم من الخرافة ، حتى لا يكونوا مثاراً للشفقة والرثاء معا ، وتنتزع منهم الميل إلى الاعتقاد في كل شيء يسمعون . ١٠٠ . على أن هذا النوع من التكهن قد تخلى عنه الناس منذ اليوم ، فان جمال المعبد وقدمه لا يزالان يحفظان الشهرة التي كانت لأنصبة « برينسته » وهذا هو المعروف عند طعام الناس ، إذ أن هذه الأنصبة لا يستنبطها حاكم ولا فرد ذو حيثة ، ولا تستخدم البتة في مكان ما ، وهذا يفسر لنا الكلمة التي يقول . « كليتما كوس » ، إن « كاريناوس » كان يقولها دائماً ، وهي أنه لم ير في أى مكان إلهة للحظ أو فر حظاً من إلهة الحظ في « برينسته »^(٢) والآن حسبنا هذا عن ذلك الضرب من التكهن بالغيب .

و — مهاجمة علم أحكام النجوم

موقف خصوم من الفلاسفة

٤٢ — ولننص إلى مناقشة الكلدانيين : إن « يودكسوس » تلميذ أفلاطون وخير أهل النجامة في عصره — فيما يرى خيرة العلماء^(٣) — قد خلف لنا الرأي التالي مكتوباً :

« لا ينبغي أن نولى أهل التنجيم من الكلدانيين أى نوع من الثقة ، عندما

(١) إذا كان تمثال الإلهة منحني الرأس أو مبدياً إشارة أخرى (لوب) .

(٢) فن ذلك أن شهرة الأنصبة في « برينسته » بقيت أطول مما بقى غيرها في أى مكان آخر (لوب) .

(٣) أحد كبار الرياضيين وعلماء الهيئة القدامى ، وقد عاش من ٤٠٨ تقريباً إلى ٣٥٥

ق . م (جارتنيه) .

يدعون بأنهم يتنبؤون بمستقبل الإنسان من موقع النجوم في يوم ميلاده ،
ونلاحظ أن « بانيا تيوس » كذلك — وقد كان الرواقى الوحيد الذى أبى
التسليم بنبوءات أهل النجامة^(١) يذكره أنكيا لوس ، — Anchialus و « كساندر ،
Cassander باعتبارهما أعظم علماء الهيئة فى عصره ، ويقرر أنهما لم يستخدميا
فهما أداة للتكهن بالغيب ، رغم أنهما كانا ممتازين فى سائر فروع علم الهيئة .
كما أن « سكيلا كس » من أهل « هاليكارناسوس » Hallicarnassus وهو
صديق « بانيا تيوس » الحميم وأحد علماء الهيئة الممتازين ، بالإضافة إلى أنه كان
يتولى رئاسة الحكومة فى مدينته ، قد رفض رفضا جازما طريقة الكلدانيين
فى التنبؤ بالمستقبل .

ولكن فلندع جانبا أقوال أولئك الذين نستشهد بهم ، ولنعتمد على منطقنا
فى البحث : إن أولئك الذين يتولون الدفاع عن نبوءات يوم الميلاد عند
الكلدانيين ، يقولون فى بيان رأيهم :

أصل التنجيم ومناقشته :

إن فى زئار النجوم^(٢) الذى يسميه الإغريق بمنطقة البروج ، تكمن قوة
معينة من طبيعتها أن كل جزء فى هذا الزئار يحدث فى السموات تغييرات
بطريقة تختلف باختلاف موقع النجوم فى إحدى المناطق أو على كسب منها
فى وقت معين ، وهذه القوة يتفاوت تأثيرها بهذه النجوم التى نسميها شهبأ أو
كواكب سياره ، فاذا دخلت هذه الكواكب منطقة زئار النجوم فى وقت
اتفق فيه مولد إنسان ما ، أو دخلت منطقة أخرى تتصل بها بعض الاتصال ،

(١) كلمة Astrologus تقابل دارس النجوم ، ومن الممكن أن يقال ويراد بها الباحث
فى علم الهيئة أو العالم بالتنجيم (أى بأحكام النجوم) (لويب) قارن مايقوله الأستاذ نلينو
فى كتابنا « التنبؤ بالغيب » فصل « علم أحكام النجوم » ص ١١٦ وما بعدها .
(٢) يراد به فى الفلك الخطوط المزدانة بالنجوم ، وهى تشبه مناطق تحيط بالمشتري
وتوازي خطه الاستوائى .

أو تتفق مع منطقة يوم الميلاد ، فإنها تكون ما نسميه مثلثا أو مربعا^(١) . وما دمنا نرى الاختلاف البين والتغير الواضح في فصول السنة وفي درجة الحرارة باقتراب النجوم أو بعدها ، وما دمنا نرى بعيوننا أثر الشمس في إحداث مثل هذه النتائج ، فإن الكلدانيين يعتقدون — بناء على هذا — أن ليس من المحتمل فحسب ، بل من المحقق أن حرارة الجو مادامت تنظمها هذه القوة السماوية ، فإن الأطفال عند ولادتهم لا بد أن تتأثر بها نفوسهم وأبدانهم ، وأن تتحدد بهذه القوة عقولهم وأخلاقهم وميولهم وحالتهم الجسدية ومستقبلهم في الحياة ونصيبهم في الدنيا .

٤٣ — إن هذا جنون خارج عن نطاق التصور . . . فليس يكفي أن تسمى الزأى « حماقة » متى وجدته مجردا عن كل منطق ، ولكن « ديوجانس » الرواقى يسلم ببعض آراء الكلدانيين فيقول إنهم أوتوا القدرة على التنبؤ إلى الحد الذى يمكنهم من التمكن بميول طفل ، ومعرفة خير الحرف التى تلائم استعداداته ، ثم ينكر بعد هذا إنكارا مطلقا سائر ادعائهم فى قوى التنبؤ ، فمن ذلك أنه يقول إن التوائم يتشابهون فى المظهر ، ولكنهم يختلفون عادة فى مجرى الحياة ، وفى اللحظة الذى يصادفونه . وقد كان « بروكلز » و« ديوريستانس » اللذان توليا حكم الاسبرطيين توأمين ، ولكن نصيبهما من العمر لم يكن واحدا ، لأن حياة الأول كانت أقصر عاما من حياة أخيه ، وكانت أعماله أعظم جلالا^(٢) . بل إنى أرى أن صديقنا الفاضل « ديوجانس » باتفاقه مع الكلدانيين ، قد تأمر مع خصومه^(٣) ، فوق أن رأيه لا يستقيم مع العقل ، لأن الكلدانيين يقررون أنهم يعتقدون بأن نصيب المرء فى الحياة يتأثر بحالة القمر وقت ميلاده ، ولهذا

(١) انظر فى : Moser, Div. ad. loc. هامشا على « المثلث » و « المربع » — قارن :

Se xt. Empir. Adv. mathen. V. 39. (لوبيس) وقد فحس ذلك مترجم طبعة جازينية .

(٢) يمكن لاشياع الفكرة أن يدفعوا رأى شيمرون فى هذا المقال زاعمين أن التوأمين يولدان متعاقبين لا فى لحظة واحدة .

(٣) Praevaricatis نستعمل فى وصف المحامى الذى يتأمر مع خصوم موكله (لوبيس) .

فهم يسجلون مايجرونه من مشاهدات على النجوم التى تبدو على اتصال بالقمر يوم الميلاد ، ومن ثم يعتمدون فى تكوين أحكامهم على حاسة البصر ، وهى أقل الحواس موضعا للثقة ، بينما ينبغى أن يستندوا إلى العقل والمنطق ، لأن علم الرياضيات الذى كان ينبغى أن يلم به الكلدانيون ، يرينا كيف يقترب القمر من الأرض ، وكيف يوشك أن يمسا فى واقع الأمر ، وكيف يبتعد عن سيار عطارد — وهو أقرب النجوم — ولم يكن بعيداً مع هذا من الزهرة ، وأية مسافة شاسعة تفصله عن الشمس التى يستمد منها الضوء — فيما هو مفروض — أما المسافات الثلاث الباقية فإن تقديرها فوق الحصر وهى : من الشمس إلى المريخ ، ومن المريخ إلى جوبتر ، ومن جوبتر إلى زحل ، ثم هناك المسافة التى تقوم بين زحل وأطراف السماء — وهى مسافة لا نهاية لها — فاذا نظرنا إلى هذه المسافات التى تكاد تخرج عن التحديد ، أى تأثير يمكن أن يتيها للكواكب السيارة على القمر أو بالأحرى على الأرض ؟

٤٤ — وكذلك عند ما يقول الكلدانيون — وهم مضطرون إلى هذا القول — إن جميع الذين ولدوا فى يوم واحد فى أى مكان فوق ظهر الأرض المعمورة تحت نجم واحد ، لا بد أن يتشابهوا وأن تتفق حظوظهم فى الحياة ، فاليس من البين أن هؤلاء الذين يتعرضون لتأويل السماء ، هم ممن يجهلون طبيعة السماء جهلاً فاضحاً ؟ لأن الأرض مقسمة الآن ، وكما كانت فى الماضى مناصفة ، وآراؤنا محدودة بهذه الدوائر التى يسميها الاغريق . والتى تسميها بكل دقة آفاقاً ، وهذه الآفاق تتغير بغير حد تبعاً لموقع المشاهد ، إلا أن شروق النجم وغروبه لا يقع بالضرورة فى وقت واحد لجميع الناس ، ولكن إذا اختلفت قوة النجم التى تؤثر فى السموات من حين إلى حين ، فكيف يكون من الممكن لهذه القوة أن تؤثر بطريقة واحدة فى جميع الأفراد الذين ولدوا فى وقت واحد ، مادامت السموات التى ولدوا تحتها تختلف اختلافاً بيناً ؟ وتظهر أن النجمة الشعرية فى الواقع فى هذه المناطق التى نعيش.

في رحابها بعد بدء الصيف (الذى يقع في ٢٢ يونيه) بأيام عديدة ، ولكنها فيما نعلم تغرب عن سكان الكهوف^(١) قبل بدء الصيف . ولكن إذا كان لابد من التسليم الآن بأن تأثيرا نجميا ما ، يقع على الأفراد الذين ولدوا على ظهر الأرض ، فإن من الواجب أن نقول بأن جميع الذين ولدوا في وقت واحد ، قد تباين طبائعهم وتختلف باختلاف مشاهدات المنجمين للسموات في يوم الميلاد ، ومن المحقق أن هذه النتيجة لا ترضى أهل النجامة ، لأنهم يصرون على القول بأن كافة من ولدوا في وقت واحد ، يصادفون — بصرف النظر عن مكان ولادتهم — حظا واحدا .

هـ — ولكن أية حماقة يديها أولئك المنجمون حين يبحثون نتيجة ما يحدث في السموات من حركات واسعة النطاق ، وتخيرات عظيمة الأثر ، ويدعون بأن الرياح والمناخ والأمطار في شتى البقاع لا أثر لها عند الميلاد؟ إن هذه الأحوال في البلاد المتجاورة تختلف من هذه الماحية اختلافا بينا، حتى أننا كثيراً ما تقع لنا حالة من المناخ في «توسكولوم» بينما يكون المناخ في روما على حال أخرى، وهذا أمر معروف، ولا سيما عند البحارة الذين يرون ما يطرأ على المناخ من تغير شديد عند ما يدورون بسفنهم حول الروس الباردة من اليابسة في البحر، وإذن فهل يجدر برجل عاقل أن يستند إلى صفاء السموات حيناً واضطرابها حيناً آخر، ويقول إن هذا التغير لا أثر له في مولد الناس — ومن المحقق أنه معدوم التأثير — ثم يعود فيزعم أن هناك تأثيراً مرجعه إلى قوة خفية لا يدركها المرء بحسه، بل لا يكاد يتصور أمرها، وهي ترجع إلى حالة السماء، تلك الحالة التي تردّ بدورها إلى عمل القمر وأثر النجوم. ثم أليس من الخطأ الفادح في الرأي أن يعجز الكلدانيون عن معرفة الأثر الذي تخلفه في الأبناء نطفة الآباء — وهي عنصر جوهري في تكوين

(١) Troglodytes هم سكان الكهوف ، ويقول ديماريه لمتهم شعب إفريقي يعيش على كثر من اثيوبيا ويسكن أفرادها المغاور .

الذرية ؟ فان من المحقق أن ليس بين الناس من يقوته أن يعرف أن الأطفال يأخذون عن آبائهم ملامحهم وعاداتهم ، ويستمدون منهم بوجه عام سلوكهم وحركاتهم ، وما كان هذا يحدث لو أن خصائص الأطفال لا تحددها قوة الوراثة الطبيعية ، بل تهيمن على تحديدها وجوه القمر وحالة السماء ، وكذلك يقال في أن الأفراد الذين ولدوا في لحظة واحدة لا يتشابهون في الأخلاق ولا في المستقبل ولا في الحظ الذي ينتظرهم ، وهذه الحقيقة تجعل من البين الواضح أن وقت الولادة لا علاقة له بتحديد مجرى الحياة ، إلا إذا كان من الممكن أن نضطر إلى الاعتقاد بأن ليس ثمة أحد من الناس قد تكون في الرحم جنيناً ثم ولد في نفس الوقت الذي تكون وولد فيه « سيبو » الإفريقي ، إذ هل ثمة إنسان يشبهه ؟ .

٤٦ — ثم من هذا الذي يحجل أو يساوره الشك في أن كثيراً من الناس الذين ولدوا مصابين بعاهات طبيعية ، قد برثوا منها تمام البرء ، بفعل الطبيعة نفسها حين غيرت مجراها بمبضع الجراح أو بدواء الطبيب ؟ . فمن ذلك أن الذين انعقدت ألسنتهم إلى حد أنهم كانوا لا يقوون على النطق ، قد عادت إليهم طلاقة اللسان بعد أن أعمل فيهم الجراح مبضعه ، وكثيرون غيرهم قد أصلحوا عاهة طبيعية بالمران الحاذق ، وإن في « ديموستين » لشاهد عدل على ما أقول ، فقد كان فيما يصفه « فاليريوس » لا يقوى على نطق الحرف اليوناني Bho ولكنه تعلم بالجهد المتواصل كيف يلفظه واضحاً مفصلاً ، فإذا كانت هذه العاهات قد نشأت وتأصلت في صاحبها بوساطة نجم في السماء ، فليس من شيء يقوى على تغييرها . وأليست تنتج البلاد التي لا مشابهة بينها ناساً مختلفين ؟ . إنه لمن اليسير أن نحدد في سرعة تلك الفروق العقلية والجسمانية التي تميز الهنود من الفرس وأهل أتيويا من سكان سوريا ، إنها فروق بالغة الغرابة والوضوح إلى حد أن العقل لا يقبل التسليم بها ، ولكن من البين أن مولد المرء يتأثر بالبيئة المحلية أكثر مما يتأثر بحالة القمر .

ومن المحقق أن ليس صحيحا ما اقتبسته عن البابليين من أنهم لاحظوا منذ سبعين وأربعمائة ألف عام^(١)، ميلاد كل طفل وظروفه التنجيمية، ليتنبؤوا بأحداث حياته، وأنهم حققوا هذا بما هدتهم إليه نتائج تجاربهم، إذ لو شاعت هندم هذه العادة لما هجروها، وهذا بالإضافة إلى أنا لا نكاد نجد كاتباً يزعم أن هذه العادة قائمة عندهم، أو يعرف أنها كانت قائمة بينهم.

٤٧ — إنك تلاحظ أني لم أكرر أدلة «كارنيادس»، ولكني أعدت الاستشهاد بالحجج التي أدلى بها «بانياتيوس»، زعيم المدرسة الرواقية، أما الآن فاني أشرع في توجيه الأسئلة التالية التي لم يسبقني إليها أحد: هل ولد جميع الرومان الذين سقطوا في معركة «كاني»، في ظروف تنجيمية واحدة؟ ومع هذا فقد لقي الجميع مصيراً واحداً وهل تظن أن الذين يمتازون بالذكاء والعبقرية، قد ولدوا جميعاً في ظروف تنجيمية واحدة؟ وهل ثمة يوم لم يشهد ميلاد ناس لا يحصيهم العد؟ ومع ذلك فإننا لا نهادف «هومير»، آخر. ثم إذا كان المهم عندنا أن نعرف تحت أي منظر من مناظر السماء أو مجموعة من نجومها قد ولد كل كائن حي، فإن الظروف نفسها لا بد أن تؤثر في غير الحي من الكائنات كذلك.. فهل صادفك رأى أثار من سخريتك بقدر ما يشير هذا الرأى؟ وإذا صح أن صديقنا الطيب «لوكيوس تارونيوس» من أهل «فيروم» ذلك الذي استوعب علوم الكلدانيين، قد اقترض في حسابه أن مولد روما قد وافق عيد «بالس»^(٢) — وهو اليوم الذي شاد فيه «روميلاوس» مدينته فيما تقول الأسطورة — وأسرف في اقتراضه استناداً إلى هذا حتى زعم أن روما قد نشأت عندما كان القمر في برج الميزان، ولم يتردد — اعتماداً على هذا — في التنبؤ بالخط الذي ينتظر أن يصادف هذه المدينة، فأى هذيان عجيب هذا الذي يقوله..! وهل خضع اليوم الذي نشأت فيه روما لتأثير

(١) قارن الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الأول (لوبي).

(٢) كان يحتفل به في الحادى والعشرين من أبريل، وقد كان «بالس» Pales الإله

الذى يرمي الرعاة (لوبي).

القمر والنجوم ؟ فلنفرض — إن شئت — أن المهم في حالة الطفل أن نعرف تحت أى نظام للأجسام السماوية قد تنفس أول نسمة ، فهل ينشأ عن هذا أن النجوم يمكن أن تكون ذات تأثير على الأجر والملاط الذى شيدت المدينة به ؟ ولسكن ما الذى يدعونا إلى الإسهاب فى الطعن فى نظرية تتكفل تجاربنا كل يوم بدحضها ؟ إني لأذكر الكثير من النبوءات التى قالها الكلدانيون لبومبي وكراسوس ، وحتى لقيصر نفسه — الذى مات أخيراً — وقد تنبؤوا فيها بأن هؤلاء لن يستوفوا أنفاسهم إلا متى كبرت بهم السن ، فيموتون فى رحاب بيوتهم ، بعد أن يصيبوا مجداً مخلداً ، وإنه لما يثير الدهشة فى نفسى ، أن أرى فرداً ما — ولا سيما فى هذا العصر — يثق فى أولئك الذين تتكفل نتائج تجاربنا اليومية بدحض تكهناتهم .

مرها صممة التكهنات الطبيعية :

٤٨ — بقى علينا بعد هذا أن نبحث فى ضربين من ضروب التكهن بالغيب ، وقد أسلفنا القول بأنهما يصدران عن الطبيعة ، ولا تؤدى إليهما طرق صناعية ، وهذان الصنفان هما النبوءات إبان المس ، والرؤيا — أثناء النوم — فلنفرض لبحثهما يا عزيزى كوتوس — إن كان يروقك الحديث فيهما :
أؤكد لك أنى مغتبط لأنى أؤيد كل التأييد تلك الآراء التى أوضحتها كل هذا الإيضاح ، وإذا شئت الصراحة ، فإن كل ما كان لأرائك من أثر هو أنها قوت من رأى الذى كنت أعتقه من قبل ، لأن حاجتى لك قد أقنعتنى بأن رأى الرواقين فى التنبؤ بالغيب ، تحتويه الخرافة ويستوعبه الوهم ، وقد أثرت فى نفسى أبلغ التأثير استدلالات المشائين ، و « ديكار كوس » فى العصور القديمة ثم « كراتيبوس » الذى لا يزال على قيد الحياة^(١) ، فهم يقولون

(١) كان « كراتيبوس » أثناء هذه المخاطرة (عام ٤٠ ق . م) يحاضر فى أثينا ، وكان من بين تلامذته ماركوس — الابن الوحيد لماركوس شيشرون (لوبيس) .

إن في باطن النفس الإنسانية تكمن قوة من نوع ما — وقد أعزوها إلى الوحي — بها تتمكن النفس من أن تكشف المستقبل المحجب ، متى ألهمها مس إلهي ، أو تجردت بالنوم من علائق البدن ، فأضحت حرة تتحرك متى شامت ، إني لشديد الرغبة في أن أعرف رأيك في هذين الضربين من التكهن الطبيعي بالغيب ، كما أني تواق لأن أعرف الأدلة التي تستغلها في دحضها معا .

٤٩ — وبعد هذا الذي أسلفه « كوتتوس » استأنف الحديث قائلاً :

إني أعلم علم اليقين يا عزيزي « كوتتوس » أنك تتردد على الدوام في التسليم بكافة ضروب التكهن — الصنعى — ولكنك تميل إلى تأييد الضربين اللذين أسلفت الآن ذكرهما : وهما التكهن في حال الجنة (المس) والتنبؤ أثناء النوم — والمظنون أن كليهما يصدر عن نفس تجردت من قيودها — وإذن فدعني أبين لك عن رأيي في هذين الضربين من التكهن ، ولكن فلنبداً بمناقشة هذا القياس^(١) الذي ذكره الرواقيون ، ونادى به صديقنا « كراتيبوس » ، لنرى مبلغ ما فيه من حق ، إنك أسلفت قياس « كراتيبوس » Cratippus و « ديوجانس » و « أنتيباتر »^(٢) على هذا النحو :

مذهب الرواقية في صلة التنبؤ بالآلهة :

« إذا استقام وجود الآلهة من غير أن يكشفوا للانسان عن المستقبل المحجب ، كان هذا دليلاً ينهض على أنهم لا يحبون بني البشر ، أو أنهم هم أنفسهم لا يعرفون ماذا يخفي المستقبل المغيب عنا ، أو أنهم يظنون أن ليس للانسان مصلحة في معرفة ما ينطوى عليه عالم الغيب ، أو أنهم يظنون أن هذه النذر التي يرسلونها إلى الانسان عن المستقبل ، أمر لا يتفق مع كرامة الآلهة ، أو أنهم — أخيراً — وإن كانوا آلهة فانهم لا يستطيعون أن يقدموا شواهد

(١) قارن الفقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) من قادة المدرسة الرواقية ، والمدافعين عن التكهن بالغيب ، قارن الفقرة الثالثة وأما الاستدلالات التالية فقد وردت في الفقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الأول .

معقولة على الحوادث المقبلة ، ولكن ليس صحيحا أن الآلهة لا تحبنا ، لأنهم
أصدقاء الجنس الإنساني ، والمنعمون عليه ، وليس صحيحا أنهم يجهلون
ما أصدروا من أوامر وما رسموا من خطط — بشأن المستقبل — وليس
صحيحا أن ليس لنا مصلحة في معرفة ما ينتظر أن يقع لنا ، ما دام العلم يمكننا
من اتخاذ الحيلة له ، وليس صحيحا أن الآلهة يظنون أن الكشف عن النذر
السابقة لما يتجاوز عليه المستقبل ، أمر لا يتفق مع كرامتهم ، إذ ليس ثمة
سجية أفضل من أداء الخير للإنسانية ، وليس صحيحا أنهم لم يؤثروا القدرة
على معرفة المستقبل المخيب عنا ، وإذن فليس صحيحا أن هناك آلهة ، ورغم
وجودهم فانهم لا يكشفون للإنسان عن شواهد تنبئ عن المستقبل ، ولكن
هناك آلهة ، فهم إذن يقدمون مثل هذه الشواهد ، وما داموا يقدمونها فليس
صحيحا أن يضمنوا علينا بطرق فهمها ، وإلا كانت شواهدهم عديمة المنفعة ،
وإذا هم أرشدونا إلى طريق فهمها ، فإن إنكار وجود التمكن لا يستقيم ،
وإذن فالتسكين قائم موجود .

مناقشة المذهب الروائي :

أي ذكاء وقادتها لهؤلاء الناس . . . إنهم بهذه الكلمات المحدودة يظنون
أنهم قد فرغوا من البرهنة على كل شيء . بيد أنهم قد سلموا — رغبة في إقامة
قياسهم — بقضايا لا يقبل العقل التسليم بها إطلاقا ، ومع ذلك فإن الاستدلال
المنطقي لكي يكون صحيحا ، يجب أن يبدأ بمقدمات لا ينالها الشك ، ليصل
إلى النتيجة التي تكون ماثار الجدل .

٥٠ — وأرجو أن تلاحظ الطريقة البارة التي التزمها « أبيقور » ، —
الذي اعتدتم أيها الرواقيون أن تصفوه بالبله ، وتنسبوا إليه كثرة الأخطاء —
في البرهنة على ما يطلق عليه اسم : « الكون لانهائي » فانه يقول :

« إن كل شيء محدود لا بد أن يكون ذا نهاية ، فمندا الذي يستطيع أن

ينكر هذا ؟

ثم يقول : « وكل ماله نهاية يمكن أن يرى من نقطة ما ، خارج ذاته ، — وهذا أيضا ما ينبغي التسليم به — ولكن الكون لا يرى من نقطة خارج ذاته ، — وليس في وسعنا أن نجادل في إنكار هذه القضية كذلك .

« وعلى هذا فإدام الكون لا ترى له نهاية ، فينبغي أن يكون غير محدود — أى لانهائيا ، فأنت ترى من هذا كيف يتقدم « أيقور » من مقدمات مسلم بها ، حتى يصل إلى القضية المطلوبة ، وهذا مالا نراه في استدلالكم أتم أيها المناطق الرواقيون ، لأنكم تعتمدون على مقدمات لا يسلم بصحتها كل إنسان ، وليس هذا فحسب ، بل إنكم تبدمون بمقدمات إن صادفت عند العقل قبولا ، فإنها لا تنتهى — على أقل تقدير — إلى إقرار النتيجة التى تريدون البرهنة عليها ، لأنكم تبدمون بهذا الافتراض :

« إذا استقام وجود الآلهة ، للزم عن هذا التسليم بأنهم يلتزمون الرفق فى تصرفاتهم إزاء الانسان ، — فهذا الذى يسلم لكم بهذا ؟ أيسلم بهذا رأى « أيقور » ؟ مع أنه يقول إن الآلهة لاتعبد بنفسها ولا بغيرها من الناس مثقال ذرة . فهل يسلم به « أتيسوس » ؟ الذى يقول فى تأييدواستحسان عام : [كنت أعتقد على الدوام فى وجود آلهة فى العلا ، ولن أتردد فى إعلان ذلك ، ولكنى أرى أنهم لا يعبدون بما يصيب البشر من أقدار] .

وقد أراد أن يمكن لرايه ، فأضاف أحيانا أبان فيها عن السبب الذى دفعه إلى اعتناق هذا رأى ، ولكننا فى غير حاجة إلى تكرار ما قاله ، فقد أسلمت ما فيه الكفاية ، لأبين لك أن أصدقاءك الرواقيين يعتقدون على سبيل اليقين آراء تكون موضعا للشك ومجالا للنقاش .

٥١ — ويقول الرواقيون فى قياسهم بعد هذا : « إن الآلهة تحيط علما بكل شئ » ، لأنهم هم الذين نظموا كافة الأشياء ، ولكن أية حملة شعواء قد شنوا على هذا رأى العلماء الذين ينكرون القول بأن مثل هذه الأشياء قد نظمها الآلهة المخلدون ؟

ولكن من صالحنا أن نعرف الشيء الذي يوشك أن يقع ، بيد أن
« دكيار كوس » ، قد وضع مجلدا ضخما يقيم فيه الدليل على أن جهلنا بالمستقبل
المغيّب عنا خير من معرفتنا بآفاقه .

ويقول الرواقيون كذلك : « إن الكشف عن مجاهل المستقبل لا يتناقض
مع كرامة الآلهة » ، بل إنه ليلائم الآلهة — فيما أظن — أن يظهروا في كل
بيت ليعرفوا ماذا يحتاج صاحبه !

« ليس صحيحا أن الآلهة عاجزون عن معرفة المستقبل » ، ولكن
قدرتهم على المعرفة ينكرها أولئك الذين يصرحون بأن ما ينكشف عن المستقبل
ليس أمرا مؤكدا .

والآن ، ألت ترى بأن الرواقيين يسلمون بمقدمات ظنية تحوطها الشكوك،
ويعتقدونها مفترضين أنها قضايا يقينية مسلم بها عند جميع الناس ؟

وبعد هذا يلغون هذا السهم في جدلهم : « وإذن فليس صحيحا أن هناك
آلهة ، وأنهم مع ذلك لا يكشفون للناس عن شواهد تنبئ عن المستقبل » ،
ومن المحقق أن الرواقيين يظنون بهذا أنهم قد فرغوا من بحث هذه المسألة .

« ولكن هناك آلهة » — وحتى هذا لا يسلم به جميع الناس .

« وإذن فهم يكشفون للناس عن شواهد تنبئ عن المستقبل » — وليس
من المحتوم أن يكون هذا صحيحا ، لأن من المحتمل أن يضلوا بالكشف عن
شواهد المستقبل ، ومع ذلك يكونون آلهة .

« وليس صحيحا أنهم إذا كشفوا هذه الشواهد ضلوا على الناس بطرق
تأويلها » — ولكن من المحتمل أن تتوافر لديهم طريقة التأويل ، ومع ذلك
لا يطلعون الناس عليها ، إذ لماذا يمكنون من معرفتها أهل أتوريا ولا يمكنون
الرومان من ذلك ؟

ثم يقول الرواقيون : « إذا كان الآلهة يرشدون الناس إلى فهم هذه
الشواهد ، كان هذا هو التنبؤ بالغيب » ، فلنسلم بهذا — رغم ما فيه من

تناقض — ولكن ما الفائدة إذا كنا لا نفهم هذه الشواهد ؟
ثم ينتهى الرواقيون إلى هذه النتيجة : « إذن فالتكهن بالغيب قائم موجود » .
— هب أن هذه هي النتيجة التى انتهوا إليها ، ولكنها مازالت تفتقر إلى برهان ،
إذ أن الحقيقة — فيما علمنا الرواقيون أنفسهم — لا يمكن التدايل عليها من
مقدمات فاسدة باطلة ، ومن ثم فقد تداعت حججهم بحذاويرها .

٥٢ — فلنتناول الآن الأدلة التى استند إليها صديقنا الحميم « كراتيبوس »^(١) ،
إنه يقول : « إن من المستحيل أن يؤدي المرء وظيفة البصر بغير العيون ،
ورغم أن العيون قد تعجز فى بعض الأحيان عن أداء وظيفتها المعينة —
فى الإبصار — إلا أن المرء الذى يستخدم عينه ولو مرة واحدة ، يرى الأشياء
على حقيقتها ، يعرف على وجه التحقيق ما هى الرؤية الصحيحة ، وكذلك
الحال فى التكهن ، فإن من المستحيل أن يقوم التنبؤ بوظيفته بغير ملكة التكهن
بالغيب . ورغم أن المرء الذى أوتى هذه الملكة قد يخطئ أحيانا ، فيصدر
نبوءات باطلة غير صحيحة ، إلا أن تنبؤ الكاهن تنبؤا صادقا ولو فى حادثة
واحدة ، كفىل بأن يقر وجود التكهن بالغيب ، ويستبعد افتراض المصادفات
فى تأويله ، ولكن التكهن قد صدق فى الكثير من الحالات ، وهذا يوجب
التسليم بصحته » .

إنه قد أحسن التعبير عن حجته فى لباقة وإيجاز ، ولكنه بعد أن
أعلن مرتين فروضا يعوزها البرهان ، ورغم أنه وجدنا كراما فى التسليم
بآرائه ، إلا أن من المحتمل ألا يصادف ادعاؤه الأخير قبولا منا ، وصفوة
ما نقول :

« إذا كانت العيون تخطئ أحيانا ، فإنها تحسن رؤية الأشياء فى بعض
الأحيان ، وهذا يبرر القول بأن قوة الإبصار قائمة بها ، وكذلك الحال فى
التكهن ، إذا استطاع امرؤ أن يتنبأ فى بعض الحالات فإننا حتى حين نراه

(١) قارن الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

يخطيء في تكهناته ، يجب أن نسلم بأنه أوتي القدرة على التكهن بالغيب .
٥٣ — أرجو أن تحدد يا عزيزي « كراتيوس » وجه التشابه في هذه القضايا التي تقارن بينها ، إنى أعترف بأنه في خفاء عني ، لأن العيون حين ترى الأشياء رؤية صحيحة صادقة ، تستخدم في ذلك حسا منحته الطبيعة ، أما النفس فإنها إن استطاعت أن ترى المستقبل في حال الوجد (اللجنة أو المس) أو خلال الرؤيا ، فإنها تستند في ذلك إلى الحظ أو المصادفة ، ويجب أن تسلم بهذا ، إلا إذا كان من الممكن أن تظن أن هؤلاء الذين يعتبرون الرؤيا مجرد أحلام تمر بالخيال ، وليست شيئا أكثر من ذلك ، يرون أن الرؤيا متى صدقت كان مرد صدقها في كل حالاته إلى شيء غير الحظ ، وقد نسلم بمقدمتك الكبيرين ، إلا أننا لا نسلم بمقدمتك الصغرى .

إن « كراتيوس » يضع مقدمته الصغرى على هذا النحو : « ولكن هناك أمثلة لا يحصى العدد ، لنبوءات تحققت دون أن يكون للحظ دخل فيها . وأنا أقول على عكس هذا أن ليس ثمة من هذه الأمثلة ولا حادثة واحدة ، ولكن أنظر كيف تحتد المناقشة ! فما دمت قد أبيت التسليم بالمقدمة الصغرى فإن النتيجة تصبح باطلة .

ولكنه يرد على هذا قائلا : « إن العقل لا يسيغ رفضك التسليم بها ، لأنها بينة الواضح ، — ولماذا عزوت إليها هذا الواضح ؟

« لأن الكثير من النبوءات يثبت صدقه ، — ولكن ما رأيك في أن ما يثبت بطلانه من هذه النبوءات أكثر من ذلك ؟ أليس يدل هذا الشك نفسه — الذي يعتبر من خصائص الحظ — على أن صدق هذه النبوءات ، مرجعه إلى الحظ لا إلى قانون من قوانين الطبيعة ؟ وألست ترى يا عزيزي « كراتيوس » — لأنى أوجه الخطاب إليك — أن دليلك هذا إن صح ، فإنه ينطوي بالمثل على تأييد لضروب التكهن التي يمارسها العرافون والعيافون والكلدانيون ومؤولو البرق ونذر الزجر والأنصبة ؟ لأنك ستجد في كل من هذه الأنواع مثالا يشهد بصدق نبوءة واحدة على أقل تقدير . وعلى هذا فاما

أن تسلم بأنها جميعا وسائل للتكهن بالغيب — وهذا ما عنيت بإنكاره
ولما أن ينتج عن رفضك التسليم بهذا — فيما أستطيع أن أفهم — ألا يدخل
نطاق التنبؤ بالغيب هذان الضربان اللذان أبقيتهما في مجاله . وعلى هذا
الاستدلال المنطقي الذي استخدمته لتقرير هذين الضربين اللذين سلمت
يمكن استخدامه في إقرار الأنواع الأخرى التي أبيت التسليم بها —
التكهن الصنعى .

(١) مهاجمة التنبؤ في حال الجذب

مناقشة نبوءات سيبايل Sibyl المبحورة :

٤ هـ — ولكن أى وزن يمكن أن نقيمه لهذا المس ، الذى تسميه إله
والذى يمكن المعتوه الذى اختل عقله من أن يدرك ما لا يقوى على إدراكه
الرجل الحكيم ، والذى يخضع على من فقد العقل البشرى عقلا إلهيا (١)
معاشر الرومان نوقر أشعار الكاهنة « سيبايل » التى يقال إنها فاهت بها
كان يعترها المس ، وقد تبينت منذ عهد قريب شائعة آمن الناس به
يومذاك ، ثم اتضح بطلانها بعد ذلك ، وتقول هذه الشائعة إن
مفسرى (٢) هذه الأشعار كان على وشك أن يعلن فى مجلس الشيوخ أن «
الجمهورية تتطلب أن يكون الحاكم الذى يتولى حكمنا بالفعل ملكا با

(١) رأى شيمرون على خلاف بين مع النظرية التى صاغها مؤلفو المسيحية وهى
الجاهل ذى القلب البرى ، الصافى على العالم ، وعلمو الطفل على الرجل الناضج ، وتفوق
العقل على هذا الذى يعتقد أنه أوتى الحكمة (جازنييه) وهذه أيضا نظرية بعض
الاسلام ومفكره . أنظر كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام » ص ٤ هـ وما
(٢) « لوكيوس كوتا » Lucius Cotta وهو أحد الذين كانوا منوطين بهذه الأ.
وقد روى القصة « سويتونيوس » Suetonius فى « يوليوس قيصر » فى الفصل
والسبعين ، وكان يشاع أن أشعار الكاهنة « سيبايل » Sibyl تقول بأن « البار
Parthians لا يمكن قهرهم إلا إذا تولى قتالهم ملك » وعلى هذا يجب أن يعين قيصر ملك
بلوتارك : قيصر فى الفصلين الستين والرابع والستين (لوب ودياريه) .

كذلك ، فاذا كان هذا ما تضمنته كتب الكاهنة ^(١) ، فإلى أى رجل وإلى أى عصر كانت تشير ؟ إذ كانت فطنة من واضعها أن يحتاط عند القول بأن الأحداث أياً كان نوعها ، قد تنبأ بها الكهان قبل وقوعها ، إذ أنه قد أهمل كل إشارة تعين أشخاصاً أو تحدد عصراً ، وقد أشاع الغموض كذلك فى كلامه حتى يمكن التسليم بهذه الأشعار فى مواقف مختلفة وعصور متباينة ، وذلك فوق أن هذه القصيدة ليست أثراً من آثار اللجنة — المس — وهذا واضح من طريقة تأليفها ، ولأنها تبين عن عناية فنية أكثر مما تكشف عن تهيج عاطفى ، ويوضحه أكثر من هذا أنها نظمت على نحو القصائد التى تسمى acrostic وهى التى إذا أخذت الحروف الأولى فى أبياتها بانتظام ، كونت كلمة تحمل معنى ، كما نرى مثلاً فى أشعاره أنيوس ، ، فإن الحروف الأولى من أبياتها تكون الكلمات اللاتينية التى تقول : « وضعها كوتوس أنيوس » ، ومن المحقق أن هذا عمل فكر مركز وليس عمل مخ محتاج أصابته جنة ، ثم إننا نلاحظ أن كتب الكاهنة « سيبايل » قد نظمت أشعارها بحيث إن كل نبوءة تتضمنها ، تجرى على النحو السالف ، فتحمل الحروف الأولى فى أبياتها موضوع هذه النبوءة الخاصة ، مثل هذا العمل يصدر عن كاتب مدقق لم يصبه مس ولا خيل ، وإذن فلنحرم قراءة « سيبايل » إلا بإذن من مجلس الشيوخ ، كما تقضى بذلك تعاليم أجدادنا ، وحتى تكون أبلغ أثراً فى نحو الخرافات منها فى تشجيع انتشارها ، ولنضرب مع الكهان فى ألا تتضمن هذه الكتب فكرة « ملك » ، لأن مثل هذا

(١) قال « أولوجلا » فى حديثه عن هذه الكتب إن عجوزاً اقترحت ذات يوم على « تاركوين الفاخر » أن يبتاع تسعة كتب قدمتها له ، ولما قدم لهذه الكتب ثمناً بخساً قذفت المرأة أمامه بثلاث منها فى النار ، فطلب إليها « تاركوين » أن يعرف ثمن الكتب الستة الباقية ، فطلبت نفس الثمن ، فعاد وعرض عليها ثمناً بخساً ، وعادت هى كذلك إلى قذف ثلاثة كتب أخرى فى النار ، وعندئذ استفسر منها عن ثمن الكتب الثلاثة الباقية ، فأجابت بأن ثمنها هو ثمن التسعة جميعاً ، فأدى لإصرار هذه المرأة إلى أن يظن تاركوين أن لهذه الكتب قيمة كبيرة فدفع الثمن الذى طلبته . وهذه الكتب الثلاثة هى التى تسمى بكتب « سيبايل » (ديماريه) .

الملك لن تحتل وجوده الآلهة ولا الناس في روما .

هـ — ولكن كثيراً من الأفراد كثيراً ما ينطقون إذا اعتراهم المس بكثير من النبوءات الصادقة، كما وقع هذا لكساندرا (١)

فهل تريد أن تكرهني على الاعتقاد بصحة الخرافات ؟ فلتكن هذه الخرافات جذابة كما يروقك ، ولتكن قد بلغت الكمال الممكن في اللغة والفكر والوزن والإيقاع، ولكن لا ينبغي مع ذلك أن نضع ثقتنا في هذه الأحداث الخرافية، أو أن نقببها كشاهد يؤيد وجهة نظرنا ، وعلى هذا الأساس لا ينبغي فيما أرى أن نخلع ثقتنا على النبوءات التي قال بها «بوبيكوس» (٢) أياما كان — ولا نسلم بنبوءات منشدى المارسي (٣)، أو نبوءات وحي أبولو المبهم الغامض (٤)، فإن بعضها كان بين الخطأ، وبعضها الآخر مجرد هذر لا معنى له، وليس بينها نبوءة كانت موضع اعتقاد هندرجل عادي الفكر قصير الباع في مجال الحكمة .

مناقشة شاهر روائي :

ولكن يا للعجب ! ما قصة هذا الجذاف الذي كان يعمل في أسطول «كوبونيوس» (٥) الذي تقول عنه : «ألم يتنبأ بالأحداث التي وقعت بعد ذلك؟، حقيقة قد تنبأ بذلك ، وبنفس الأحداث التي كان كل منا يخشى يومئذ وقوعها، لأن الأنباء قد ترامت إلينا بأن جيوش قيصر وبومبي قد تلاقت في «تساليا»

(١) قارن الفقرة الثلاثين من الكتاب الأول . وقارن الفقرة التاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) وفيها إشارة إلى تنبؤ كساندرا بمحادثة باريس وعودة هيلين .

(٢) قارن الفقرة التاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٤) قارن الفقرة التاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٥) قارن الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

وقد بدا لنا أن جيوش قيصر كانت أكبر جراءة وأكثر حماقة لأنها كانت تقاتل وطنها، وأنها كانت أعظم قوة لأنها تدربت تدريباً عسكرياً زمنياً طويلاً. وفوق هذا لم يكن يئتنا فرد لا تهوله مغبة المعركة، ولكن خوفنا لم يظهر صريحاً سافراً، ولم يكن بحيث يحط من قدر قوم أوتوا رصانة الأخلاق، أما عن ذلك البحار اليوناني فهل ترى غرابة في أن يفقد عقله وتخونه شجاعته ويفلت منه قياد نفسه، وهو في سورة خوفه، كما يقع لسواد الناس في مثل هذه الحالات؟ وقد أعلن وهو في ثورة عقله وتيه فكره، وقوع هذه الأحداث التي كان هو نفسه في خوف من وقوعها. فأرجو باسم السماء أن تنبئني عن ترجح أنه أوتي القدرة على تأويل أوامر الآلهة المخلدن، أهذا البحار المعتوه يحتل العقل، أم أحد أفراد فرقنا — التي كانت في البر يومذاك — من كانوا وقارو^(١) وكونيوس أو أنا؟

غوص النبوءات وكثرة التعملات في تفسيرها :

٥٦ — فلنعد الآن إلى حديثنا، لقد وضع « كريسيوس » مجلداً كاملاً بنبوءاتك^(٢)، وقد كان بعضها — فيما أظن — باطلاً، وقد صدق بعضها الآخر على سبيل المصادفة. كما يقع في الأغلب والأعم في الحديث العادي المألوف، وكان بعضها من التعقيد والغموض بحيث يحتاج تفسيره إلى مفسر، ويرد الوحي فيها إلى وحي، وكان بعضها مشتركاً (يحمل معنيين) بحيث يتطلب رجلاً من أهل المنطق ليفسر مغزاها، فمن ذلك أن الوحي عندما كشف عن هذه النبوءة التالية إلى أغني ملك في آسيا :

[عندما يجتاز قارون نهر هاليس Halys تحطم مملكة عظيمة لا محالة]

ظن « قارون » أنه كان يحطم مملكة عدوه، ظن هذا في نفس الوقت

(١) « ماركوس فارو » M. Varro أعظم أهل عصره من الرومان علماً (لويب) .

(٢) قارن الفقرة الثالثة والثامنة عشرة والتاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

الذى كان يحطم فيه مملكته، ولكن من الممكن فى كلا الحالين أن يكون الوحى صادقا . ثم لماذا تضطرنى للاعتقاد بأن « قارون » قد تلقى هذا الوحى ؟ أو لماذا أعتبر « هيرودوت » (١) أصدق من « أنيوس » فى هذا ؟ وهل كان « هيرودوت » أقل مقدرة فى اختلاق القصص التى تدور حول « قارون » من « أنيوس » فى اختراع الحكايات التى قالها عن « بيروس » Pyrrhus ؟ فمن ذلك لا تجد أحدا يثق فيما يقوله أنيوس عند ما ينص على أن وحى أبولو قد كشف إلى بيروس عن النبوة التالية :

[أى يا ابن « أياكوس » Aeacus ، إنى أتكنه بأنكم يا جنود الرومان ستهمون] (٢)

ونلاحظ أن أبولو كان قبل كل شىء لا يتكلم اللاتينية أبداً ، ثم إن الإغريق كانوا يجهلون هذه النبوة ثانياً ، ثم إن أبولو كان قد كشف عن نظم الشعر فى أيام بيروس ثالثاً . ونلاحظ أخيراً أن أبناء أياكوس وإن كانوا فيما يقول أنيوس :

[جنساً بليداً اشتهر بشجاعته لا بحكمته]

إلا أن بيروس ربما أوتى من النظر ما يمكنه من أن يفهم أن هذا البيت الغامض المشترك : « ستهم جنود الرومان » ، لم يكن فى صالحه ولا فى صالح الرومان ، أما عن هذه النبوة المشتركة (التي تحمل معنيين) ، والتى خدعت « قارون » فإنها قد تخدع « كريسيديوس » مثلاً ، وأما الإجابة التى قىلت لبيروس ، فإنها لن تخدع حتى أبيقور !

(١) يلخص هيرودوت هذه القصة فى الجزء الأول ص ٥٣ (لوبيج) .

(٢) من « الحوليات » التى نظمها أنيوس (لوبيج) وكلمة « ستهمون » يتغير معناها إن بنيت المجهول عنه إن بنيت للعلوم . وفى البناء الأول تدور الدائرة على الرومان . وفى الثانى ينتصرون . . . !

مناقشة نبوءات دلفي :

٥٧ - إلا أن السؤال الجوهرى هو هذا : لماذا لا يقال فى الوقت الحاضر نبوءات دلفي التى سقت لك الأمثلة والشواهد عليها ، ولا يتلقاها أحد منذ زمان مديد ؟ ولماذا ينظر الناس الآن إليها باحتقار بالغ ؟ فإذا وقفنا عند هذه النقطة لنعرف السبب فيها ، أكد المدافعون عن هذه النبوءات أن « مرور الزمان الطويل قد لاشى بالتدريج ميزة المكان الذى صدر عنه هذا البخار الأرضى الذى ألهم الكاهنة « يثيا » لتتلق بهذه النبوءات ، . . . وربما خطر للبره أنهم يتحدثون عن نبيذ أو ماء أجاج يقبل التبخر مع أن المسألة تنصب على ميزة المكان - تلك الميزة التى لانسميها طبيعية فحسب ، بل إلهية معاً - ثم كيف تبخرت هذه الميزة ؟ إنك تقول : « على مر الزمان الطويل » . ولكن أى زمان هذا الذى أمكنه أن يحطم قوة إلهية ؟ وأى شىء إلهى كهذا البخار الأرضى الذى يلهم النفس بقوة التنبؤ بالمستقبل . مثل هذه القوة لا تدرك الأحداث قبل وقوعها فحسب ، بل تصوغ تكهناتها فى شعر منظوم ؟ ومتى اختفت هذه الميزة ؟ أكان اختفاؤها بعد أن أخذت سرعة التصديق تزايل عقول الناس ؟ ولا بأس من أن نقول عرضاً إن « ديموستين » الذى عاش منذ ثلاثمائة عام كان يقول إن كاهنة يثيا قد حابت فيليب فى نبوءاتها ^(١) ، أى كانت حليفته بمعنى آخر ، وقد قصد بهذا التعبير أن يقول إن فيليب قدرشاها ، ويمكننا أن نقول استناداً إلى هذا إن نبوءات دلفي لم تخلُ فى غير هذا الحدث من الغش والخداع خلوا تاماً ، ولكنى لا أدرى لماذا يبدو فلاسفتك الخرافيون الواهنون على هذا النحو من التناقض البين . ثم إنكم أيها الرواقيون بدلاً من أن ترفضوا التسليم بصحة هذه القصص التى لا تقبل التصديق ، أثرتم أن تعتقدوا بأن قوة قد تلاشت بالتدريج حتى انتهت إلى العدم ، مع أن هذه القوة لو وجدت ، لكان من المؤكد أن تظل موجودة قائمة إلى الأبد .

(١) قارن : 1. Dem. 287, 14, Aeschin 72 (لويب) .

(ب) مهاجمة الرؤيا الصادقة

مناقشة آراء الفلاسفة :

٥٨ - وشييه بهذا خطأهم في موضوع الرؤيا ، وما أبعد المعين الذى استقوا منه دفاعهم عنها ! « إن نفوسنا - فيما تزعم مدرستكم - إلهية ، وقد وفدت إلينا من مصدر خارجى عنا ، والكون يزخر بالنفوس المنسجمة ، وعلى هذا فإن النفس البشرية تنبأ إبان النوم بأحداث المستقبل لأنها إلهية ، وعلى اتصال بغيرها من النفوس المنتشرة فى الكون كله ^(١) . ولكن « زينو ، يظن أن النوم ليس شيئاً أكثر من تقلص ، وكأنه هبوط وإغناء يعترى النفس الإنسانية ^(٢) .

ثم إن فيثاغورس وأفلاطون - وهما من أوثق المصادر فى هذا الصدد - يقترحان علينا إذا رغبتا فى أن تقع لنا رؤيا صادقة ، أن نهىء للنوم أنفسنا باتباع نظام معين فى السلوك والطعام ، فالفيثاغوريون يحرمون أكل البقول - كما لو كانت النفس لا البطن - هى التى تمتلئ بذلك رياحاً ! وأياً ما كان الأمر فإننا لا نصادف - عند فيلسوف ما - كلاماً أكثر من هذا تناقضاً . وإذن فهل تعتقد بأن نفوس النيام تتحرك من تلقاء نفسها أثناء الحلم ؟ أو أنها - كما يظن ديمقريطس - مضطرة إلى الحركة بتأثير أطياف تفد إليها من الخارج ؟ ^(٣) وسواء أصبحت هذه النظرية أم صدقت النظرية الأولى ، فإن الحقيقة التى تظل قائمة هى أن الناس يظنون إبان النوم أن الكثير من

(١) أنظر الفقرة الثامنة والأربعين من الكتاب الأول فان كونتوس يعرض فيها هذه الأفكار عن طبيعة النفوس (جارنييه) .

(٢) ويذكر « أرنيو » Arnium فى كتاباته النصوص الرئيسية التى تتصل بالنوم وهى تلخص رأى الرواقين بأن النوم تراخ فى النفس يزيد من إحساسها . ونجد فى ديوجانس اللايرتى ما تشبه هذا رأى (VII, 158.) (جارنييه) .

(٣) هى أطياف من خارج النفس تجلت فى العقل عن طريق الجسم . قارن شيمرون Acad. فى الكتاب الأول فى الفقرة الخامسة عشرة (لوب) .

باطل الأخيلة حقائق لا يأتيا الشك ، كما تبدو الأشياء الثابتة على الشاطئ . متحركة في عين السائح ، وكما يؤدي بنا الخداع البصري أحياناً إلى أن نرى عند النظر إلى المصباح لهيبين بدلاً من لهب واحد . وما حاجتي إلى القول بأن كثيراً من الأشياء التي لا وجود لها ، يراها السكرى أو المعتوهون ومحتلو العقول ؟ وإذا كان لا بد لنا من أن نسحب ثقتنا من مثل هذه الأخيلة التي تبدو للرجل اليقظان ، فاني لا أفهم لماذا نضع ثقتنا في أحلام المنام ؟ وقد يبدو لك أن تجادل فيما أسلفناه من خداع البصر ، كما جادلت في الأحلام من قبل ، وتقول على سبيل المثال إن الأشياء الثابتة عندما تبدو متحركة تنبيه مقدماً عن زلزال أو فرار جيش مفاجيء ، وأن لهب المصباح إذا بدا مزدوجاً ، أندر بقيام فتنة أو ثورة !

الرؤيا المصادقة وانقراض المصادقات :

٥٩ — وباستخدام الحدس فيما نراه عند السكرين والمعتوهين من هذيان يبدو في صور لا يمحىها العد ، قد نهتدي إلى ما يلوح أنه نبوءة صادقة ، إذ منذ الذي يسدد المرمى إلى هدف معين طوال يومه ، ولا تحالفه المصادقة في إصابته ؟ إننا تنام كل يوم ، ومن النادر أن تمر ليلة لاتقع لنا فيها أحلام ، فهل تعجب إذا تحققت أحلامنا في بعض الأحيان . ؟ لاشيء يجري عفواً على غير وتيرة مؤكدة كرمية النرد ، ومع ذلك فليس ثمة فرد يلعب كثيراً إلا ويوفق إلى رمية فينوس عرضاً في مرتين أو ثلاث مرات متعاقبة . وإذن فهل أصابتنا الحماقة حتى نميل إلى القول بأنها وقعت بفضل فينوس ، ولم تقع على سبيل المصادقة . ؟ وإذا كان لا بد لنا من أن نشك في أمر الأحلام الباطلة

(١) إله الطب وهو ابن أبولو وأرسينوى Arsinoé أو كورونيس Coronis ، وقد تولى تربيته كائن وهمي نصفه إنسان ونصفه الآخر فرس ، ومنه تعلم فن العلاج ، كما يقول معجم باشليه وديزوبري ، أما « سيرابيس » Serapis فانه إله مصر القديمة في عصر البطالة والرومان ، وقد أصبح أخيراً « أيسكولايوس » نفسه .

في أوقات أخرى ، فاني لا أرى في النوم ميزة ما ، تجعل من أحلامه الفاسدة رؤيا صادقة . ثم إذا كان نظام الطبيعة من جهة أخرى قد قضى على النيام أن ينفذوا الأحلام التي طافت بخواطهم ، لوجب أن يشد وثاق الناس على الدوام كلها مضوا إلى سرهم ، لأنهم يرتكبون من الحماقات في أحلامهم أكثر مما يرتكب أى رجل مجنون !..

وإذا كان لابد من أن نشك في الرؤيا التي تتراعى لمختلى العقل — لأنها غير حقيقية — فاني لا أدري لماذا تثق في أحلام هي أكثر اضطراباً من هذا بكثير ؟ فهل تثق فيها لأن المجانين لا يقصون هذيانهم لمعبرى الأحلام كما يفعل ذلك أصحاب العقول السليمة ؟

الشك في منفعة الأهرام :

إني أوجه إليك هذا السؤال : هب أنى أردت أن أتعلم القراءة والكتابة أو الغناء أو اللعب على العود ، أو أن أتمكن من حل تمرين في الهندسة أو مسألة في الطبيعة أو قضية في المنطق ، هل يجب أن أنتظر حتى أهتدى إلى معرفة هذا فيما يقع لى من أحلام ؟ أم يجب أن أعتمد على ما يتطلبه كل من هذه الفنون أو العلوم من معرفة خاصة بدونها لا يهتدى أحد إلى العلم بها ، ولا إلى التفوق في ميدانها ؟ كلا ، بل حتى إذا أردت أن أطلق في الماء سفينة ، لما التزمت في قيادتها الطريقة التي ينبغي اتباعها في قيادة السفن كما تبدو فيما يترامى لى من أحلام ، لأنى إن فعلت ذلك ، لقيت العقاب سراعاً . وماذا يكون الرأى في مريض يلتمس الخلاص من دائه عند معبر الأحلام ، لا عند طبيب يداوى الأجسام ... ؟ أو هل تظن أن « أيسكولا بيوس » Aesculapius و « سراپيس » Serapis قد أوتيا القدرة على تشخيص العلاج

لأمراضنا الجسدية^(١) عن طريق الأحلام؟^(٢) أو هل تظن أن « نبتيون »^(٣) لا يستطيع أن يساعد أدلاء السفن بهذه الطريقة نفسها ؟ أو هل تظن أن « مينرفا »^(٤) وإن كانت تصف للمريض دواءه في حلم يقع له دون معونة يقدمها الطبيب ، فإن آلهة الشعر لا تمنح في الرؤيا طريقة العلم بالقراءة والكتابة وسائر الفنون الأخرى . ؟ إذا كانت الرؤيا تحمل العلم بدواء المرض ، فإن الفنون السالفة الذكر يمكن أن تعرف بدورها عن هذا الطريق نفسه . ولكن ما دمنا لا نهتدي إلى معرفة هذه الفنون عن طريق الرؤيا ، فإن العلاج كذلك لا يشخص في الأحلام . وما دمنا قد دحضنا النظرية التي تقول بأن فن الطب يوهب عن طريق الرؤيا ، فإن الأساس الذي قام عليه الاعتقاد في صدق الرؤيا قد تداعى وانهار تماما .

استبعاد الوحي الألهي من مجال الرؤيا :

٦٠ - ولكن رغم ما نراه من وضوح النتيجة التي انتهينا إليها الآن ، فانا نريد أن نتناول هذا الموضوع يبحث أعمق عما أسلفنا ، ومن المحقق أنك مضطر إلى التسليم بأحد هذه الفروض الثلاثة :

(١) هناك علاقة بين الوحي عن طريق الرؤيا وبين هذين الالهين . وبالوحي السالف كان يوصف الدواء لعلاج المرضى (لويب) .

(٢) كان المعتقد في العصور القديمة بوجه عام أن المريض الذي ينام في المعبد يبرأ من مرضه ، ونرى أحد أشخاص رواية « بلوتوس » Plutus لأرستوفان ، كان مضطراً لكي يبرأ من مرضه أن ينام في معبد الاله « أيسكولايبوس » وأن « هروديان » Herodien يقول إن الإمبراطور « كراكلا » Caracalla قد سارع إلى « برجان » Pergau بآسيا الصغرى لكي يشفيه الاله السالف (جارنييه) .

(٣) إله البحر عند الرومان وهو ابن « ساتيرن » Saturne وأخو « جوبيتر » و « بلوتون » Pluton وفي قصره القائم بقاع البحر كان يحتجز الحيتان البحرية التي كانت تبحر عربته على سطح الأمواج .

(٤) هي إلهة الرومان في الحكمة والفنون والعلوم والشجاعة والعدل وقد ولدت من « مخ » جوبيتر ، وهي عنراء بكل معاني الكلمة وقد عاقبت « بيرزياس » على نظراته الخبيثة بحرمانه من البصر (باشليه وديزوبري) .

أولها : وجود قوة إلهية تعنى بتدبير خيرنا فتكشف لنا الأنباء عن طريق الرؤيا .

وثانيها : أن معبرى الأحلام يستندون إلى وجود علاقة وتداع طبيعيين بين الأشياء ^(١) ، ويسميها الإغريق بالمشاركة ، ويعرفون نوع الحلم الذى تتطلبه كل حالة ، كما يعرفون النتيجة التى تتبع كل حلم .

وثالثها : أن كلا هذين الفرضين غير صحيح ، وأن هناك مجموعة من القواعد المتسقة (المنطقية) التى تقوم على ملاحظات استغرقت زمنا طويلا ، وبهذه القواعد تعرف النتيجة فى كل حلم .

وعلى هذا ينبغى أن نفهم — قبل كل شيء — أن ليس ثمة قوة إلهية تخلق الرؤيا ، إنه لمن البين الواضح أن ليس شيء من هذه الرؤيا التى تترأى فى الأحلام ، يصدر عن إرادة إلهية ، لأنها لو كانت كذلك لتدخل الآلهة لصالحنا ، بحيث تمكننا الأحلام من كشف المستقبل . ولكن كم من الناس يعطى للأحلام باله ؟ أو يفهم مغزاها أو يذكر فحواها ؟ ثم كم من الناس لا يوليها احتراماً ، ويعتبر الاعتقاد فى صحتها خرافة عقل ضعيف عليل ! ثم لماذا ينقل الإله حين يدبر خير الجنس الإنسانى نذره عن طريق الرؤيا التى يعتبرها الناس غير خليقة بالتقدير ، فيضنون عليها بالاهتمام ، ويبخلون حتى بتذكرها ؟ لأن من المستحيل أن يجهل الإله نظرة الناس إلى الأحلام بوجه عام ، والإقدام على عمل لا حاجة للناس به ولا مبرر له ، أمر لا يليق بالإله ، ولا يتفق حتى مع إنسان دأبه التفكير السليم ، وعلى هذا فإن الناس إذا كانوا لا يعباون بأكثر الأحلام ، ويستخفون بأمرها ، فإن الإله إما أن يكون على جهل بهذه الحقيقة ، أو أنه يعمل عملا غير مجدٍ حين ينقل الأنباء

(١) يعتقد الرواقية أن بين أجزاء العالم علاقات خفية مرددا إلى نفس واحد يتغلغل فيها ويهبها الحياة ، وكثيرا ما يعبر مؤلفو الرواقية عن هذه الفكرة فيقولون إن العالم واحد وجميع أجزائه متصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا بحيث لا تحدث حركة ما ، إلا ويكون السكل علتها . (جارنييه) .

عن طريقها ، ولكن كلا الفرضين لا يتفق مع طبيعة الإله ، ولهذا يجب التسليم بأن الله لا ينقل عن طريق الرؤيا أنباء .

٦١ — وإني لأوجه إليك هذا السؤال كذلك : إذا كان الله يهبنا هذه الرؤيا كنذر سابقة للأحداث ، فلماذا لا يمنحها لنا ونحن أيقاظ بدلا من أن يهبها لنا ونحن نيام ؟ إذ أن نفوسنا سواء أكانت في حالة النوم تدفعها للعمل قوة خارجية وغريبة عنا ، أم كانت تتحرك بذاتها ، أم كان ثمة سبب آخر يجعلنا تتخيل أثناء الحلم أنا نرى أو نسمع أو تؤدي أعمالا معينة ، فهما كان هذا السبب ، فليس ثمة من حرج في أن يظل قائما إذا وهبت لنا الرؤيا إبان اليقظة . وإذا كان الآلهة قد أرسلوا إلينا نذرا إبان نومنا وقصدوا بها خدمتنا ، فإن من الممكن أن يرسلوها إلينا ونحن أيقاظ ، ولا سيما وأن الأشياء التي تبدلنا أثناء اليقظة ، تكون أكثر تميزا وأدعى إلى الثقة والاطمئنان من تلك التي تترأى لنا في الأحلام — كما يقول كريستوس في دحضه لآراء أتباع الأكاديمية . وعلى هذا يكون الأكثر تمثيلا مع حب الآلهة لخيرنا ، أن يهبوا لنا هذه الرؤيا واضحة إبان يقظتنا ، لا أن يرسلوها إلينا في أحلامنا بحجة يستعصى على العقل فهمها ، ولكن الآلهة لا تفعل ذلك ، ولهذا وجب أن نرفض التسليم بأن الرؤيا إلهية . ثم ما حاجتنا إلى طريقة معوجة غير مستقيمة تضطرنا إلى استخدام معبرين للأحلام ، بدلا من الطريقة الواضحة المباشرة التي لا تكلفنا هذا العناء ؟ وإن صح أن الإله يهب الخير لصالحنا ، فقد كان الأنسب أن يقول : « افعل هذا ، — لا تقدم على ذاك ، ، ذلك خير من أن يوحى إلينا بأحلام أثناء اليقظة أو إبان النوم .

٦٢ — ثم هل يجرؤ امرؤ على أن يدعى أن الرؤيا تصدق دوما ؟ إن « أنيوس » يقول : « إن بعض الأحلام صادق ، وليست كلها كذلك بالضرورة ، ولكن كيف تميز بين الصادق منها والباطل ؟ . ما آية الأحلام الباطلة وما آية الرؤيا الصادقة ؟

إرجاع الأوهام الى طبيعة النفس :

وإذا كانت الرؤيا الصادقة من وحي الآلهة ، فمن أين تصدر الأحلام الباطلة ؟ إن من المحقق أن الله إذا كان يوحى بالباطل من الأحلام كذلك ، فأى شيء يكون أدعى للشك وأبعد عن الثقة من الله ؟ ثم أى شيء أكثر حماقة من أن تثير نفوس الناس بأحلام باطلة وكاذبة ؟ ولكن إذا كانت الرؤيا الصادقة من وحي الآلهة ، أما الأحلام الباطلة التى لا تحمل معنى فتصدر عن الطبيعة ، فأى ضرب من الهوى أدى إلى القول بأن الله قد أوحى بالاولى ، وأن الطبيعة قد صاغت الاخرى ، بدلا من أن يقال إن الله قد أوصى بهما معاً — وهذا ماتأبى مدرستك الرواقية التسليم به — أو أن الطبيعة قد صاغتهما معاً ؟ وما دمت تنكر أن يكون الله هو الموحى بهما معاً ، فعليك أن تسلم بأن الطبيعة قد صاغتتهما جميعاً ، وأنا أقصد « بالطبيعة » فى هذه المناسبة ، تلك القوة التى من أجلها لا تستطيع النفس أن تكون ثابتة مجردة من الحركة بعيدة عن النشاط . ثم إن النفس متى أعجزها إعياء الجسم عن استخدام الأطراف والحواس ، جنحت إلى إنشاء أحلام مختلفة باطلة لاتدعو إلى الثقة ، تصدر عما يسميه أرسطو (١) « بالآثار العالقة بما ينشأ عن أعمال النفس وخواطرها إبان اليقظة » ، وهذه الآثار إذا أثرت أنتجت فى بعض الأحيان نماذج للأحلام غريبة . فإذا كان بعض هذه الأحلام صادقا ، وبعضها الآخر كاذبا ، فإنى تواق لمعرفة الآية التى تميز أحدهما عن الآخر ، فإذا لم تكن ثمة آية تيسر هذا التمييز ، فلماذا نغير معبريك سمعا أو نعطي لهم بالا . ؟ أما إذا قامت هذه الآية المميزة ، فإنى أكون تواقا لأن ينبئ أصحابها عن حقيقتها ، ولكنهم لا يجدون جوابا إذا استفسرت منهم وعز عليهم الجواب .

٦٣ — والآن نتساءل عما هو أكثر احتمالا : هل نقول إن الآلهة

(١) الإشارة هنا إلى شرح أرسطو فى بحثه : De Insomniis فى الفصل الثالث (جارييه

ولوبيب) وانظر مذهب أرسطو فى الرؤيا فى كتابنا « الأحلام » فى كثير من الصفحات .

المخلدين الذين يمتازون بالسمو والتفوق الذى لا يحارى ، لا يحومون على الدوام حول أسرة الناس فحسب ، بل يدورون حول القش المتواضع الذى يرقد عليه الفقراء أنى كانوا ، حتى إذا سمعوا شخيراً يدوى ، بعثوا إلى صاحبه برؤيا مبهمه ملتوية تفرعه في نومه ، فيحملها في الصباح إلى خبير بالأحلام ليحل الغازها ؟ أو نقول إن الطبيعة قد هيات أقدارها بحيث إن النفس في نشاطها الدائم ترى في نومها أطيافا ما رآته والجسم يقظان ؟ أيهما أكثر انساقا مع الفلسفة ؟ أن تفسر هذه الأخيلة بالنظريات الخرافية التي تصدر عن المسنات من النساء اللاتي يتنبأن بحظوظ الناس ، أم تفسرها تفسيراً يقوم على كشف عللها الطبيعية ؟ ولكن ، حتى إذا كان في الإمكان أن نستمد من الأحلام استدلالات يوثق في أمرها (١) ، فإن هذا لا يقع لأولئك الذين يتظاهرون بأنهم أوتوا هذه المقدرة ، لأن طائفة المعبرين تضم أقل الناس عمقاً في التفكير وأبعدهم غوراً في الجهالة ، ومع هذا فإن أصدقائك الرواقين يؤكدون بأن الإنسان لا يستطيع أن يكون كاهناً إلا إذا كان حكيماً !

مناقشة قيام فن التعبير :

ويصف « كريسيبوس » ، التنبؤ بالغيب في هذه الألفاظ : « إنه القدرة على أن ترى الشواهد التي يكشفها الآلهة للناس نذيراً بما يقع ، مع إمكان فهمها والقدرة على تأويلها (٢) . ويمضى في حديثه قائلاً : « ومهمة التكن هي الكشف سلفاً عن ميول الآلهة نحو الناس ، والطريقة التي بها تظهر هذه الميول ، والوسيلة التي بها يكسب الناس عطف الآلهة ، ويتقون شروهم التي توشك أن تنزل بهم » .

(١) يبدو هنا أن شيفرون يتنبأ بنظرية علمية للأحلام كان مقدراً لها أن تنتظر طويلاً ، وهي لم تستقر حتى في أيامنا الراهنة استقراراً نهائياً ، بالرغم مما أثير حول هذا الموضوع من أبحاث كثيرة هامة (جارنييه) .

(٢) يشير إلى الفقرة النامية والثلاثين والثالثة والثلاثين من الكتاب الأول وفيها يعرض كوتتوس نظرية الرواقين في التنبؤ بالغيب باعتباره فن تفسير النذر التي يقدمها الآلهة للناس باسم العناية بهم (جارنييه) .

ويجد هذا الفيلسوف نفسه تعبير الأحلام على هذا النحو : « إنه القدرة على فهم الرؤيا التي توجى بها الآلهة إلى الناس إبان النوم ، مع إمكان تأويلها » . فان صبح ما يقول ، فهل يكفي لهذا مجرد الفطنة العادية ، أو هل لا تحتاج على الأجرى إلى الذكاء الغلاب والعلم الكامل كلاً مطلقاً ؟ أما أنا فإني لم أصادف مثل هذا الرجل (الذي تهبأت له هذه الصفات) .

٦٤ — وحتى إذا سلمت برأيك في قيام التكهن بالغيب — وهذا ما لا ينتظر أن يكون بتأناً — فإنه ينبغي أن نكون على يقين بأن من المستحيل أن نعثر على كاهن . وإذن فلماذا يقصد الآلهة بما يوجون به من رؤيا في أحلامنا لانملك نحن القدرة على فهمها ، ولا نستطيع أن نجد امراً يؤولها لنا ؟ إذا كان الآلهة يرسلون في أحلامنا هذه الرسائل التي لا تقبل الفهم ولا تخضع للتفسير ، فإنهم بهذا يشبهون القرطاجيين والانسبان إذا اضطروا إلى مخاطبة مجلس شيوخنا بلغة بلادهم ، دون الاستعانة بمرجم يفسرها لأعضاء المجلس . ثم أي خير نرجوه من وراء هذه الأحلام الغامضة المبهمة ؟ من المحقق أن الآلهة يطمعون لا محالة في أن نفهم النصيحة التي يسدونها إلينا خدمة لنا ، ولكنك ترد على هذا قائلاً : « ألا يلتبس علينا شعر الشعراء ومذاهب الفلاسفة الطبيعيين ؟ » . في الحق إنها كذلك : فمن ذلك أن « إيوفريون » Euphrion ^(١) غامض كل الغموض ، ولكن « هومير » ليس على هذا الإبهام ، فأيهما أشعر من الآخر ؟ وهرقليطس مسرف في الغموض ^(٢) ، وديمقريطس ليس كذلك على أقل تقدير . فهل يمكن أن نعقد بينهما مقارنة ؟ بيد أنك تسدى إلى النصيحة خدمة لي في كلمات لا أقوى على فهمها ، فلماذا النصيحة إطلاقاً ؟ إن

(١) كان شاعراً يونانياً في القرن الثالث قبل المسيح واشتهر بالثناء ، وبضعة كليات الاسكندري Clément d'Alexandrie في تصنيفه من هذه الوجهة مع كلياتكوس Callimaque وليكوفرون Lycophron وهما من الكتاب المقدسين في كتاباتهم وتعب في شرحها أهل اللغة (لويب وجارنييه) .

(٢) كان هرقليطس يسمى « الغامض » قارن شيسرون : De fin 11. 5. 15 (لويب)

هذا شبيه بالطبيب الذى يأمر المريض أن يتعاطى « شيئاً نبت من الأرض ولا دم فيه ، وهو يزحف حاملاً مسكنه على ظهره » بدلاً من أن يقول باللغة الدارجة المألوفة « قوقع » .. ويتحدث أمفيون في رواية وضعها با كوفوريوس^(١) إلى الأثينيين عن كائن من ذوات الأربع قصير القامة ، خشن خجول بطيء حاد البصر ، دقيق الرأس تشبه رقبته عنق الثعبان ، إذا نزعته منه أحشاؤه وحرمت الحياة ، لبث يردد إلى الأبد أغنية شجية ..

ولما كان المعنى الذى يحمله هذا التعبير غامضاً مسرفاً في الغموض فقد أجابه الأثينيون قائلين : « أوضح فيما تقول وإلا استعصى علينا أن نفهمك » وعندئذ وصف هذا الكائن في كلمة واحدة فقال : سلحفاة .. أما كان في وسعك أن تقول هذا أولاً أيها اللاعب على القيثارة ؟

مناقشة استفسارات الرواقية :

٦٥ - روى كرايسبوس في كتابه عن الأحلام قصة رجل الشمس مشورة كاهن في حلم رأى فيه بيضة معلقة في السرير في غرفة نومه فقال له : « تحت سريرك كنز مغيب في جوف الأرض ، ولما حفر الرجل تحت سريره عثر على كمّ من الذهب تحوطه فضة ، فأرسل إلى الكاهن كمّاً من الفضة ظنه مناسباً ، فقال له الكاهن بعد : ألا يصيبني شيء من مح البيض ؟ وقصد بالملح الذهب ، وبالفضة بياض البيض ، فهل لم يظهر البيض في حلم إنسان آخر ؟ فإذا كان قد تراءى في حلم ما ، فلماذا يعثر على الكنز هذا الرجل وحده - أياً من كان - لأن البيضة قد ترامت في حله ؟ وكم في الدنيا من المعوزين الفقراء يستحقون معونة الآلهة ، ولكن الرؤيا لم ترشدهم إلى طريق الكشف عن الكنز ، ثم لماذا أثر الآلهة مع هذا الرجل ذلك التلبيح الغامض المبهم الذى يصور بعض التشابه الموهوم بين البيض والكنز ، ولم يصرح الآلهة بذلك في

(١) الأبيات مقتبسة من كتابه « أنتيوب » Antiope وتجرى في مناقشة دارت بين أمفيون Amphion وأخيه « زيثوس » Zethus (لوب) .

جلاء سافر كما وقع في رؤيا سيمونيدس^(١) عند ما زجرته الآلهة عن الإبحار على ظهر سفينة؟ وصفوة القول في هذا أن الرسائل التي تترأى في الأحلام مشوبة بالغموض والإبهام، لا تتفق مع كرامة الآلهة بتاتاً.

٦٦ — فلنتناول الرؤيا التي يشيع فيها الوضوح، وتنصب على موضوعها في غير التواء، كرؤيا الرجل الذي أجهز عليه مدير الفندق في مينغارا^(٢)، أو رؤيا سيمونيدس، الذي تلقى من الرجل الذي دفنه إنذاراً يزجره عن الإبحار، ورؤيا الإسكندر، ويدهشني يا عزيزي كوتتوس إنك مررت بها دون أن تعيرها اهتماماً، فقد أصاب سهم مسموم في إحدى الممارك « بطليوس »، Ptolemeaus صديق الإسكندر الحميم، وأشرف على الهلاك متأثراً بجراحه، وعانى مرارة للنزع الآليم، وبينما كان الإسكندر جالساً على كשב من صديقه غشيه نوم عاجل، وعندئذ رأى رؤيا — فيما تقول القصة — ظهر فيها ثعبان أمه « أولمبياس »، الأليف يحمل في فمه جذعاً، ودله في نفس الوقت على اسم مكان يقوم على كشب من المكان الذي يقال إن الجذع قد نما فيه، وأنباء الثعبان بأن هذا الجذع كان له من الفضل العظيم ما عجّل بعلاج بطليوس، وما أن استيقظ الإسكندر حتى قص رؤياه على أصدقائه وأرسل الرسل في طلب الجذع. وقيل إن الجذع عندما عثروا عليه لم يصلح لعلاج بطليوس وحده، بل استغل في علاج الكثيرين من الجنود الذين أصابتهم الجروح التي نشأت عن هذا النوع من السهام المسمومة...!

لقد استعرت من تاريخ الرؤيا مجموعة أحلام حملت إلينا أنبأها، فمن ذلك أنك تحدثت عن أم « فالاريس »، و « كايروس الأكبر »^(٣) والرؤيا التي وقعت

(١) قارن الفقرة السادسة والعشرين من الكتاب الأول (لويب).

(٢) قارن الفقرة السادسة والعشرين من الكتاب الأول (لويب).

(٣) قارن في هذا وفي مثال كايروس الثاني الفقرة الثانية والعشرين من الكتاب الأول

(لويب).

لأم «ديونيسيوس»^(١)، ورؤيا هملكار^(٢)، وهانيبال القرطاجيين ورؤيا «بوبيوس دكيوس». وذكرت الرؤيا التي أثارت الاهتمام، وترامت للعبد الذي كان أول راقص في الألعاب النذرية^(٣) ثم رؤيا «جايوس جرا كوس»، وتلك التي رأتها حديثا «كيكيليا»^(٤)، أخت «بلايريكوس»، ولكن هذه أحلام ناس من شعوب أجنبية عنا^(٥) ولهذا فانا لا نعرف من أمرها شيئا، وربما كان بعضها محض اختلاق، إذ أى مؤلف عرض للكلام عنها؟ وماذا لدينا لنقوله عن أحلامنا...؟ وعن رؤياك التي رويتها عني، وعن جوادى الذى خرج من النهر وظهر على الشاطئ^(٦)، وعن رؤياى التي رأيت فيها «ماريوس» وقد أقبل بأكاليله التي صاغها من الأشجار، وأمرنى بالمضى إلى معبد الذكرى الذى يحمل اسمه^(٧).

إرجاع الأهموم الى مكونات النفس :

٦٧ — كل الأحلام يا عزيزى كوتوس لها تفسير واحد، فها باسم السماء حتى لا تتغلب خرافاتنا وعنادنا على هذا التأويل. أى «ماريوس»، هذا الذى تظن أنى رأيت فى حلمى؟ أحسب أنى رأيت «صورته»، أو «طيفه»، هذا على الأقل هو ما يظنه ديمقريطس^(٨). ومن أين جاء ظيفه؟ ربما كان من رأيه أن

-
- (١) قارن الفقرة التاسعة عشرة من الكتاب الأول (لويب).
 - (٢) قارن فى هذا وفى المثاليين التاليين الفقرة الثالثة والعشرين من الكتاب الأول (لويب).
 - (٣) قارن فى هذا وفى المثال التالى الفقرة الخامسة والعشرين من الكتاب الأول (لويب).
 - (٤) قارن الفقرة الثالثة والأربعين من الكتاب الأول (لويب).
 - (٥) هكذا فسر Kühner, Giese, Moser الكلمتين : haec externa فيما يشير مترجم لويب، وقد ترجمها (ديمارىه) أحلام أجنبى.
 - (٦) قارن الفقرة السابعة والعشرين من الكتاب الأول (لويب).
 - (٧) قارن الفقرة السابعة والعشرين من الكتاب الأول (لويب).
 - (٨) يبدو أن المراد بالمناقشة التى تدور هنا هو النظرية الأبيقورية فى الإدراك الحسى المتصل بحاسة البصر كما عرضها «لوكرىس» Lucrèce لا نظرية ديمقريطس كما يشير النص (جانييه).

والأطياف، تصدر عن الأجسام المادية، أو تنشأ عن أشكال موجودة بالفعل، وإذن فقد صدر الطيف الذي رأيته عن جسم «ماريوس»، ولكن «ديمقريطس» يقول: «كلا بل صدر عن جسمه الذي كان له فيما مضى». ولهذا فقد كان طيف «ماريوس» يطار دني إلى سهول «أتينا؟»، «يا للعجب». ولكن الكون زانخر بالأطياف،، وليس في الإمكان أن تتصور الأشياء إلا عن طريق أطيافها التي تغد إلى العقل من الخارج. وإذن فهل هذه الأطياف التي تتحدث عنها مطيعة تستجيب إلى إشارتنا، إلى حد أنها تخف إلينا في اللحظة التي نستدعيها فيها؟ وهل يصدق هذا على أشباح الأشياء التي لا وجود لها؟ إذ ما عسى أن يكون هناك من أشياء وهمية لا حقيقة لها ولم نسمع بها إلى حد أن يتعذر علينا أن نكون عنها صورة عقلية؟ بل قد نكون (صور) أشياء لم نرها إطلاقاً، كمواقع المدن ووجوه الأشخاص، وعلى هذا فاني أرى — تمشياً مع نظريتك — أني إذا فكرت في أسوار بابل، أو خطر لي وجه «هومير»، ظهر في مخي طيف ما مر بخاطري، ولهذا فان من الميسور لنا أن نعرف كل شيء نبتغي معرفته، ما دمنا لا نجد شيئاً نعجز عن التفكير في أمره، وعلى هذا فليس ثمة طيف يتصل من الخارج إلى نفوسنا أثناء النوم، كما أنه لا وجود لأطياف تسبح في الهواء إطلاقاً، وفي الحق إنني لم أصادف أحداً من الناس يتحدث بمثل هذا الاتزان الذي يبدو في حديث ديمقريطس:

«إن النفس (البشرية) لها من قوتها وطبيعتها ما يجعلها نشيطة إبان اليقظة، لا لأن شيئاً خارجياً يحملها على ذلك، بل يسبب ما فطرت عليه من قدرة على الحركة الذاتية والسرعة التي لا يتصورها العقل^(١). وعندما توازر النفس أعضاء الجسم وحواسه الخمس، تُعظم قوى إدراكها الحسي وينشط تفكيرها

(١) هذا الرأي نفسه الذي شرحه شيسرون أيضاً في (C. M. 21. 78 Tusc. 1. 43.)
قد سلم به قدماء الفلاسفة بوجه عام.

ويقوى فيها وتزداد الثقة بها ، ولكن عندما يعوزها هذا الغوث الخفى (١) ويتبدل الجسم إبان النوم ، تتحرك النفس بذاتها ، وهكذا تهفو الرؤيا حولها ، وتمارس النفس نشاطها ، ويلوح أنها تسمع الأصوات وترى الكثير من الأشياء . وفي وسعك أن تكون على يقين من أن النفس عندما يدركها الضعف ويصيبها الارتخاء ، ترى مثل هذه الصور ، وتسمع مثل هذه الأصوات بطرق يشيع فيها الاضطراب ، وتمثل في صور شتى . وفلا تخطئ — بوجه خاص — أن آثار ما يجري في يقظتنا من أعمال ، وما يطوف بعقلنا من خواطر ، تتحرك في باطن النفس وتنقل ، فمن ذلك أني حين كنت في المنفى كان « ماريوس » لا يكاد يفارق خاطري ، فقد كنت أذكر الشجاعة والجلد العظيم الذي اغتصم به في تحمل ما أصابه من بلايا شديدة الوطأة ، وهذا — فيما أظن — هو الذي من أجله كان « ماريوس » يطوف بخاطري كلما عقد الكرى أجفاني .

٦٨ — أما عن رؤياك فإنها قد وقعت لك عندما كنت مهموماً بالتفكير في أمرى (٢) ، ثم تراءت لك حين خرجت من النهر فجأة ، فإن في نفس كل منا تكمن « آثار من خواطر اليقظة » ، ولكن هذه الآثار قد طرأت على صورتها الأصلية زيادات وإضافات ، كما ترى في رؤياي عن معبد الذكرى لماريوس ، ورؤياك التي تبدى فيها الجواد الذي كنت أمتطي صهوته ، وقد غاص في الماء ثم طفا وعاد إلى الظهور ، ولكن أنحسب من الممكن لعجوز

(١) إن الفكرة التي يفرضها شغفنا هنا فكرة شائعة للغاية ، ومن الممكن القول بأنها تشبه أحدث النظريات في هذا الصدد ، وخلاصتها أن اضطرابنا إلى أن نعمل أثناء اليقظة عملاً معيناً ، أو نواجه بعض المسائل بطريقة خاصة ، يضع هذا الخيالاً نطاقاً معيناً لا يتجاوزه ، وليس في وسعنا أن نستمر مع خيالنا غير مكترئين لما لسمينه بالحقيقة ، إلا إذا استهدفتنا لكل أنواع المخاطر ، لأن مصلحتنا التي تفرض علينا العناية بجسمنا وحفظه في حال سليمة ، والتي تقضى باستخدام أعضائنا لسد حاجتنا ، تقضى بأن نمحذر من غوايب الأسترسال في الخيال ، وتقوم بدور هام في إدراكنا الحسية ، أما في أثناء النوم فالتأني بالحواس وحقائقه ، ونستمر مع الخيال أني ذهب ، وهنا ندع الكلمة للأستاذ برجنون (جارييه) .

(٢) حين كان شيمرون في مناه (لويب) :

شمطاء قد بلغت من الخبل الحد الذى يجعلها تؤمن بالأحلام ، أن تستمر في إيمانها هذا ، متى ثبت لها أحياناً — لحسن الحظ أو المصادفة — أن هذه الأحلام باطلة ؟

ولكن فلنعرض للحديث عن رؤيا الاسكندر عن الثعبان الذى تكلم ، قد تكون القصة صحيحة ، وقد تكون مختلفة من بدايتها إلى نهايتها ، وفي كلتا الحالتين لا تعتبر هذه القصة شيئاً معجزاً ، لأن الإسكندر لم يسمع صوت الثعبان وهو يتكلم ، ولكن ظن وهما أنه سمعه ، وقد خال — وهذا أعظم الأمور مثاراً للغرابة ، أن الثعبان قد تكلم وهو يحمل الجذع في فمه ..! ولكن ليس من شئ غريب على الإنسان حين يكون في حلم . ثم إذا كانت هذه الرؤيا الصادقة المليئة بالحياة والمعاني ، قد وقعت للإسكندر ، فإني أميل إلى توجيه هذا السؤال إليك : لماذا لم ير رؤيا شبيهة بها بعد ؟ ولماذا يرى الآخرون في منامهم كثيراً من أشباه هذه الرؤيا ؟

أما عن أحلامي فإني إذا استثنت الرؤيا التى رأيت فيها ماريوس ، لا أجد في ذاكرتي حلاً أستطيع استعادته ، ففكر إذن ، كم من ليلة في حياتي الطويلة قد قضيتها عبثاً !! وهذا فوق أنى قد أوقفت في الوقت الراهن دراساتي الليلية نظراً إلى اضطراب شئوني العامة ، وأضفت ، على عكس ما ألفت من قبل ، فترات قصيرة المدى أنام فيها بعد الظهر ، ولكني رغم كل هذا الوقت الذى أقضيه نائماً ، لم أتلق في الرؤيا نبوءة واحدة — أجل ، ولا نبوءة واحدة على التحقيق تنصب على الأحداث الجسام التى تدور الآن رحاها ^(١) . وفي الحق إنى — فيما يخيل إليّ — لم أر رؤيا إلا حينما كان الحكم في السوق العامة ، ومجلس الشيوخ في داره .

الك في قيام عرفة طبيعية بين نبوءات الرؤيا ومقائس الأشياء :

٦٩ — ومن حيث إننا وصلنا الآن إلى القسم الثانى من موضوعنا الراهن ،

(١) يشير إلى الشغب والاضطراب الذى أعقب مصرع قيصر (لويب) .

هل ثمة مثل هذه العلاقة الطبيعية (١) وهي أن العثور على كنز نتيجة لازمة لظهور بيضة في رؤيا؟ من المحقق أن الأطباء يعرفون — استناداً إلى أعراض معينة — بداية المرض ويدركون استفحاله ، والمظنون أنهم يستطيعون أن يعتمدوا على بعض ضروب الأحلام (٢) في الاهتداء إلى دلالات معينة ، كتلك التي تنبئ عن صحة المريض ، أو عما إذا كان الجسم مليئاً بالسوائل أو فارغاً منها ، ولكن أية علاقة طبيعية تلك التي تربط بين الرؤيا من ناحية ، والكنوز وتراث الأجداد والمصلحة العامة والانتصار في الميادين وما يشبه هذا من أمور كثيرة من ناحية أخرى؟

يقال إن أحد الناس قد قذف حصي أثناء حلم تخله جماع ، وأنا أستطيع في مثل هذه الحالة أن أثبت العلاقة التي تربط بين الحلم ونتيجته ، لأن الرؤيا التي تمثلت للنائم كانت بحيث تجعل من البين أن ما وقع له ، مردّه إلى أسباب طبيعة لا إلى هذيان يطفو بخاطره (٣) .

ولكن بأي قانون من قوانين الطبيعة تلقى « سيمونيدس » هذه الرؤيا التي أمرته بأن يبحر؟ أو ما هي العلاقة التي تقوم بين قوانين الطبيعة وبين حلم « الكبيادس » الذي بدا فيه قبيل عماته بقليل — فيما يقول التاريخ — مكتسباً

(١) التي تقوم بين الأحلام والأشياء كما تظهر في الرؤيا . قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الثاني (لويب) .

(٢) كان الطب القديم يسلم بالأحلام التكهنية التي تحذر الحالم من المرض الذي قد يتعرض له بعد قليل من الزمن ، وكان أبقراط Hippocrate يقول إن النفس تنبأ بالحالات المرضية التي تعترى الجسم . وكان جالينوس Galien يؤكد أن الحلم يكشف لنا عن استعداد المرء للتعرض لصنف معين من الأمراض . وفي اعتقادنا أن الطب الحديث لا يستبعد هذه الفكرة ، وهو يقصرها على حالات معينة في نطاق ضيق (جارنييه) . أنظر شرح هذه الفكرة في كتابنا « الأحلام » ص ٦٨ و ١٤٣ و ٥٣—٥٤ و ٧٣—٧٤ وفي كتابنا « التنبؤ بالغيب » ص ٨٨ .

(٣) تسلم الترجمة بتفسير Hottinger De Div. p. 541 والمراد هنا أن الحلم السالف كان نتيجة وليس سبباً فيما تقول لويب ، وهو رأى اتفق عليه جبهة المحدثين من علماء النفس ، وإن كان رجال الدين من المسلمين قد ذهبوا إلى أنه من الشيطان .

رءاء خليلته ، ولما قتل أخيراً وطرح في الشارع بحشته ، وسجيت من غير أن تقر في مشواها ، وأغفل الناس أمرها إلى حد كبير ، غطت هذه الخليلة بحته بردائها ؟ فهل تقول إن هذه الرؤيا ترجع إلى أسباب طبيعية تتصل بالقضاء الذي اعتراه ، أو تقول إن المصادفة كانت سبباً أدى إلى ظهور الشبح والحادثة التي تلتها معاً ؟

اختلاف المعبرين في تأويل الرؤيا الواحدة :

٧٠ — ثم أليس صحيحاً أن حدس معبري الأحلام أدلّ على فطنة أصحابه ، منه على قيام علاقة بين الأحلام وقوانين الطبيعة ؟ ونقول على سبيل المثال إن عداء رأى في منامه أنه يتأهب للاشتراك في الألعاب الأولمبية ، وأنه كان يركب مركبة تجرها أربعة خيول ، فمضى في الصباح إلى معبر أحلام ليستشير في أمر هذه الرؤيا ، فقال له المعبر : « إن الفوز حليفك ، فإن هذا أمر تشير إليه سرعة الخيول وقوتها » . فذهب إلى « أنتيفون »^(١) ، فقال له : « إنك خاسر لا محالة ، ألسنت ترى أربعة تعدو أمامك ؟ »

فلنر عداء آخر — فإن كتب « كريستوس » و « أنتياتر » حافلة بمثل هذه الأحلام — فلنعد إلى الحديث عن العداء : أنبأ عداء معبر أحلام بأنه رأى في منامه أنه تحول إلى نسر ، فقال له المعبر : « النسر ينظر كـ ، فليس أمرع من الذسر بين الطيور ، فاستشار هذا العداء « أنتيفون » ، كذلك ، فقال له : « ألسنت ترى أيها الساذج أنك ستبوء بالخسران ؟ فإن هذا الطائر يطارد على الدوام غيره من الطيور ويسوقه أمامه ، ويتخلف على الدوام عنها جميعاً » . وقد كانت إحدى الزوجات تتوق إلى أن ترزق طفلاً ، وساورها الشك في حملها ، فرأت في منامها أن رخمها قد ختم عليه ، ولما قصت رؤياها على معبر

(١) كان كاهناً معاصراً لسقراط ، وقد تخصص في تمييز الرؤيا . وكان في هذا الميدان حجة غير منازعة . وظل على هذا حتى زمن بطليموس الأول Ptolémée Soter إذ ظهر طبيب يسمى « هيروفائل » Hierophilie فابشكر آراء جديدة ، (جارية) .

أحلام . قال لها : « إن الحمل مستحيل والرحم مختوم عليه ، ولكن معبراً آخر قد قال لها : « إنك حامل ، إذ ليس من المألوف أن يحتم على الشيء الفارغ ! » وإذن فما هو الفن الذى تهبأ لمعبرى الأحلام ؟ وهل تراه أكثر من أداة يستخدم فيها المرء ذكاهه فى خداع غيره من الناس ؟ وهذه الأمثلة التى أسلفتها — بالإضافة إلى ما قدمه الرواقيون من أمثلة لا عديد لها — لا تبرهن على شيء أياً ما كان ، إلا على حذق أولئك الذين يستندون إلى دقيق المشابهات ، لكنى يستنتجوا منها نتائج تختلف من حين إلى حين ، إن هناك دلالات معينة يراها الأطباء فى حالة النبض وترداد النفس وغير ذلك من أعراض بجمه ، يستندون إليها فى التنبؤ بالمرض . وعند ما يرى أدلاء السفن سمك الأخطبوط يثب فى البحر ، أو الدلافين تلوذ بنفسها إلى ميناء ، يعتقدون بأن زوبعة توشك أن تثور . يرى المرء فى مثل هذه الحالات آيات يمكن ردها إلى الأسباب الطبيعية ، وتفسيرها تفسيراً عقلياً ، وليس يصدق هذا البتة على الأحلام التى أسلفنا الحديث عنها منذ حين (١) .

السك فى قيام التعبير على المساهرة العملية :

٧١ — الآن قد باعنا فى بحث الأحلام النقطة الأخيرة (٢) ، التى استبقيناها للنقاشه ، والتى تجادل الآن فيها قائلاً :

« ظهر فن التعبير بعد ملاحظة الأحلام مدة طويلة من الزمان ، وتسجيل النتائج التى أدت إليها هذه الملاحظات ، . أحقاً هذا ؟ وإذن فمن الممكن — فيما يلوح لى — أن « نلاحظ الأحلام » ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن هذا ؟ فإن الأحلام تنوع تنوعاً لا حد له ، والمرء لا يستطيع بتاتاً أن يتصور شيئاً — بالغاً ما بلغ تناقضه وتعقده وشذوذه — لا يحلم المرء

(١) لعل هذا هو الذى حمل بعض مفكرى الاسلام على أن يردوا تأويل الأعلام إلى الفتح الإلهى مع الفطنة والذكاء — قارن كتابنا « الأحلام » ص ١٧٨ .
(٢) أى من النقط الثلاث التى ذكرناها فى الفقرة الستين من الكتاب الثانى (لوبيج) .

به ، فكيف إذن يكون من الممكن لنا أن نتذكر هذه الرؤى التي لا يحصيها العدد ، والتي تتغير على الدوام أبدا ، أو أن نلاحظ النتائج التي تعقبها ونسجلها ؟ لقد سجل علماء الهيئة حركات الكواكب السيارة ، فكشفوا بذلك عما للنجوم من مسالك منظمة — لم يفكروا فيها من قبل — ولكن نبئني — إن استطعت إلى ذلك سبيلا — ما هو الطريق المنظم الذي تلتزمه الأحلام في جريانها ، وما هي العلاقة المنسقة التي تقوم بين الأحلام والحوادث التي تعقبها ؟ وبأية وسيلة يمكن التمييز بين الرؤيا الصادقة والحلم الباطل ؟ مادام الحلم الواحد يستتبع عند شخص نتائج بعينها ، وعند شخص آخر يستلزم نتائج أخرى ؟ وما دمننا نرى أن الحلم الواحد الذي يقع لفرد واحد لا يستتبع على الدوام نتيجة واحدة ؟ وقد جرت العادة ألا نصدق كذابا حتى حين يقول صدقا ، ولكن الشيء الذي يثير دهشتي هو أن حلما واحدا إذا صدق ، فإن أصدقاءك الرواقين يثقون بقيمة هذا الحلم في مجال التكهّن بالغيب ، رغم أنه حلم واحد من عدة أحلام ، أو هم بالآخرى يعتمدون على رؤيا صادقة واحدة في إقرار أحلام باطلة أخرى لا يحصيها العدد.

قيام التعبير على الحدس ببرر الشك في نتائج :

وإذن فإذا لم يكن الله هو الذي خلق الأحلام ، وإذا لم تكن ثمة علاقة بينها وبين قوانين الطبيعة ، ثم إذا لم يكن من الممكن أن يقام فن التكهّن بالغيب عن طريق الملاحظة ، فانا لا نستطيع تبعا لهذا أن نثق في الرؤيا إطلاقا ، وإن هذا ليزداد وضوحا بوجه خاص إذا لاحظنا أن هؤلاء الذين تتراعى لهم ، ولا يستطيعون أن يستنبطوا منها نبوءات ، وأن هؤلاء الذين يؤولونها يعتمدون على الحدس ولا يستندون إلى الطبيعة ، وأن المصادفة قد انتهت بعد أجيال لا يكاد يحصيها العدد ، إلى معجزات أبعد على الدهشة وأعظم إثارة للعجب من تلك التي انتهت إليها الأحلام ، وألا شيء — آخر الأمر — أكثر مدعاة

للشك والقلق من الحدث الذى قد لا يودى إلى نتائج تتغير فحسب ، بل قد يودى فى بعض الأحيان إلى نتائج متناقضة .

رفضه التسليم بأساليب التكهن باعتبارها خرافة :

٧٢ — واذن فلنرفض التسليم بالأحلام كطريقة من طرق التنبؤ بالغيب ، كما رفضنا التسليم بغيرها من طرق ، ولنقل فى صراحة : إن الخرافة التى ذاعت بين الشعوب ذبوعا واسع المدى ، قد استغلت الضعف الإنسانى وهيمت على أكثر العقول البشرية . وقد أبنت عن هذا الرأى فى البحث الذى وضعته حول « طبيعة الآلهة » (١) ، وجعلت الدلائل على صحته الغرض الرئيسى من بحثنا الراهن ، فأكبر الظن أنى أودى خدمة جليلة لنفسى ولأهل وطنى معا ، إذا استطعت أن أجثث الخرافة من جذورها ، ولكنى أريد أن تفهم فى وضوح وتميز أن القضاء على الخرافة ليس تحطيا لكيان الدين ، لأنى أعتبر من الحكمة أن نحفظ برسوم أجدادنا ، وأن نتمسك بشعائهم الدينية وطقوسهم المقدسة ، فإن النظام الذى يتبدى فى رحاب السماء ، والجمال الذى يشيع فى فضاء الكون ، يضطرنا إلى الاعتراف بوجود كائن أبدي يسمو فوق شتى الكائنات ، ويستحق من نبى البشر التقدير والإكرام .

ومن ثم فإن واجبنا كما يقضى بأن نبسط نفوذ الدين الصحيح الذى

(١) فى المقرة الثامنة والعشرين من الكتاب الثانى من « طبيعة الآلهة » لشيخرون يميز أحد المتحدثين وهو يتكلم عن إلهيات الرواقين بين الخرافة التى تعتبر ضعفا وبين الدين الذى يجعل المرء خليقا بالتقدير والثواب . ولكن شيخرون يميل هنا الى القول برأى يشبه الرأى الذى يعبر عنه « كوتا » Cotta فى الكتاب الثالث من « طبيعة الآلهة » وشيخرون فوق أنه « شك » Sceptique فانه يخدم العرف الجارى المألوف ، وهو يؤكد عقب هذا وجود كائن علوى يدين له الناس بالاعجاب والاحلال ، مستندا فى رأيه هنا الى الدليل الذى قيل عن الملل الغائبة أو الملل الآلهية الطبيعية (جارنييه) .

يتصل بمعرفة الطبيعة اتصالاً وثيقاً^(١) ، فإنه يقضى كذلك بأن تقتلع جذوع الخرافة اقتلاعاً ، فانك إن أبييت التسليم بالخرافة ، جدت في إثرك ولاحتقتك وتبعثت أنى كنت ، إنها تصحبك حين تنصت إلى رنى أو تستجيب إلى قال أو تقدم القرابين لإله ، أو تراقب سبح الطيور في سمائها ، أو تلتمس مشورة نجم أو عراف ، أو ترى السماء ترعد أو تبرق أو ترسل الصواعق ، أو حين يقع ما يسمونه خارقاً ، ولما كان بعض هذه الشواهد يكاد يظهر بالضرورة دواماً ، فإن المرء الذى يؤمن بها لا يضمن لنفسه دوام استقرار العقل وهدوئه .

إن النوم ملاذ من كل هم ونصب ، ولكنه صار بالفعل مصدراً للهموم والمخاوف . وفى الحق لقد كان من الممكن أن نستخف بالأحلام ونستهين بأمرها ، ولا نوليها مثل هذا الاهتمام ، لو أن الفلاسفة لم يشملوها برعايتهم ، ولست أقصد صغار الفلاسفة ، ولكنى أقصد أولئك الذين وهبوا الذكاء الوقت ، وأوتوا القدرة على أن يدركوا التتـائج المنطقية التى تترتب على هذا أو لا تترتب عليه ، أولئك الذين يكادون يعتبرون معصومين من النقص والخطأ ، وفى الحق لو أن كارتيداس ، لم يقاوم غطرستهم ، لكان من المحتمل أن يقر فى أذهان الناس فى هذا العصر أنهم وحدهم الفلاسفة ، ولما كنت قد خصصت

(١) إن الفكرة التى يعبر عنها شيشرون هنا وهى اتفاق الدين مع المعرفة العلمية غير واضحة الى حد ما ، لأننا لانعرف على وجه الدقة تلك المعتقدات التى كان يعتنقها المؤلف ، إلا أننا نستطيع أن نقول اجمالاً انها تشبه ما كان يسمى فى القرن الثامن عشر وفى كثير من كتب الفلسفة : الدين الطبيعى وهو الذى لا يقر الوحي ، ومن المؤكد أن المذهب الطبيعى الالهى Déisme عند الانجليز قد أفاد كثيراً من شيسرون ، وذلك منذ عهد هر بارث شربورى الذى يرجع كتابه De Veritate prout distinguatur de revelatione الى عام ١٦٢٤ . ونرى بيانات شائعة تتصل بهذا الموضوع فى كتاب Zielinski وهو Cicero inn Wandel der Jahrhunderto ولنا نجهل الاعجاب الذى كان يديه فولتير لـ شيسرون ، وفولتير من أتباع المذهب الطبيعى الالهى عند الانجليز (جارييه) .

هؤلاء بمعظم ما أثرت من جدل عنيف ، فإني أصرح بأن هذا لا يرجع إلى
أنى أنطوى لهم على نوع من الاحتقار ، بل مرده على عكس هذا إلى أنى أراهم
يذودون عن آرائهم بأعظم دقة وأكبر مهارة ، وذلك فوق أن من خواص
أهل الأكاديمية ، ألا يقدموا للناس نتائج اهتموا إليها ، بل يستصوبون النتائج
التي تلوح لهم أدنى ما تكون إلى الحق ، ويقارنون بين الأدلة ويعلنون كل
ما يمكن أن يقال في تأييد الرأى دون أن يؤكدوا رأيا لهم ، ويتركون للسامع
مطلق الحرية في إبداء رأيه وإصدار حكمه ، وهذه الطريقة نفسها — ونقول
عرضا إنا ورثناها عن سقراط — هي التي أنوى التزامها في مناقشاتنا المقبلة ،
ما استطعت إلى ذلك سبيلا — إن كان هذا يروقك يا عزيزى كونتوس .
فقال كونتوس : « ليس أحب إلى من ذلك » .

وبهذا انتهى الحديث بيننا فنهضنا ؟

كتب للمؤلف

أ — ترجمة :

- ١ — علم الغيب في العالم القديم : قامت بنشره مكتبة الآداب عام ١٩٤٦ (وقد قدمت الترجمة مع التعليق عليها ملحقاً لرسالة الدكتوراه (الأحلام) التي جازت الامتحان بمرتبة الشرف الممتازة) .
- ٢ — تراث الاسلام : لجنة الجامعيين لنشر العلم عام ١٩٣٦ (ترجم فيه المؤلف الجزء الذي وضعه ا. جيوم عن « الفلسفة والألهيات »)
- ٣ — تاريخ علم الأخلاق : وضعه هنري سدجويك أستاذ الفلسفة الخلقية في جامعة كامبردج — ومستصدر الترجمة العربية في جزئين قريباً

ب — تأليفاً :

- ٤ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام : صدرت في سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية عام ١٩٤٥
- ٥ — الأحلام — دراسة مقارنة . قامت بنشره مكتبة الآداب عام ١٩٤٥ (رسالة الدكتوراه المشار إليها سابقاً)
- ٦ — الشعراني — إمام التصوف في عصره : صدر في سلسلة أعلام الاسلام عام ١٩٤٥
- ٧ — قصة الكفاح بين روما وقرطاجنه : لجنة الجامعيين لنشر العلم عام ١٩٣٦ ، وقامت بإعادة طبعه مكتبة الآداب وظهرت الطبعة الثانية عام ١٩٤٦
- ٨ — التصوف في مصر إبان العصر العثماني : تحت الطبع بمكتبة الآداب (بحث جاز امتحان الماجستير بمرتبة الشرف)
- ٩ — قصة النزاع بين الدين والفلسفة : يطبع قريباً

